الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
RépubliqueAlgérienneDémocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
Ministère de l'enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

جامعة مصطفى اسطمبولي

معسكر

كلية: العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم: الفلسفة

مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية

Université Mustapha Stambouli

Mascara

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الطور الثالث

تخصص: الدين واللغة في الخطاب الفلسفي

فرع: فلسفة الدين والحضارة

العنوان

الأبعاد الحضارية والإنسانية عند الأمير عبد القادر
- قراءة تحليلية لتجربته الصوفية -

تقديم الطالبة: بغدود مريم

يوم: 2018/5/10

أمام لجنة المناقشة:

الرئيس	خليفي بشير	أستاذ محاضر أ	جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر
المناقش	عطار أحمد	أستاذ محاضر أ	جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان
المناقش	بن علي محمد	أستاذ محاضر أ	المركز الجامعي أحمد زبانة غليزان
المناقش	خديم أسماء	أستاذة محاضر أ	جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر
المقرر	نابي بوعلي	أستاذ	جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر
المقرر المساعد	كرد محمد	أستاذ محاضر أ	جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر

السنة الجامعية: 2018/2017

الإهداء

أهدي عملي هذا إلى: الوالديـــــــــــــــــــــــن.

كلمة شكر وعرفان

يشرفني أن أتقدم بجزيل الشكر إلى كل من ساعدنا على إنجاز هذا العمل وأخص بالذكر: أستـــاذي المشرف الدكتور نابي بوعلي ، والمشرف المساعد الدكتور: كرد محمد.

المقدمة

يعتبر التصوف أحد الموضوعات الفلسفية حيث أنّ هذه الأخيرة من بين أهدافها هو الكشف عن الحقيقة، والمتصوف يرجع من رحلته الصوفية ملهما بحقائق كثيرة.

يتفق الكثير من الصوفية في أنّ الإله مصدر الحقيقة إلا أنهم يختلفون في تقديم تعريف جامع مانع للتصوف لأن اللغة الصوفية هي لغة رمزية حيث أن لغتنا العادية الاصطلاحية غير كافية للتعبير عن الحقائق العرفانية لأنها مرتبطة أكثر بالعالم المحسوس في حين اللغة الصوفية تتجاوز العالم الدنيوي وتتعلق أيضا بالعالم الأخروي وبهذا لا يمكن حصر التصوف في تعريف دقيق.

من خصائص التصوف أنه تجربة فردية خالصة وما ينبغي الإشارة إليه أن مفهوم التصوف لم يرتبط بظهور الإسلام وإنما ظهوره قديم، إذ نجد مثلا في الديانة زرادشتية أن زرادشت (ولد ما بين 1500- 650 ق.م) (وتوفي ما بين 1000- 500 ق.م) يرى أن أهرو مازدا إله الخير النور ومصدر الحقيقة سينتصر في الأخير على إله الشر أهرومان.

أما في الديانة البوذية نجد أن بوذا (563- 483 ق.م) كان من المتصوفة إذ نادى بكبح الشهوات وتخليص النفس من الجانب الشيطاني للوصول إلى الكمال الإنساني وبذلك يتم تحصيل النرفانا – السعادة – .

كما نادى كونفوشيس (551- 479 ق.م) في الحضارة الصينية بأخلاق التسامح، محبة الخير للجميع، وعدم مقابلة الشر بالشر واعتزل في الجبال وانهمك في العبادات.

ومن بين المتصوفة في الديانة المسيحية نجد القديس أوغسطين (354- 430 م) هذا الأخير تلقى الكثير من الحقائق الإلهية بسبب هجره المفاسد وزهده عن ملذات الدنيا – حصل له هذا الفتح في المرحلة الثانية من حياته-.

وفي الديانة الإسلامية قد سمح الرسول صلى الله عليه وسلم بالفعل التأويلي لابن العباس ودعا له الله أن يفقهه في الدين ويعلمه التأويل.وهناك العديد من الفرق الكلامية الإسلامية التي اهتمت بتأويل الآيات القرآنية سواء كان هذا التأويل عقلي أو نقلي... ومن بين تلك الفرق نذكر المعتزلة، الأشاعرة ...

نجد هناك آخرون رأوا أنّ مجاهدة النّفس هو السّبيل الوحيد للوصول إلى الحقيقة ومنهم الأمير عبد القادر الذي حكم البلاد ، وحاول البحث عن حل للخروج من الواقع الاستعماري وإنهاء الصراع بين القبائل الجزائرية.

ومن هنا فإن الإشكالية التي تنطلق منها هذه الدراسة هي تلك التي تؤكد على أن التجربة الصوفية للأمير عبد القادر هي التي مكنته من الانتقال بالوعي القبلي من مفهوم الولاء للقبيلة إلى مفهوم الولاء للدولة، وبالتالي التأسيس لمفهوم ولماهية الدولة من حيث هي تأكيد وتجسيد لمجموعة من القيم الإنسانية والحضارية.

فربما تصوف الأمير عبد القادر لم يجعله ينعزل عن واقع ما كانت تعانيه الأمة العربية والإسلامية من استعمار وصراع بين القبائل، بل إن هذه النزعة الصوفية هي التي ساعدته على الانطلاق من هذا الواقع مستعينا في ذلك بمبادئ الدّين الإسلامي للنهوض بالأمة الإسلامية والتأسيس لمفهوم الدولة الجزائرية الحديثة.

وربّما استطاع الأمير عبد القادر تجسيد الدولة الجزائرية الحديثة لأنه كان يحوز على زوّادة معرفية تتعلق بالجانب السياسي، ولديه طموح أن يكون رجلا سياسيا وشخصية عالمية تربطها علاقات إنسانية مع الإنسان مهما كان جنسه ودينه لأنه يرى فيه تجلي إلهي.

ولتناول هذه الإشكالية فقد اعتمدت على المنهج التاريخي التحليلي، وهدفنا في ذلك هو تقريب فكر الأمير عبد القادر إلى أذهان القراء، بحيث يتم التعريف بفكر الأمير وبأبعاده الإنسانية، وبالأخص في جانبه الخاص بتصوفه وعلاقة كل ذلك بقراءاته وتأويلاته للنص القرآني، وبنقده بالتالي لكل القراءات الفلسفية والعقلية للنص الديني، وتحليله لبسائط المفاهيم التي انطلق منها وفي الآن ذاته إحاطة العلم بالتعالق بين هذه المفاهيم التي أنشأت فكره، كما اعتمدنا على المنهج النقدي لتقييم ذلك.

ولإنجاز أطروحتنا الموسومة بالأبعاد الحضارية والإنسانية عند الأمير عبد القادر . قراءة تحليلية لتجربته الصوفية . اعتمدنا على الخطة التالية: استهلينا موضوعنا بمقدمة تمهيدية ثم قسمنا بحثنا إلى أربعة فصول:

الفصل الأول معنون ببدايات تجربة الأمير عبد القادر الصوفية وقسمناه إلى ثلاثة مباحث:

تطرقنا في المبحث الأوّل "عن التصوف": إلى بعض النماذج الصوفية القريبة من فكر الأمير عبد القادر وبعضهم تأثر بهم ومنهم نذكر الغزالي الذّي رأى أنّ الحقيقة علم وعمل أي يجب الربط بين الجانبين النظري والعملي، وكذا ابن خلدون الذي كان في كتابه المقدمة ضد التصوف لكن في رسالته

الشفاء فرق بين من يدّعون التصوف وبين المتصوفة حقيقة، وابن عربي الذي ربط بين التصوف والتحضر.

وضّحنا في المبحث الثاني "موقف الأمير عبد القادر من التأويل العقلي": أنّ الأمير عبد القادر يمجد الحقيقة الصوفية ويرفض التأويل العقلي وإن قبله يكون ذلك للعامة فقط، كما يرفض القراءة اللفظية الحرفية للآيات القرآنية – ظاهر النص–.

وبيّنا في المبحث الثالث "مصادر تصوفه": أسباب تصوفه نذكر منها: تربيته منذ الصغر على أخلاق ومبادئ الدين الإسلامي والصلاة، حفظ القرآن الكريم، انحداره من نسب الرّسول صلى الله عليه وسلّم، نزعته الإنسانية، قراءته لكتب المتصوفة، مصاحبته لوالده الذي هو الآخر عرُف بتصوفه على الطريقة القادرية كما أنه هو من تولى أمر زاوية القيطنة بعد وفاة والده.

الفصل الثاني موسوم بـ: المصوّغات الحضارية للتجربة الصوفية عند الأمير عبد القادر

وقسمناه إلى ثلاثة مباحث :

اهتمينا في المبحث الأوّل "التصوف عند الأمير عبد القادر": بمفهومه للتصوف وبعض جوانب تجربته الصوفية.

وانصبت دراستنا في المبحث الثاني "نماذج عن تأويلات الأمير عبد القادر": حول نماذج تأويله الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والعارفين معتمدا في ذلك على الإلهام.

وبيّنا في المبحث الثالث "الأمير عبد القادر رجل صوفي وحضاري": أن التصوف لا يتعارض مع الحضارة إذا هذه الأخيرة تتوافق مع مبادئ الدين الإسلامي، ومن أبعاد الأمير عبد القادر الحضارية أنّه

لا دولة دون ثقافة وعمران واقتصاد، ولما كان مشروعه تحديثي اهتمّ بتأسيس المدن ولاسيما منها مدينتي تاكدمت والزمالة، وركّز على تطوير الجانب الاقتصادي وذلك لتحقيق اكتفاء ذاتي في هذا المجال حيث بنا مصانع للأسلحة والملابس...

الفصل الثالث متعلق بـ: مواقف الأمير عبد القادر الإنسانية، وقسمناه إلى ثلاثة مباحث:

حاولنا الإحاطة في المبحث الأوّل "روح الحوار عند الأمير عبد القادر": ببعض حوارات الأمير عبد القادر التي تعددت مجالاتها حسب الحاجة نذكر منها: حواراته العائلية مع أمّه وزوجته وأبنائه، بالإضافة إلى رسائله للعديد من رؤساء الدول طلبا للتدخل بينه وبين فرنسا أو للمبادلات التجارية، و ساعده في بناء علاقاته الحوارية اعتماده على أخلاقيات الحوار، كما أنه كان شخصية ذو كفاءة في هذا المجال.

أبرزنا في المبحث الثاني "ثقافة الأخوة والمصالحة في فكر الأمير عبد القادر": بعض معاهدات الصلح التي أمضاها مع الاستعمار ولعلّ أهمها معاهدة ديميشال ومعاهدة التافنة، وقد استغلّ فترة السّلم في توحيد القبائل وتنظيم الدّولة والجيش بالإضافة إلى صلح الستينات الذّي حاول تحقيقه الأمير بين المسلمين والمسيحيين في دمشق، وعندما لم يتمكن من ذلك أنقذ المسيحيين من اعتداء المسلمين المماثلين له في الدين.

وبيّنا في المبحث الثالث "البعد الإنساني عند الأمير عبد القادر": جوانب من إنسانية الأمير عبد القادر وسعيه إلى صناعة الإنسان الكامل، وأنّ الأمير عبد القادر تجلى في شخصيته الإنسان الكامل وتظهر إنسانيته بجلاء من خلال معاملته للأسرى.

الفصل الرابع عنوانه: قراءة تقييمية لمشروع الأمير عبد القادر المتصوف والسياسي.

وقسمناه إلى ثلاثة مباحث:

وضحنا في المبحث "مفهوم الدولة عند الأمير عبد القادر": إلى أنّ الدولة في رأيه هي الاجتماع البشري الذي ينبغي تحضره والنهوض به وتسيير شؤونه وتحديد قوانينه وفقا للدين الإسلامي، فكان القرآن الكريم والسنة النبوية الموجهان له، حيث إذا استعصى على الأمير عبد القادر أمرا استرشد بعلماء الدّين.

تطرقنا في المبحث الثاني "الأمير عبد القادر متصوف وسياسي": أنه جمع بين السياسة والتصوف فرغم تولّيه زمام الحكم إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يكون رجلا زاهدا متعبّدا الله، كما أنه لم تكن له أطماع سياسية وقبل هذا المنصب أداء لواجبه الديني ونتيجة لغياب الرجل الكفء.

وبيّنا في المبحث الثالث "المشروع الفكري للأمير عبد القادر بين مؤيدين ومعارضين" إلى أنّ الأمير عبد القادر حقق نجاحات على مستوى مشروعه، لكن من جهة أخرى وقع في زلات.

ثم تأتي الخاتمة وهي بمثابة تلخيص للموضوع وتوضيح للاستنتاجات التي توصلنا إليها في سياق هذا البحث، وفي نهاية البحث قائمة المصادر والمراجع.

وإنّ موضوعنا الأبعاد الحضارية والإنسانية عند الأمير عبد القادر . قراءة تحليلية لتجربته الصوفية . لموضوع مهم لأن الأمير عبد القادر الشخص المتصوف الحاكم الإنساني الحضاري المجاهد المتعدد الجوانب والأبعاد ليستحق الاهتمام والبحث فهو في ذاته زوادة معرفية للتعلم والتخلق والتحضر...

وقد اخترنا بحثنا هذا لأسباب نذكر منها: من بين الأفكار التي كنا نعرفها أنّ الأمير عبد القادر رجل ثورة لكن بحضورنا في إحدى المحاضرات اكتشفنا أنه سياسي ومفكر وشاعر وصوفي، مما أخدنا الفضول للتعرّف عن هذا الجانب من شخصيّته.

لدينا ميول نحو الأخلاق الإنسانية ولعلّ الأمير عبد القادر من أبرز ممثلي هذا الجانب.

من بين الدراسات السابقة للموضوع: بلغراس عبد الوهاب، الحدث التاريخي في اللحظة الصوفية من خلال تجربة الأمير عبد القادر، أطروحة دكتوراه، بإشراف: الدكتور محمد عبد اللاوي، قسم الفلسفة، جامعة وهران، 2010- 2011. حيث أن أطروحة الطاب غنية بالمصادر والمراجع باللغتين ووضع الطالب ملخصا في نهاية كل مبحث لكنه لم يتطرق إلى صلب الموضوع حتى في المبحث الثاني من الفصل الثاني.

بالإضافة إلى أطروحة الطالبة عائشة بن ساعد، البعد الروحي لمقاومة الأمير عبد القادر أطروحة ماجستير، بإشراف: الدكتور سعيدوني، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2003- 2004. فرغم أن الدراسة هي في التاريخ إلى أنّ الموضوع له جانب فلسفي وهو ما أفادنا في إنجاز بحثنا.

لقد واجهنا في هذا البحث بعض الصعوبات التي تدور حول نصوص وأعمال الأمير عبد القادر، فهي أعمال لا يمكن أن نصل من خلالها إلى أحكام ثابتة أو معارف مطلقة يمكن للمرء أن يستريح عندها، هي بمثابة طرق وليست أعمالا، لا شك أن الخوض في غمار فكر الأمير عبد القادر رياضة في غاية المشقة، مشقة تدعونا الى مغامرة من نوع فريد، بوصل فكر الأمير عبد القادر بتاريخ الفكر الصوفي.

وأريد أن أضيف إلى ذلك صعوبات أخرى واجهتني أثناء البحث، منها صعوبة المفاهيم الصوفية، كما أنّ دراسات الأمير عبد القادر أغلبها ذات طابع تاريخي لكن نحن كباحثين في الفلسفة لا نكتفي بالاسترداد وإنما نهتم بطرح الإشكاليات والنقد والتعمق والتأمل الفلسفي.

فما نتوخاه ونستشرفه من دراستنا هو تبيين أن التصوف لا يمنع الإنسان أن يكون حضاريا وإنسانيا ونموذجنا في ذلك هو الأمير عبد القادر، هذا الأخير هو شخصية عالمية إنسانية تستحق الدراسة إذ يبقى عبرة لنا خاصة وأنه صنع الكثير وهو يعيش في واقع استعماري، في حين أننا نحن اليوم أبناء الأمير نتمتع بالاستقلال لكن حياتنا يطغى عليها الكسل، التبعية، التقليد، الرشوة، عدم أداء واجباتنا الوطنية كالعمل بأمانة. فهل سأل كل واحد منا نفسه إذا يحافظ على أمانة أجداده والجهود التي بذلوها في سبيل الوطن والهوية والدين الإسلامي؟

الفصل الأول: بدايات تجربة الأمير عبد القادر الصوفية.

المبحث الأوّل :عن التصوّف.

المبحث الثاني: موقف الأمير عبد القادر من التأويل العقلي.

المبحث الثالث: مصادر تصوفه.

المبحث الأول: عن التصوف

التصوف في اللغة: من الفعل صَوفَ، والمتصوفة هم من تخلقوا بأخلاق الصوفية، واحدهم صوفي، وهو من كان فانيا بنفسه باقيا بالله تعالى مستخلصا من الطبائع متصلا بحقيقة الحقيقة[1].

أما اصطلاحا: يطلق مفهوم التصوف في المجال الفلسفي "على الفلاسفة الذين يقولون بإمكان الاتحاد الباطني المباشر بين الفكر البشري ومبدأ الوجود... وإذا كان الفلاسفة الربيون يبطلون أحكام العقل وينكرونها... فإن الفلاسفة المتصوفون يتعلقون بالحقيقة ويؤمنون بإمكان الوصول إليها، والفرق بينهم وبين الفلاسفة العقليين أنهم يُبخسون العقل حقه ويبالغون في قيمة الكشف الباطني وتأثير القلب والخيال في الوصول إلى الحقيقة"[2]. من بين أنواع التصوف نذكر التصوف الفلسفي ومصدر الحقيقة عند أصحاب هذا النوع من التصوف هو اتحاد الذات المتصوفة بالذات الإلهية وبذلك تعود الذات الإنسانية إلى العالم الحسي وقد تلقت حدسا الكثير من الحقائق الإلهية.

"إن العارف بالله تتعلق إرادته بالحق لذات الحق ولا يؤثر شيئا على عرفانه إلا الحق، إذ الحق مؤثر على عرفان العارف، وذلك لأن غير العارف يؤثر شيئا غير الحق وهو نيل الثواب والنجاة من العقاب، أما العارف فلا يتعلق إلا بالحق وحده دون أيّ هدف آخر، أما من يجعل الحق واسطة في تحصيل شيء فإنه لم يطعم لذة البهجة به، فعلى الرغم أنه في صورة الزاهد إلا أنه أحرص الخلق على اللذات الحسية"[3].

من صفات الزاهد هو عبادة الله من أجل عبادته فقط دون غايات أخرى حتى وإن كانت محمودة مثل الرغبة في الكثير من الأجر، فمتعبد الله لأهداف لا يعد متصوفا لأنه لم يعبد الله كغاية لذاته وإنما رأى فيه وسيلة لتحقيق غاياته، وبالتالي هو لم يستطع بعد التخلي عن منافعه.

[1] – لويس معلوف، المنجد، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، د (ط، س)، ص 441.
[2] – جميل صليبيا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، لبنان، د (ط)، 1982، ص 283، 284.
[3] – عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج1، مؤسسة العربية للدراسات والنشر، الإسكندرية، د (ط، س)، ص 64.

"هو في علم النفس هو حالة نفسية يشعر فيها المرء بأنه على اتصال بمبدأ أسمى أما فلسفيا فهو نزعة ترتكز على الخيال والعاطفة أكثر مما ترتكز على العقل والتجربة"[1]، بمعنى أن يكون الإنسان في علاقة اتصال ومحبة مع ربه، وهو مذهب فلسفي يقر أنصاره أن مصدر المعرفة هو القلب وليس العقل ولا الحس.

وإنّ سكان بلاد فارس اليوم يستخدمون هذا المصطلح ويقصدون به التقشف[2].

والمتصوفة يعتمدون في تأسيس معرفتهم على النظرة التصوفية ونقصد بذلك:

"دعوى مشاهدة حقائق الأشياء والأمور مشاهدة باطنية عن طريق الحدس والوجدان اللذين لا يمكن التعبير عنهما باللغة والتفكير العقلي"[3] بمعنى أن المتصوف يدرك الحقيقة عن طريق القلب كما أن اللغة العادية قاصرة في التعبير عن المعرفة الصوفية هذا من جهة ومن جهة أخري العقل عاجز عن إدراك كنه هذه الحقيقة.

إن أصحاب النظرة الصوفية هم الذين يحتقرون المعرفة العقلية ويعتمدون في توجيه الحياة والمعرفة على الحدس والعاطفة[4].

ومن المفاهيم التي تتداخل مع مفهوم التصوف نذكر:

- الإلهام:

[1]- إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، د (ط، س)، ص 46.

[2] -André Jacob , Encyclopédique, philosophique universel, Puf Paris, 1997, p 633.

[3]- محمود يعقوبي، معجم الفلسفة، الميزان، الجزائر، ط2، د (س)، ص 88.

[4]- André Jacob , Encyclopédique, philosophique universel, Puf Paris, 1997,, p 4305.

"مدرك من الباطن وقيل الإلهام ما وقع في القلب من علم وهو يدعو للعمل من غير استدلال بآية ولا نظر حجة وهو ليس بحجة إلا عند العلماء الصوفيين"[1]. إذن الإلهام هو كل معرفة وقعت في القلب وهو خاص بالمتصوفة.

- الزهد: " هو ترك الحلال من متاع الدنيا والإعراض عنه احتقارا له وطلبا لمرضاة الله والاقتراب منه"[2].

إذن المقصود من مفهوم الزهد هو التقشف، والتخلي عن ملذات الدنيا حتى المحمود منها، ولهذا نجد الزاهد يتغذى على القليل من الزيت والخبز اليابس.

- التأويل الصوفي:

في اللغة: أول أي رجع وفي حديث ابن العباس "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل" هو من آل الشيء يؤول إلى كذا أي رجع وصار إليه، والمراد بالتأويل هو نقل ظاهر اللفظ عن معناه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما تُرك ظاهر اللفظ.

"وما يعلم تأويله إلاّ الله": أي لا يعلم متى يكون أمر البعث وما يؤول إليه الأمر عند قيام الساعة[3]. فمعنى التأويل هو تقديم المعنى الحقيقي للفظ انطلاقا من المعنى الظاهري.

"فالتأويل مشتق من الأول وهو في اللغة الترجيع، نقول أوله إليه رجعه أما عند علماء اللاهوت هو تفسير الكتب المقدسة تفسيرا رمزيا أو مجازيا يكشف عن معانيها الحقيقية"[4].

---

[1]- مراد وهبة وآخرون، المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ط2، 1971، ص 25.

[2]- محمود يعقوبي، معجم الفلسفة، الميزان، الجزائر، ط2، د (س)، ص 68.

[3]- ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي كثير وآخرون، المجلد 1، دار المعارف، القاهرة، د (ط، س)، ص 171.

[4]- جميل صليبيا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، لبنان، د (ط)، 1982، ص 234.

إذن التأويل هو الكشف عن المعاني الباطنية للآيات القرآنية المشتبهات والوصول إلى حقيقتها معتمدين في ذلك على النفس التي تحلت بمكارم الأخلاق وتخلت عن المفاسد والمحرمات.

ومن بين التجارب الصوفية التي تأثر بها الأمير عبد القادر نذكر أبي حامد الغزالي:

إن اختيارنا للتجربة الصوفية لأبي حامد الغزالي لم يكن اعتباطيا لأن الأمير عبد القادر قد تأثر به خاصة في فكرته التي مفادها الحقيقة علم وعمل.

لقد شك أبو حامد الغزالي* (1059م- 1111م) في المراحل الأولى من حياته الفكرية، في قدرة كل من الحواس والعقل على بلوغ الحقيقة، أو كما يسميه العلم اليقيني، يقول أبو حامد الغزالي ما نصه: "العلم اليقيني هو الذي يكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم... بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين، مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا، لم يورث ذلك شكا وإنكارا... ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته، أما الشك في ما علمته فلا"[1].

إن منهج الشك المنهجي عند الغزالي، سيبقى صفة ملازمة لتفكيره الباحث عن الحقيقة، فالشك فيما نعرفه، سيكون علامة على اليقظة الفكرية، ودليل على حركة العقل الإنساني ورغبته في تحصيل اليقين المؤسس على العقل والبرهان، وبالتالي هدم المعرفة الساذجة التقليدية.

* - "هو أبو حامد محمد الغزالي، ولد في طوس بخراسان، درس علم الكلام عن إمام الحرمين الجويني... استعرض مختلف التيارات في ثقافة عصره فهناك أربعة اتجاهات... المتكلمين، الباطنية، الفلاسفة، المتصوفة... والأداة الصالحة لمعرفة الحق عنده هي الذوق الباطني ومن تم فقد أخذ بنظرة المتصوفة دون الجماعات الثلاث".(فؤاد الكامل وآخرون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار القلم، بيروت، د (ط، س)، ص 285، 286).

[1] - الغزالي، المنقذ من الضلال، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2003، ص 40.

سينتقل أبو حامد الغزالي بعد هذه الخطوة (اعتماد أسلوب الشك المنهجي) إلى مرحلة مناقشة ونقد ودراسة الأفكار والمفاهيم التي كانت سائدة في وقته، وقد استطاع أن يرتبها حسب مناهجها وأدواتها وهي عنده أربعة أصناف: المتكلمون، الباطنية، الفلاسفة والمتصوفة، يقول ابو حامد الغزالي في كتابه ((المنقذ من الضلال)) ما نصه: "أحضرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق المتكلمون: وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر. والباطنية وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم، والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم. والفلاسفة: وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان. والصوفية: وهم يدعون أنهم خواص الحضرة، وأهل المشاهدة والمكاشفة"[1]، درس ونـــاقش أبو حامد الغزالي علم الكلام وصنف فيه عدة من الكتب التي أصبحت مرجعاً في علم الكلام فيما بعد مثل كتاب ((الاقتصاد في الاعتقاد)).

إلا أنه اعتبر علم الكلام غير واف ولا يمكن أن يساعد على تحصيل معرفة أو علم يقيني، وبعد استبعاده لعلم الكلام وقدرته على إنتاج معرفة يقينية قام أبو حامد الغزالي بدراسة ما أنتجه الفكر الفلسفي في مختلف الأزمنة، حلل هذا الإنتاج وفهمه ثم انتقده بقوة وقد أنتج في ذلك مؤلفا أثار فيما بعد جدلا واسعا ((تهافت الفلاسفة)).

وكان قصد الغزالي من هذا الكتاب إبراز تناقضات الفلاسفة في بعض مسائل العلم الإلهي، وقد خالفهم فيما رآه مخالفا للدين الإسلامي، وقد أكد الغزالي أثناء نقده للفلاسفة أنه لم يكن يقصد هدم ما هو معلوم من العلوم والمنطق، وإنما القصد كان ينحصر في تفنيد وإبطال ما قاله الفلاسفة في المسائل الإلهية، يلخص أبو حامد الغزالي مآخذه الكبرى على الفلاسفة، كالقول بأبدية العالم ..، لقد عجز

[1]- الغزالي، المنقذ من الضلال، مرجع نفسه، ص112.

الفلاسفة عن إثبات الصانع... وعجزوا عن إثبات وحدانية الله، وعملوا على نفي الصفات الإلهية، وعجزوا عن إثبات أن النفس جوهر روحاني قائم بذاته.

تبعا لذلك، سيؤكد أبو حامد الغزالي على رفض فعل التفلسف باعتباره يبعدنا عن الحقيقة والعلم اليقيني، ومن هنا سيؤدي التفلسف إلى مخالفة ومناقضة ما كشف عنه النص الديني، فمثلا قالوا أن العالم أزلي لكن لا أزلي إلا لله، وقالوا أن لله صفات أزلية فهذا تشبيه وإنكار للوحدة الإلهية.

ليواصل عمله الفكري هذا بدراسة ما قدمته الباطنية فردّ عليها وهاجمها واعتبرها هي أيضا غير قادرة على تحصيل علم يقيني. ليستقر أمره في نهاية الأمر على التصوف.

إن ما يمكن تحصيله من خلال هذا النقد الذي مارسه الغزالي أن فعل التفلسف في حد ذاته هو ما أوصله في آخر المر إلى التصوف، فالبرهان هو الأساس الأول الذي أوصل الغزالي، إذن، إلى العرفان.

إن طريق المتصوف إنما يتم بعلم وعمل، أي بالمعرفة والممارسة، وقد كان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة... حتى يتوصل إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله، لقد كان التصوف بالنسبة إلى أبو حامد الغزالي غاية المعنى، فالصوفية هي التي هتف لها قلبه دائما ونشد الهداية في حماها فقد كان متطلعاً باستمرار إلى اليقين والاطمئنان وسكينة النفس وقد وجد ذلك كله في الصوفية فكرة وسلوكاً وهم الذين أحس في أعماق نفسه ميلا عظيماً... إلى مذهبهم الذي يعد نفسه مدين ألهب أعز ما لديه وأشرف ما وصل إليه: ألا وهو تمكين العقيدة في قلبه ومعرفة الحقيقة بذوقه الروحي وعلمه بالدين"[1].

[1] – محمد عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، مكتبة الفكر الجامعي، بيروت، د (ط، س)، ص 689.

بحث أبو حامد الغزالي عن مصدر الحقيقة ولم يجد راحته إلا في الحقيقة الصوفية، فكل ما كان يهدف إليه ويحبه ويميل إليه وجده في الفكر الصوفي، إذ يرى أن الروح هي منبع الكشف عن الحقيقة.

أراد الغزالي أن تكون العلاقة بين الحكمة والشريعة علاقة تكامل، ولكي يحقق المصالحة التامة بين الحقيقة والشريعة... فكك التصوف وجعله علمين: علم المعاملة وعلم المكاشفة وجعل مهمة العلم الأول إحياء علوم الدين فأقامه موازيا وموازنا لعلم الفقه، علم الفقه يشرح كيفية أداء الفروض الدينية من طهارة وصلاة وصيام وزكاة وحج أداء جسمانيا واجتماعيا، أما علم المعاملة فقد جعله الغزالي علما يشرح الفروض نفسها أداء روحيا[1].

إن علم التصوف بقسميه، إذن، يحتوي العقل والنقل معا، حيث أن علم التصوف له جانب يتعلق بالعلم والجانب الروحي وجانب آخر يتعلق بالممارسة والعمل.

إن أول ما فعله الغزالي هو الاطلاع على كتب أهل التصوف، مثل كتاب ((قوت القلوب)) لأبي طالب المكي، وكتاب الرعاية لحقوق الله)) للحارث المحاسبي، وأدرك بعدها أن ولوج عالم التصوف لا يمكن يكون إلا بالذوق وليس بالتعلم، "فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ... حتى أُطلقت على كنه مقاصدهم العلمية، فظهر لي أنّ هناك ما لا يمكن الوصول إليه بالتعليم بل بالذوق.. فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه وبين أن تكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا... وإنّ ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا الذوق والسلوك"[2].

[1]– عبد الجليل عبد الكريم، التأمل عند الغزالي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2000، ص 96.

[2]– محمد عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، مرجع سابق، ص 689.

بعدما اكتسب العلم الصوفي رأى أنّ ذلك الأخير غير كاف لكي يحصل مبتغاه بل عليه بالعمل المتمثل في التحلي بالأخلاق وتجنب المنكرات والزهد عن ملذات الدنيا، ومن هنا يمكن الحديث عن الطريق الثاني الذي رسمه الغزالي لنفسه، ألا وهو طريق العمل والممارسة، والذي لن يكون إلا بالتحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل، ليصل إلى المراتب العليا، يقول الغزالي في هذا المعنى ما نصه: "وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمح لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى، وإن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا... وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الحياة والمال، والهروب من الشواغل والعلائق"[1].

ويؤكد أن المتصوف لا يمكن أن يصل إلى هذه المرتبة إلا إذا داوم الاعتزال، إذ يرى أنّ "أول مبادئ السالك أن يكثر الذكر بقلبه ولسانه بقوة حتى يسري الذكر في أعضائه وعروقه وينتقل الذكر إلى قلبه فحينئذ يسكت لسانه ويبقى قلبه ذاكراً يقول (الله الله) باطنا مع عدم رؤيته لذكره"[2].

فالصوفي لا يُكثر من مجالسة الناس وإذا جالس يذكر الله أو ليسكت، والسالك للحقيقة أول ما عليه هو الإكثار من ذكر الله لسانا وقلبا، حتى يصبح جسده كله ذاكرا لله، فهناك يصبح القلب ذاكرا لوحده.

يقول الغزالي "وحكم الصوفي أن يكون الفقر زينته والصبر حليته والرضا مطيته والتوكل شأنه، والله عز وجل وحده حسبه يستعمل جوارحه في الطاعات وقطع الشهوات والزهد في الدنيا والتورع عن جميع

[1] – أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال، مرجع سابق، ص 29.

[2] – أبو حامد الغزالي روضة الطالبين وعمدة السالكين، دار النهضة الحديثة، بيروت، د (ط، س)، ص 25.

حظوظ النفس وأن لا يكون له رغبة في الدنيا البتة، ويكون صافي القلب من الدنس ولها بحب ربه فاراً إلى الله بسره يأوي إليه في كل شيء ويأنس به "[1].

فالصوفي هو الذي انقطع عن الدنيا وشهواتها وملذاتها، وهو من طهر قلبه ونفسه، يقول أبو حامد الغزالي: "الله عز وجل إدا أراد بعبده خيراً بصَرَهُ بعيوب نفسه... فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق: الأول: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النَّفس... الثَّاني: أن يطلب صديقاً صدوقاً متديناً، فينصبه رقيباً على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله، الثالث: أنْ يستفيد بمعرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه، الرابع: أنْ يخالط الناس فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق... ينسبها إليه"[2].

إنّ الذين يكرمهم الله هم الذين يرون نقائصهم، لأنّنا لا يمكننا معالجة مفاسد أخلاقنا دون معرفتها، لكن المعروف أنّ الكثير من الناس يرون عيوب غيرهم لا عيوبهم، ولهذا ينصحنا أبو حامد الغزالي بمنهج نعتمده لكشف عيوبنا وهو: أن يتجه الإنسان إلى عالم بأمور الناس ليعرف ما يمكن أن تقع فيه النفس من أخطاء وما تجري من ورائه من شهوات، أن يصاحب الملتزمين بدينهم، المشتهرين بالصدق في أقوالهم ويسألهم عن ما يُرى فيه من عُيوب، أن يأخذ بعين الاعتبار سب وشتم أعدائه لأنّ هؤلاء يمكن أن يدلوه عن الكثير من مساوئه، الكشف الذي أراده الغزالي، أنه علم القلب الصادق، وحدسه الصائب، ويقظة الذات الأمينة، وشهادتها العادلة وحكاية القلب للواقع حكاية المرآة للوجه حيث كانت الذات هي الواقع،

[1]- أبو حامد الغزالي ، روضة الطالبين وعمدة السالكين، مرجع نفسه، ص 29.

[2]- أبو حامد الغزالي، مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب في علم التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت، د (ط، س)،ص 240.

وكان الواقع هو الذات، لا فرق بين اكتشافها ما وراء الطبيعة بنور الإخلاص والإيمان وبين معرفتها بأشياء الطبيعة بالتجربة والعيان، كلاهما عين اليقين[1].

يرى الغزالي أن الطريق للوصول إلى اليقين هو القلب، فصاحب النفس الطاهرة يمكنه رؤية حقيقة الحقائق والواقع كما هو لا كما يراه العامية في مظهره، اتجه الغزالي إلى القلب لأن في قلب كل إنسان استعداداً، فإذا تغلبت الشهوات على القلب كان شيطاناً، وإذا تغلب القلب عليها كان ملاكا، ونرمز بالملاك إلى سيطرة الفضيلة على الرذيلة، وبالشيطان إلى استبداد الرذيلة وتحكمها، فاجتهد الغزالي أن يكون القلب هو الغالب والمنتصر، ومتى انتصر القلب... كان ما يحس به ويشعر حقاً وصدقاً[2].

يرى الغزالي، إذن، أن طريق الحقيقة هو القلب، فهذا الأخير هو الذي يبين الصدق من الكذب، وهو المركز في الإنسان حيث إذا صلح تغلبت النفس المطمئنة على النفس الشهوانية، وإذا فسُد يحدث العكس.

يُؤكد الغزالي على حق كل إنسان في الإيمان الفردي، فالطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق... ولكنها كلها مستقيمة في الحقيقة، فهي الطريق التي ورد ذكرها في القرآن {وهديناهم إلى صراط مستقيم } (الأنعام الآية 87) والعارف إنما يتميز عن غيره من عامة الناس بأنه يعرف الاستقامة في الاعوجاج: فاستقامة المثلث المتساوي الساقين أن يكون متساوي الساقين، واستقامة الدائرة أن تكون دائرة صحيحة، بحيث يكون كل خط يخرج من المركز إلى المحيط مساوياً لغيره من الخطوط[3].

[1]. محمد جواد مغنية، معالم الفلسفة الإسلامية نظرات في التصوف والكرامات، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1986، ص 263.
[2]. محمد جواد مغنية، معالم الفلسفة الإسلامية نظرات في التصوف والكرامات، مرجع نفسه، ص 264.
[3]. توفيق سلوم وآخرون، الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابي، لبنان، ط1، 2000، ص354.

إذن يبين أبو حامد الغزالي أن طرق الوصول إلى الحقيقة كثيرة، وتكون صحيحة إذا كانت تتبع الطريق الذي أمرنا به الله، "يعرض أبو حامد الغزالي في كتابه الموسوعي إحياء علوم الدين... لعدد من جوانب التصوف، لاسيما العملية منها كمشروعية السماع ومسألة المقامات والأحوال، وغيرها أما في مشكاة الأنوار وهو مؤلفه الأساسي في التصوف فيبني صرحا فكريا متسق نسبياً يمثل لوناً من ميتافيزيقا النور فهو ينطلق من الآية القرآنية " لله نور السموات والأرض" (النور، الآية 35) فالكون كله هرماً من الأنوار قاعدته الذات المظلمة المادية وقمته النور المحض الإله[1].

من بين أهم كتب الصوفية لأبي حامد الغزالي، كتابه (إحياء علوم الدين) ففي هذا المصدر، تعرض إلى الجانب العملي للتصوف، أما المصدر الأهم في هذا الجانب هو (مشكاة الأنوار) الذي من خلاله نكشف فكره الصوفي.

المتصوف عند أبو حامد الغزالي هو الناسك والزاهد في الدنيا بعد أن أقبلت عليه، تصوفا يحده الإيمان بالله والعمل المنزه عن كل غاية من الغايات المشينة، لا تصوف الذين تظاهروا بالزهد في الدنيا بعد أن زهدت بهم، ولبسوا الخرق والمرقعات، وتشبهوا بالأولياء، ليتبرك بهم البلهاء[2].

التصوف عنده هو علم وعمل، فهو يرفض الانتساب إلى التصوف عن طريق لبس الصوف، وإنما يرى أن ذلك يكون بترك ملذات الدنيا عن اقتناع والقيام بالخيرات لأنها أوامر إلهية لا من أجل التظاهر أمام الناس.

[1]– توفيق سلوم وآحزون، الفلسفة العربية الإسلامية، مرجع نفسه، ص 293.

[2]. محمد جواد مغنية، معالم الفلسفة الإسلامية نظرات في التصوف والكرامات، مرجع سابق، ص 100.

" يميز الغزالي بين نوعين من السفر: سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحاري والخلوات، وسفر يسير بالقلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات والأشرف السفرين السفر الباطن"[1]. هناك نوعين من الرحلات في رأي الغزالي أولهما الرحلات الطبيعية التي تكون من منطقة إلى أخرى معتمدين على إحدى وسائل السفر، أما الرحلات الصوفية وصاحب الرحلة يعتمد على القلب للوصول إلى الحق.

كما أن لابن خلدون موقف من التصوف:

رغم أن ابن خلدون هو غير صوفي إلا أننا رجعنا إلى موقفه في مبحثنا هذا – ما يهمنا في هذا الصدد هو المرحلة التي كتب فيها رسالته شفاء السائل لتهذيب المسائل- لأنه يلتق مع الأمير عبد القادر في فكرة مفادا أنه ليس كل من ينسب التصوف إلى نفسه هو متصوف لذا علينا أن نميز بين أولياء الله والذين يدعون أنهم متصوفة.

يعتبر ابن خلدون*(1222م- 1406م) من أبرز المهتمين بالفكر الصوفي، إذ يرى أنّ هناك من يتظاهرون بالتصوف ويُنسبونه إلى أنفسهم، ويوجه انتقادا لاذعا لمن يعتبر نفسه من الأولياء فيتكلم عما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر، مدعيا أنّه سبر غور أسرار الملكوت إذ يرى صلة روحية متينة بين الكواكب السيارة وقواها وبين الإلهامات اللدنية، فيفسرها على نمط أقل ما يقال فيها اعتباطي لا

[1] – خالد التوزاني، الأمن الروحي في الرحلات الصوفية المغربية، مجلة تاريخ العلوم، 2016، العدد 4، ض 21.

*– " هو ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ولد بتونس وتوفي بالقاهرة... يرى أن العالم أوسع من أن يحيط به عقل بشري... ومنهج ابن خلدون يقتضيه أن يلتمس لكل شيء علله الطبيعية ويعتقد أن سلسلة الأسباب والمسببات لابد أن تنتهي إلى علة أولى وتمثل هذا القول يبرهن على وجود الله... ويعترف بعجز الإنسان عن معرفة كل شيء معرفة تجريبية". (فؤاد الكامل وآخرون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، مرجع سابق، ص 14، 15).

يرتكز فيها على أساس إلهي بل ينم عن خزعبلات العبارات المبهمة...فيتكلم بما لا يسمح اللسان التكلم به والتعبير عنه وهذه هي الشطحات[1].

يحذر ابن خلدون من أولئك المتصوفة الذين يزعمون أنهم كُشف لهم عن أمور غيبية لكن إذا تمعنا في أفكارهم فنجد أنها أقوال صبيان من المستحيل أن يكون مصدرها إلهي.

يقول في كتابه (شفاء السائل لتهذيب المسائل) ما نصه: "كثر في بعض الفرق التضليل باسم الصوفية والتعبّد الصادق وراح أناس يُعلنون أنّهم يرون الله ويُكالمونه، ويتصلون به صلة الحبيب بحبيبه وذلك عن طريق الإسراف في الحركات والتفتيش عن المظاهر الخارقة، على حين أنهم لم يكونوا يُخبؤون وراء هذه الكلمات سوى شعوذات وخرافات بعيدون عن الصلاة الأمينة بعدهم عن الله"[2].

هناك، إذن، من ادعى التصوف وحصره في ارتداء ملابس الصوف وقوله بأفكار خرافية يدّع أنه حصل عليها إلهاما، لكن إذا فتشنا في الجانب الديني له وجدنا حتى أنّ صلاته لا يؤديها في الوقت بل بالأحرى لا يعرف الكثير من أركانها المفروضة، وأخلاقه وأفعاله اليومية تؤكد أنّه لا علاقة له بالتصوف.

نفهم معنى التصوف عنده من خلال أسئلة طرحها المتصوفة، وينتهي إلى حصر التصوف في رعاية حسن الأدب مع الله في الأعمال الباطنة والظاهرة بالوقوف عند حدوده مقدما الاهتمام بأفعال القلوب مراقبا خفاياها حريصا بذلك على النجاة[3].

[1]– مصطفى غالب، في سبيل موسوعة فلسفية، دار مكتبة الهلاك، لبنان، د (ط)، 1995، ص 196.

[2]– ابن خلدون، شفاء السائل لتهذيب المسائل، المكتبة الكاثوليكية، بيروت، د (ط، س)، ص 8.

[3]– مصطفى غالب، في سبيل موسوعة فلسفية، مرجع سابق، ص 190.

المتصوفة، في رأيه، ليس هم الذين يرتدون الملابس المنسوجة من الصوف، أو الذين اختاروا فترة خلوة وزهد في المسجد النبوي الشريف، ولا من تميزوا بالصفاء القلبي وإنّما المتصوف في رأي ابن خلدون هو الذي يكون متخلقا سواء في الأفعال الخفية أو الجلية في تصرفاته الروحانية أو الممارسة على أرض الواقع وهو دائم السعي لعبادة الله والجنة هي مبتغاه.

ما ينبغي توضيحه عن ابن خلدون هو أنه في مقدمته كثيرا ما كان يرفض التصوف والمتصوفة، لكن لقد تغير موقفه منهم، وذلك ما يتوضح في رسالته (شفاء السائل لتهذيب المسائل)، "فبعد الاطلاع الكافي على مصنفاتهم وحقيقة غاياتهم ومجاهداتهم كان لابد له هنا من إنصافهم بعد أن قسا على أكثرهم في مقدمته، إنه لا يتمالك عن زيادة ما اختبره في الصالحين من ورع، وانقطاع إلى الله والمجاهدة من أجل الوصول إلى حياة الحضرة العلوية حضرة لا شائبة فيها، وظهر له البون الشاسع بين من استسلموا للشطحات ومن فتشوا عن الله في إماتة الشهوات"[1].

في رسالته (الشفاء) أصبح ابن خلدون يُناصر المتصوفة كثيرا، وفرق بين من ادّعُوا التصوف، وبين المتصوفة الحقيقيين الذين جاهدوا وروّضوا أنفسهم على مكارم الأخلاق والزهد والعبادة.

يرى ابن خلدون على أن السالك في طريقه إلى التصوف يعتمد المجاهدة والتي هي ثلاث أنواع، "وأولها مجاهدة التقوى وهي النزوع عن المخالفات والتوبة عنها، وأما المجاهدة الثانية وهي مجاهدة الاستقامة وتعني تنقية النفس ورياضتها في التصرف في الغرائز بمقتضى آداب الله، ولا وصول للمجاهدة الثالثة دون المجاهدتين السابقتين فإذا حصلتا للمريد سار نحو مجاهدة الكشف والاطلاع"[2].

[1]– مصطفى غالب، في سبيل موسوعة فلسفية، مرجع سابق، ص 190.

[2]– ابن خلدون، شفاء السائل لتهذيب المسائل، مرجع سابق، ص 12.

يقسم ابن خلدون المجاهدات إلى ثلاثة أنواع وهي: مجاهدة التقوى وفيها يتمّ الإقلاع عن المعاصي، ومجاهدة النفس والمقصود بها التحلي بمكارم الأخلاق والتخلي عن المفاسد والمحرّمات، ولا حصول للسالك إلى المجاهدة الثالثة إلا بعد حصوله على المجاهدتين السابقتين وهي تتمثل في تجلي الحقائق الإلهية للعارف.

إن مجاهدة الكشف والاضطلاع، لن تحصل ولن تكون إلا بتوفر مبادئ في المريد "وأولها حصول التقوى والاستقامة، فيشتغل بالذكر ويدخل الخلوة، إلى أن تسقط حركة اللسان وتبقى صورة اللفظ حتى تمحى صورة اللفظ ويبقى معناه إلى أن يقع الحذر الشديد ففيه يطلب من الشيخ أن يسهر على تقلبات المريد خوفا من أن تنزلق به القدم نحو العجب، فإذا خلص من هذا الخطر، انكشف له الخطر"[1].

وما ينبغي الإشارة إليه أنّ هذا التجلي لن يتحقق إلا بشروط نذكر منها: أن يكون الله حاضرا معنا في كل لحظة وحين، وجود المربّي الموجّه، الإرادة القوية في تحقيق التصوف، وبعدها يدخل في خلوة وهنا يجب مساندة الشيخ للمُريد حتى يبين له الطريق الصحيح لأنه يُمكن أن يقع في غرور النفس فيفسد كل المجاهدات السابقة بل الأكثر من ذلك يمكنه التوجه نحو طريق الهلاك والمعصية، يصل ابن خلدون بهذا التحليل* والنقد إلى نتيجتين: أولهما أن الكشف باب أوحد... يطل منها العلم اللدني بنوره الأخاذ فلا يجوز أن يُتاح لأي مريد كان، ثانيتهما أن هذا العلم لا ينبغي أن يودع الكتب إذ هو أغلى وأعلى من أن يدوّن فيها، وهو علم لا كسائر العلوم وليس بإمكان الكتب أن تضمه أو اللغة العادية أن تعبر عنه[2].

---

[1]– ابن خلدون، شفاء السائل لتهذيب المسائل، مرجع نفسه، ص 12، 13.

*– **التحليل**:

" يكون العقل تحليليا إذا تناول الأشياء بعناصرها، ويكون توليفيا إذا تناولها بكليتها ". (أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تع: أحمد خليل، منشورات عويدات بيروت، باريس، ط2، 2001، ص 67).

والمقصود بدراسة تحليلية في عنوان أطروحتنا هو دراسة تفصيلية للتجربة الصوفية التي عاشها الأمير عبد القادر.

[2]– مصطفى غالب، في سبيل موسوعة فلسفية، مرجع سابق، ص 198.

بعد اطلاعه على الفكر الصوفي والكثير من المتصوفة وصل إلى خلاصتين، مفادهما أن المعرفة اللدنية ليست حكرا على الجميع، فهي خاصة بفئة محددة، ثمّ أنّ الحقائق الصوفية إذا تحدث بها الصوفي يُوصف بالكفر فالأفكار الصوفية لا يفهمها إلا المتصوفة فيما بينهم لذلك لا ينبغي البَوح بها للعامة ولا كتابتها حتى لا تكون هذه الكتب محل مطالعة من طرف من هبّ ودبّ، كما أن اللغة العادية غير كافية للتعبير عن المعرفة اللدنية فهذه الأخيرة تعلو لغتنا العادية.

من بين المتصوفة الذين تأثر بهم الأمير عبد القادر، نذكر على سبيل المثال لا الحصر، ابن عربي*(1165- 1240)، حيث أنه يعتبر من بين المفكرين الذين أضافوا، في القرنيين الثالث والرابع الهجريين بعدا جديدا للتصوف، حيث أصبح التصوف طريقا للمعرفة وللعمل بعدما كان محصورا في الزهد والعبادة، لقد ظهرت العلاقة بين المعرفة والممارسة الصوفية عندما أُخد التصوف من بُعده النظري إلى بعده الأصلي العلمي، هذا النوع من التصوف بلغ ذروته، مع ابن عربي، الذي أشار بوضوح إلى الممارسات العلمية التي تؤدي إلى المعرفة[1].

يرى ابن عربي أن الحقيقة الصوفية لا يستطيع أن يصل إليها أي شخص، فما هي الممارسات التي تمكن الفرد من بلوغ درجة المتصوف الحقيقي؟ أو ما هو السبيل إلى تحقيق المعرفة الكشفية الصوفية؟ وما هي الوسائل المتعمدة للوصول إلى هذه المعرفة عند ابن عربي؟

يرى ابن عربي أن الإنسان في طريقه إلى المعرفة الصوفية وفي سيره إلى اليقين والحياة الأخرى هو في سفر دائم يتعين على هذا الإنسان أن يعرف ما هو السفر وما يجب أن يعد له من زاد وعتاد السفر –

*– " ولد أبوبكر محمد بن علي بقبيلة الطائي، والمعروف باسم ابن عربي وبألقاب محي الدين، الشيخ الأكبر، ابن أفلاطون... وهو من أسرة نبيلة غنية وافرة التقوى وكان له خالان سلك طريق الزهد... وكان أحد أعمامه وهو عبد اللهذا مواهب صوفية تنبئية". (أسين بلا ثيوس، ابن عربي حياته ومذهبه، تر: عبد الرحمن بدوي، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، د (ط)، 1965،ص 6، 7).

[1]– ساعد خميسي، نظرية المعروفة عند ابن عربي، دار الفجر، بيروت، ط1، د (س)، ص232.

القلب، الطريقة –[1]، لكشف حقيقة الحقائق ((اليقين)) يحتاج السالك إلى جهد جهيد، فعلى المسافر إليها أن يتحمل مشاق السفر ومسالكه الوعرة وإلا فإنه لن يصل أبدا.

العارف، سالك الطريق الصوفي، يرتقي من الأمور المحسوسة إلى المعقولة، وينتهي إلى قمة هذه الأنوار إلى الإله، ليرى أنه هو وحده النور الحقيقي وما عداه فمجاز، ولا يعاين شيئاً غيره فلا يرى ذاته، وعندما يعود في هذه الحالة التي تشبه السكر يدرك العارف أن هذا لم يكن حقيقة الاتحاد بل يشبه الاتحاد، فإن اتحاد المتصوف بالإله وفنائه فيه ينبغي أن يفهم –كما يؤكد الغزالي– على أنه حالة نفسية لا عملية أنطولوجية (وجودية)[2].

يقول ابن عربي

" لها صلاتي بالمقام أقيـها وأشهد أنها لي صليـــت

كلانا مصل وعابد ساجد إلى حقيقة الجمع في كل سجدة"[3]

من خلال هذين البيتين نفهم وكأن ابن عربي هو العابد والمعبود لأنه هو يؤمن بوحدة الوجود.

إن المتصوف لا يصل مباشرة إلى معرفة ورؤية نور الأنوار بل يصل إلى بذلك بالتدرج، حيث يرى حقيقة هذا الوجود ليصل إلى معرفة واجد الوجود، حتى يحسب أن ذاته اتحدت بالذات الإلهية كأنها هي هو، وهذا الإحساس هو نفسي فقط، لا حقيقة واقعية وجودية، إن الحقيقة الوجودية واحدة لا كثرة فيها ولا تعدد، والكثرة التي تشهد بها الحواس، إنما هي مجرد صور ومجال تتجلى فيها الصفات الإلهية، أو أوهام

[1]– ساعد خميسي، نظرية المعروفة عند ابن عربي، مرجع نفسه، ص232.

[2]– توفيق سلوم وآخرون، الفلسفة العربية الإسلامية الكلام و المشائية والتصوف، مرجع سابق، ص 294.

[3] – محمد العبده وآخرون، في الفرق الصوفية نشأتها وتطورها، دار الأرقم، الكويت، د (ط، س)، ص 4.

يخترعها العقل، وليس ثمة فرق بين الحق والخلق، اللهم إلا بالاعتبار والجهة، فالله حق في ذاته، وخلق من حيث صفاته، وهده الصفات نفسها عين الذات، و بهذا يجتمع الواحد والكثير والقديم والحادث، والباطن والظاهر[1]، فما نراه من موجودات ما هي إلا انعكاس للصفات الإلهية، فلا وجود إلا لله.

فلمتصوف هو الذي يرزقه الله نورا يمكنه من خلاله رؤية الأشياء والأمور على حقيقتها والنور يعني عادة الظهور أي ما يبصر بنفسه، وما يبصر به غيره ومنه الشمس والقمر والنيران المشتعلة والسرج وذلك هو النور المحسوس والعين الباصرة مساوية للنور أيضا حتى تسمى بالنور وعند التعمق في التحقيق يتبين أن العقل أولى من العين الباصرة بأن يسمى نوراً، فالنور نورين: محسوس ومعقول، فهناك عالمان سفلي جسماني ظلماني وآخر علوي... فيكون العالم الأول بمثابة الظل للثاني[2]. فهذا النور هو معقول يمكنه من معرفة ومشاهدة حتى الأمور الغيبية كالجنة والنار، أما النور المحسوس هو من خلاله يمكننا معرفة العالم الخارجي فبالعين نرى الأشجار والأشخاص.

إذن يمكن القول أنّ رغم المفاهيم المتعددة للتصوف إلا أنه لا يمكننا أن نصل في الأخير إلى مفهوم مانع جامع للتصوف فكل صوفي يتميز بمصطلحاته الصوفية الخاصة.

فمثلا يرى أبو حامد الغزالي أن المتصوف هو الذي يلم بعلم التصوف ثم يجب أن يقترن هذا العلم بالعمل أي يتحلى فعليا وتطبيقا بأخلاق الصوفية حيث يتخلى عن مفاسد الأخلاق ويتحلى بما تميز به الرسول صلى الله عليه وسلم من أخلاقيات، فالحقيقة عنده هي علم وعمل

[1]– عرفان عبد الحميد الفتاح، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، دار الجيل، بيروت، ط1، 1993، ص 269.

[2]– توفيق سلوم وآخرون، الفلسفة العربية الإسلامية الكلام و المشائية والتصوف، مرجع نفسه، ص 293.

إذ نجد أنّ ابن خلدون رأى أنّ المتصوف هو الذي يكون حاضرا معه سواء تعلق الأمر بأفعاله أو أقواله، الظاهرة منها والخفية.

أما ابن عربي فيقر أن المتصوف هو الذي اتحد بالذات الإلهية وهو يحسن في معاملته مع جميع المخلوقات باعتباره مظهرا وتجليا للذات الإلهية.

المبحث الثاني:
موقف الأمير عبد القادر
من التأويل العقلي

الصورة الغالبة على المسلمين الأوائل أنّهم لم يطرحوا إشكالات كثيرة تتعلق بدينهم، فمن سمتهم أنهم آمنوا بما جاء كما جاء، وفي هذا المقام يمكن الرجوع إلى القراءة الأركونية لتاريخ الفكر الإسلامي، فهو يميز بين ثلاث لحظات متباينة، اللحظة القرآنية أو كما يسميها محمد أركون لحظة القرآن والنبوة، وهي فترة تمثل المرحلة الشفهية للخطاب الإسلامي في مقابل المرحلة الكتابية، فالقرآن الكريم قبل جمعه في مصحف، كان يفهم بشكل مختلف عما سيحصل بعد جمعه.

بعد وفاته صلى الله عليه وسلم تم الاختلاف حول أمور الشريعة مثل مسألة الخلافة، أو في أمور ومسائل العقيدة مثل البحث في صفات الله وكلامه، وهذه اللحظة هي ما يسميها محمد أركون باللحظة الإسلامية (المرحلة الكلاسيكية)، وتمثل مرحلة التشريع الفقهي، أو هي تمثيل لخطاب الفقيه في مقابل خطاب النبي، فإذا كان هذا الأخير يتميز بكونه مفتوح على الإمكانات والمعاني الجديدة وحر، فإن خطاب الفقيه، على العكس من ذلك، خطاب معياري ومغلق، وسيتم من خلاله استغلال البعد الروحي المرتبط بالظاهرة القرآنية لصالح السلطة السياسية.

إن بلورة القانون الإسلامي ستجعلنا نقف على مرحلة جديدة من تاريخ الفكر الإسلامي، وهي مرحلة الفقه والتشريع ما يجعلنا نؤكد على حالة الخروج من مرحلة الخطاب القرآني (عصر النبوة)، إلى مرحلة الخطاب الإسلامي، هذه المرحلة، في نظر محمد أركون، ستمثل مرحلة الخطاب اللاهوتي للقرآن، ومن هنا ضرورة العودة إلى المرحلة الأولى وهذا ستجده القراءات الصوفية للقرآن الكريم، والتي سنجد معالمها متجسدة في فكر الأمير عبد القادر.

قبل دخول الأمير عبد القادر الحياة الصوفية، كان قد كوّن زادا معرفيا جعل منه رجلا موسوعيا، حيث كان على دراية بعلة نشوء التأويل في الثقافة الإسلامية، إذ يرى الأمير عبد القادر أنّ ثقافة

التأويل نشأت وقاية وَصُونا للعقيدة الإسلامية، لأنّ تجاوز الملل والنحل في حضارة المسلمين وفي ظلّ سماحة الإسلام، جعل مسألة التوحيد ذاتها تتأثر ويلحقها الكدر، من هنا نشأ التعارض وحتى الاصطدام، ليس بين أتباع الملل فحسب، ولكن بين أتباع الملّة الواحدة أنفسهم، فاتسعت مساحة العقل وظهرت على الساحة طوائف فكرية واحتدم الخلاف والجدل بينها[1].

العلّة الأولى لنشوء التأويل في الثّقافة الإسلاميّة كانت نتيجة الاختلاف في فهم القضايا الدينيّة، ممّا أدّى إلى ظهور إشكاليات جديدة وفرق، شعارها المحافظة على التوحيد في العقيدة الإسلاميّة، والدّفاع عنه مؤكّدين موقفهم بتأويل آيات قرآنية، فما ينبغي الإشارة إليه هو أنه كان هناك مراجع كثيرة ومتعددة حول التأويل خاصة من طرف مفكرين مسلمين.

لقد وعى الأمير عبد القادر، ما لابس الثقافة الروحية الإسلامية على مدى تطورها وعبر اجتيازها للمراحل والأشواط الحضارية التي قطعتها، فلا غرو أن يكون تحوّله الروحي متسما بحدّ من الوعي وقاه كثيرا من المزالق وقع فيها غيره[2].

فقبل أن يكون الأمير عبد القادر متصوّفا، نرى أنه اختار القلب والإلهام الغيبي كمسلك لتأويل الآيات القرآنية والوصول إلى الحقيقة، حيث بدأ في مساره الفكري بالاطلاّع على إشكالية التأويل في الفكر الإسلامي ومدى تطوّرها.

يرفض الأمير عبد القادر القراءة اللفظية، على اعتبار أنّ الفهم اللغوي للألفاظ القرآنية ليس فيه تجديد، إذ يؤدّي إلى التعوّد على فهم تلك الألفاظ على نظام لغوي معيّن، أمّا العارفين بالله هم القادرين

[1]–عشراتي، سليمان، الأمير عبد القادر المفكر، دار الغرب، وهران، ط3، 2009، ص 100.

[2]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكر، مرجع نفسه، ص 102.

على اكتشاف الحقائق أو المرامي البعيدة لتلك الألفاظ، فهم باستطاعتهم تجاوز عالم الألفاظ إلى عالم المعاني الذي هو أوسع من الأوّل، والأولياء لا يأتوا بنهي ولا أمر جديد وإنّما يكشف لهم الله عن أسرار ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم[1].

إن الإنسان العادي يقرأ الحروف القرآنيّة في المصحف كما هي، متّبعا أحكام القراءة، أي أنّه يستنبط معنى الآيات انطلاقا من كلماتها الظاهرة، في حين أنّ المتصوّف هو قادر على قراءة ما بعد السّطور لأنّه يتميّز بملكته الحدسيّة.

يؤكد الأمير عبد القادر أنّ النفس الطاهرة النقية هي الطريق الموصل إلى الحقيقة، رغم أنه يعتبر أن الحواس هي أيضا من بين وسائل المعرفة، وهي وسائل فعالة وذات أهمية للإنسان في حياته، وهذا كله من أجل رؤية النعم الإلهية عليه، "**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**" (**النحل، الآية 78**)، ولكن الحواس لا يمكن أن تستغني عن إرشاد العقل وهدايته وتقويمه، والعقل عنده كما عند الباحثين المسلمين قبله قسمان قسم نظري وآخر عملي[2]، فما مفهمه من هذه الفقرة هو أنه بنعمة البصر يمكن رؤية عظمة هذا الوجود، لكن الحواس يمكن أن تخطيء وتحتاج إلى إرشاد العقل.

اعتبر الأمير عبد القادر العقل أحسن مكانة من الحسّ، وهو متأثر في ذلك بالفلسفة الإسلامية التي هي بذاتها متأثّرة ببعض أفكار الفلسفة اليونانية، فمثلا نراه يتحدث عن شرف العقل، فنجده ينساق مع مقتضيات معرفة العصور الوسطى كما تعاطاها المسلمون، فالعقل في نظره أشرف من الحس لشمولية

[1]– عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكر، مرجع نفسه، ص316، 317.

[2]– الأمير عبد القادر، الأمير عبد القادر جوانب من شخصيته ومختارات من مؤلفاته، الشركة الوطنية، الجزائر، ط 2، 1970، ص 14، 15.

الإدراك التي تميزه، إذ العقل ينفذ إلى ما وراء الظواهر، فيما تتوقف قدرة الحسّ عند السطح، فالعقل حظي بالشرف نتيجة اقتداره على إدراك معنى الألوهية، رغم خفاء ماهية الألوهية كحس مشخّص[1].

فسبب تفضيل الأمير عبد القادر للعقل على الحس يكمن في كون العقل قادر على استنباط وجود الله ووحدانيته وقدرته على الخلق، لكن الحواس تصف لنا ما هو ظاهر فقط وتقف عاجزة على الإثبات.

على الرغم من تأكيده على قيمة نتائج العقل التجريبي، فإن الأمير عبد القادر يوجه نقدا علميا للعلماء مبينا لهم أنهم لو استخدموا العقل في معرفة الله، وحكمته في خلق السموات والأرض، وكماله جل جلاله، فإنهم يتبوأون مرتبة لا يبلغها نُظرائهم، لكن علم الحقائق الكلية هو العلم الذي يَقِينا الشبه والغلط ويبعث فينا روح الثقة والطمأنينة وهو أجدر بأن يسمى بعلم اليقين[2].

يحبذ الأمير عبد القادر استخدام التأمل والتدبر العقلي في تأكيد الإيمان بالله ووحدانيته وعظمته وجلاله، لكنه يشكك في المعرفة العقلية، لأنه يرى أن العقل كثيرا ما يوقعنا في الخطأ والزلل، كما أنه غير قادر لمعرفة الأمور الغيبية (الإلهية) والميتافيزيقية.

توجد عدة أصناف من المعرفة، منها المعرفة القائمة على الحدس الحسي، وهي المعرفة العامية، نكتسبها عن طريق المران، ويوجد أيضا المعرفة التجريبية، وهي المعرفة الموجهة القائمة على الملاحظة والتجربة العملية التي تخص ظاهرة من الظواهر المادية، ويوجد أيضا المعرفة العقلية، ومجالها هو العقل، فهي إما تطرح

[1]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، مرجع سابق، ص 27، 28.

[2]– ملاح أحمد، الأمير عبد القادر المتصوف المصلح، الأمير عبد القادر المتصوف المصلح، دار الأديب، وهران، د (ط، س)، ص63، 67.

مشكلة ماهية الحقيقة، أو تطرح مشاكل ومسائل ميتافيزيقية، مثل البحث في طبيعة وماهية الوجود، وفي مقام آخر يمكن الحديث أيضا عن علم الحقائق الكلية، وهو العلم الذي يشمل الحقائق الأولية[1].

يؤكد الأمير عبد القادر، تبعا لذلك، على أن الناس طبقات في الفهم، فهناك المعرفة الخاصة بالعامة، وأخرى معرفة عقلية سواء كانت نتيجة العقل العملي الخاص بالعلماء أو العقل النظري الخاص بالفلاسفة، وهناك المعرفة العرفانية التي قوامها القلب.

سيقسّم الأمير عبد القادر، إذن، المعرفة إلى أصناف، منها المعرفة العامية والتي هي تخص عامة الناس، وهي سطحية تكتسب عن طريق التكرار، وهناك المعرفة التجريبية، ستكون التجربة العلمية معيار الصدق فيها، وهي المعرفة الخاصة بالعلماء الذين يبحثون في الجانب الفيزيقي المادي من العالم، كالفيزيائي الذي يبحث في سبب سقوط الأمطار، فيفسر ذلك بعامل الحرارة، التي تدفع إلى تبخر الماء، لتتشكل بعدها غيوما في السماء تدفعها الرياح فتسقط على شكل مطر.

أما المعرفة العقلية فهي خاصة بفئة الفلاسفة، وهي التي يتم فيها التطرق إلى قضايا نظرية مثل أصل وماهية الوجود، في حين سيكون علم الحقائق الكلية خاص بفئة المتصوفة، وهي أعلى درجة من كل أنواع المعارف السابقة، وسيعتبر الأمير عبد القادر، تبعا لذلك، هذا النوع من المعرفة الحقيقة التي لا يمكن التشكيك فيها، وما عدا العلم بالحقائق الكلية الذي هو علم اليقين، يتحفظ الأمير عبد القادر كثيرا في إطلاق كلمة علم على الأصناف الأخرى، والسبب في ذلك هو أنّ النتائج التي تقدمها هذه العلوم ناقصة،

[1] – ملاح أحمد، الأمير عبد القادر المتصوف المصلح، مرجع نفسه، ص 58– 59.

فالرؤية لا ترى نفسها ولا تعرف الموضوع المدرك الذي تقع عليه، "فالرؤية تقف عند حدود المظاهر الخارجية، وكذلك الأمر بالنسبة للحواس الأخرى، فقد يخالطها الوهم وبالتالي تقع رهن الخداع والملابسة"[1].

يثق الأمير عبد القادر في علم الحقائق الكلية، إذن، ويرفض الثقة في العلوم الأخرى، لأنه يرى أنها تقوم على الملاحظة بالعين المجردة التي كثيرا ما تخدعنا، فمثلا نرى حجم الشمس دائرة صغيرة جدا، لكنها هي في الحقيقة أكبر من ذلك بكثير، فالحواس كثيرا ما تخدعنا، ويرى أن المعرفة التجريبية هي بدورها ناقصة، لأن النتائج التي تتوصل إليها قابلة للتغيير، ففي العصور الوسطى أقر العلماء التجريبيون أن الأرض تابثة والشمس تدور حولها، لكن في العصر الحديث تم تغيير الفكرة تماما وتم التأكيد على أن الأرض تدور والشمس تابثة، كما أن موضوع الدراسة في العلوم التجريبية قابل للتغير باستمرار.

يؤكد الأمير عبد القادر أنّ القلب يبقى أرقى مكانة من العقل، لأن هذا الأخير، يمكن أن يكون في حالات كثيرة عرضة لما يحيد به عن الصواب، ولذلك وجب الإعتماد على القلب، وعلى الرغم من اعتماد الأمير عبد القادر على مسلّمات الثقافة العتيقة في طرح مثل هذه المسائل إلاّ أنّنا وجدناه في بعض السياقات يتجاوز مقرّرات الفلسفة القديمة، فقد رأيناه مثلا يُلغي مقولة العقول العشرة التي كانت الثقافة

[1] – ملاح أحمد، الأمير عبد القادر المتصوف المصلح، مرجع نفسه، ص59- 60-61.

اليونانية الميتافيزيقية تنيط بها سير العالم وحركة الكائنات وأقدارها، كما وجدناه يؤكد المساواة الإنسانية* وتماثل البشر في الجوهر والقبليات[1].

رفض الأمير عبد القادر بعض مفاهيم الفلسفة اليونانية التي رآها تخالف العقيدة الإسلامية، كما رفض المواقف التي تجعل من العقل الطريق الوحيد للوصول إلى الحقيقة، وذلك يعود أساسا لقوله بإمكانية وقوعه في الخطأ والزلل، كما هناك الكثير من القضايا التي تفوق قدرته على تحليلها، وهو في وجهة نظره هته يتوافق مع الكثير من الفلاسفة من أمثال أبو حامد الغزالي.

للأمير عبد القادر موقف نقدي من كل تأويل لا يُعتمد فيه على العرفان، إذ يعرّف التّأويل بقوله: "التأويل لغة من الأوّل وهو الانصراف، إذ تعريفه للتأويل هنا تعريف بالأصل وبالمآل، فالأصل الذي يضمره لفظ التأويل هو الأيلولة والأولية معا، والصّيرورة والحؤولة (أي إلى ما يصير إليه الشيء وإلى ما يتحوّل إليه، فمقصديّة التأويل هي بالضرورة صرف الخطاب نحو وجهة يرى المتأوّل أنّ الدّلالة تتهيّأ لها أو تحتملها"[2].

يرى الأمير عبد القادر أنّه يمكن للعقل أن يفكر فيما يتعلق بوحدانية الله، ولكن لا يمكنه أن يفكر في ماهية الذات، فإذا كان الله قد ميز الإنسان بالعقل، فإن هذه الملكة، ورغم قدرتها على فهم الكثير من

---

* – **الإنسانية:** هو مذهب فلسفي ينظر إلى الإنسان كقيمة أسمى يهدف إلى ازدهاره.

(André Jacob, Encyclopidique, philosophique universsèle, Tome 2, Puf Paris, 1997, p 3360).

" تدل على ما اختص به الإنسان من الصفات... والمحامد كالجود والكرم فالإنسانية هي مجموع خصائص الجنس البشري المقومة لفصله النوعي التي تميزه عن غيره من الأنواع، مثال ذلك قول أوغست كومت: إن المثال الأساسي للتطور الإنساني فرديا كان أو جماعيا يقوم في الاجتماع الوضعي على تغلب إنسانيتا على حيوانيتنا ". (إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، د (ط، س)، ص 158). فالإنسانية هي الجانب الأخلاقي في الإنسان والمحمود من خلال يتميز الإنسان عن الحيوان فمثلا استعمار الدول القوية للشعوب الضعيفة هو فعل غير إنساني، لأن الدول القوية تسير بمنطلق أكل القوي للضعيف وهو قانو الغاب الذي يحكم حياة الحيوانات في الغابة، لكن عندما تقديم مساعدات للدول المستعمَرة هو فعل إنساني لأنه يعكس مكارم الأخلاق.

[1]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، مرجع سابق، ص 28، 29.

[2]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، مرجع نفسه، ص 108.

الأمور التي تخصّ الله، مثل أنّه هو خالق هذا الكون، فهي من جهة أخرى قاصرة عن التفكير في قضايا متعلّقة بكنه وجوهر الذّات الإلهية مثل البحث في صفاته عز وجل.

والعقل غير قادر أيضا على التمييز بين الطاعات والمعاصي والحلال والحرام حيث يقول المير عبد القادر ما نصه: "اعلم أن العقل وإن خصّه الله تعالى بخصوصية الاطلاع على حقائق الأشياء والوصول إلى معرفته تعالى بالاستدلال بالعلم وأحواله فهو معزول عن معرفة ما يقرب منه تعالى، وما يبعد عنه من معرفة الطاعة والمعصية، إذ ليس له إلى أحدهما ميل ولا لأحدهما به اختصاص، وحيث ثبت هذا ثبت احتياج العقل إلى الرسول، ويعرف صدقه بالمعجزة، وقد جعل الله معجزة كلّ رسول في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزّمان"[1].

فالعقل في السياق القرآني، يتحدد مجاله في البحث عن حقيقة الكون، و القرآن الكريم حافل بالدعوة لإعماله في هذا المجال (الكونيات)، والنظر فيها لغرض معرفة آثار علم الله وحكمته وقدرته، على أن لا يتجاوز العقل مجاله المحدد له، وقد حذرت السنة النبوية إعماله في مجال معرفة الذات الإلهية، فمثلا قوله صلى الله عليه وسلم: "تَفَكَّرُوا في آلاءِ اللهِ، ولا تَفَكَّرُوا في اللهِ عزَّ وجلَّ"[2]، للعقل، إذن، حدودا يفكر فيها، لا ينبغي تجاوزها، كتأمّله في الموجودات، لإثبات وحدانية الله، مثلا عندما نرى آيات تعاقب الليل والنهار، وخلق الحي من الميت والميت من الحي، ورفع السماء بدون أعمدة، وعدم قدرة أي أحد على رد الموت، فكل ذلك يؤكد أنّ هناك واحد أكمل هو الخالق (الله عز وجل)، لكن لا ينبغي استعماله في المسائل الميتافيزيقية مثل مسألة صفات الله، وذاته وسؤال الروح... ولهذا لما تعدّت العقول أطوارها ووجهت إلى العلم بحقيقته "انقلبت خاسرة، ولعجز العقول عن الوصول إلى العلم بالروح، لم يرد في الكتب الإلهية

[1]- الأمير عبد القادر، المقراض الحاد، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، د (ط، س)، ص153، 154، 157.

[2]- رزقي بن عومر، قضايا في التصوف الجزائري، دار لالة صفية، الجزائر، د (ط، س)، ص 65.

والإخبارات النبوية وصف الروح إلا بضرب أمثال وإشارات وتلويحات واستعارات رحمة بالعباد ورفقا بالعقول، فالعقل يدرك بعض صفات الروح بالوهب الإلهي لا بالنظر العقلي، فإن للعقول حدا تقف عنده، فإذا تعدته ضلت"[1]، فالعقول الناظرة في قضايا ميتافيزيقية هي تعبث فقط.

قَبل الأمير عبد القادر بالتأويل العقلي ليكون دعامة لفهم للعامّة، وعلى الرغم من تيقنه بأنّ التأويل لا يفي في حقل المعرفة اليقينية شيئا، إلاّ أنّه أقرّ أنّ التأويل يظلّ وسيلة مهمّة لحفظ إيمان العامّة، ومعراجا للعارفين لكي يستشرفوا خفي الإشارات وخبئ الحقائق[2]، فالتأويل العقلي هو ما يتناسب مع فهم العامة لا غير، فلسان العامة الذي يرسل به الرسول إليهم فيكلمهم به هو الأمر بالواجبات والنهي عن المحرمات، "ولسان الخاصة الذي يرسل به الرسول إليهم فيكلمهم به فيفهمون عنه هو ما تقدم مع الأمر بتصفية الأعمال من الشوائب كالعجب والرياء، وتحلية القلب بالمنجيات كالصبر والرضى، ولسان خاصة الخاصة هو ما تقدم مع كشف الحقائق الوجدانية لهم على حسب مراتبهم في الاستعداد فيبدي لهم من العلوم التي يجدها"[3].

لا رسول مُرسل إلا ويعلم أن الناس في فهمهم أصناف، فهناك العامة الذين يبين لهم الرسول الحلال والحرام، وهناك الخاصة الذين يعتمدون على العقل في الفهم، وهناك خاصة الخاصة وهم الذين يعتمدون القلب كمصدر للمعرفة.

حقيقة أنّ العارف يمتلك أسرار إلهية ومعارف لا يملكها كلّ النّاس، كما أنّه لا يستطيع تبليغها إلى العامّة لأنّها تفوق فهمهم وإدراكهم، فهم يتكلّمون بلغة رمزية لا يفهمها إلّا العارفون فيما بينهم.

[1] – الأمير عبد القادر الحسيني الجزائري، المواقف، تح: عبد الباقي مفتاح، ج2، دار الهدى، الجزائر، ط1، 2005، ص221.

[2]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، مرجع سابق، ص107.

[3]. جواد المرابط، التصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري، دار اليقظة العربية، سوريا، د (ط)، 1966، ص117.

طريق المتصوّفة للوصول إلى الحقيقة هو القلب لا العقل، ولهذا نجد أنّ التأويل العرفاني يختلف عن التأويل العقلي، لأنّ العارفين معرفتهم إلهاميّة غيبية لكن هذا لا يعني أنّهم يبدعون ويخترعون في الدّين، فكلام العارفين له دليل من الكتاب والسنة يعرفه العارفون، ولذلك هم يفهمون بعضهم البعض في حديثهم حول علومهم الخاصّة ولا يحتاج بعضهم من بعض دليل لإثبات كلامهم.

لكن ما ينبغي الإشارة إليه هو أنّ حضور العقل لدى العارفين لا ينعدم عندهم كلية، ومن دلائل ذلك ما "تراهم يعودون به من أفكار جلبوها من غيبتهم ولا يفتأون يحرصون على تقييدها وتوصيلها إلى الناس، بل إنّ مواقفهم في حال السكرة تتسم بالعقلنة أيضا إذ لا يطغى عليهم فيها الهذيان أو ما يشبهه، وإنّما هي حالة مخاض قد تتعسر أو تتيسر على حسب الغنم"[1].

يقرّ الأمير عبد القادر بالتأويل الغيبي الإلهامي ويرفض التأويل العقلي، لكن هذا لا يعني أنّه ينكر تدخّل العقل في العملية العرفانية، كما يرفض تفكير الفلاسفة والمتكلّمين، ويؤكّد أنّ المتصوّفة هم أقرب من الله بعد الرّسل والأنبياء والصّحابة إذ يصف نفسه وأصحابه الصوفية وتميّزهم عن غيرهم من النّاس بما أنعم الله عليهم فيقول:

"فقل لملوك الأرض أنتم وشأنُكـــم فقسمتكم ضيزى وقسمتنا كُثُر

فنحن بضوء الشّمس والغير في دجى وأعينهم عُميا وآذانهم وقــرُ

لا غرو في هذا، وقد قال ربّنـــا تراهم عُيون ينظرون ولا بصر"[2].

[1]. الأمير عبد القادر الجزائري، المقراض الحادّ لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد، مرجع سابق، ص50.

[2]- الأمير عبد القادر الجزائري، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، تح: العربي دحو، دار شالة، الجزائر، ط3، 2007، ص 113.

هذا مدح نابع من نزعته الصوفية وتشبّعه بالروح الدينية، ففي البيت الأوّل إشارة إلى قوله تعالى: "تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ" (النجم، الآية21)، وفي البيت الثاني إشارة إلى قولـه تعالى: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا، وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا" (الكهف الآية 56)، أمّـا البيت الثالث فهو إشارة إلى قولـه تعالى: "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" (الأعراف الآية 179)، فهو يفرّق بين الذين يكون همّهم الدّنيا وثرواتها، ويصفون الله بمواصفات يراها الأمير عبد القادر أنّها جائرة (ضيزى)، وهم الذين يعيشون في ظلام، لهم أعين وآذان لكن لا يبصرون ولا يسمعون ولا يعقلون، في حين المتصوّفة يرون الحقيقة ويسمعون ما لا خطر على بال العامّة، وما ينبغي الإشارة إليه هو أنّه حتى بعض قصائده الشعريّة لا تخلو من نزعته الصوفية.

يعتقد المتكلّمون والفلاسفة أنّ للإنسان وجود مستقل، أي خاص وهو مخالف لوجوده تعالى وصفاته، وهذا في رأي الأمير عبد القادر نفي للتوحيد وشرك بالله، ولهذا العارف الحقّ فقط هو الذي يفقه "أنّ صورة الشيء هي التي يكون بها ظهوره، ولا ظهور لحقيقة الممكن وعينه، لأنّها معدومة أزلا وأبدا، فكلّ ظاهر هو الحقّ تعالى من اسمه الظاهر بحكم قوله تعالى: "هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (الحديد، الآية:3) هذا ما سيجعل الأمير عبد القادر يؤكد على أنه "لا أوّل إلاّ هو ولا آخر

إلاّ هو، إذ من المعلوم أنّ تعريف الجزأين يفيد الحصر"[1]، بمعنى أنّه إذا كان الله تعالى الأوّل والآخر كجزأين يحدّدان وجوده فهو أيضا ما بينهما.

يخالف الأمير عبد القادر الموقف السابق الذكر للمتكّلمين والفلاسفة، ويقرّ أنّ "الإنسان له القدم وله الحدوث فهو منعوت بهما، فلهذا هو ربّ وعبد، عبد من حيث إنّه مخلوق مكلّف، وربّ من حيث إنّه خليقة، ومن حيث إنّه خُلق على الصورة الإلهية"[2]، وهذا ما تحدّث عنه الأمير عبد القادر في قصيدة يقول فيها أن هو الباطن وهو الظاهر حيث يقول:

"أردّد طرفي في الرّسوم فلا أرى سوى من به كانت: رسوما و آثارا

وأسألها عنه فكلّ أجابني بأنّه ما رآه يوم ولا أدرى

فقلت لهم: هذا عجيب فإنّني ما أبصرته إلاّ بكم متظاهرا

عرفته منكم ثمّ زاد في عرفاننا بأنّني إيّاه ولكن منكرا"[3].

يرى الأمير عبد القادر أنّ الإنسان يجمع بين الرّبوبية والعبودية، فهو ربّ لأنّه هو مظهر من مظاهر الله، وهو عبد لأنّه هو متعرّض لفعل الخلق، فالوجود ما هو إلا مظهر له، لكن عامّة النّاس هم لا يبصرون ذلك، لأنّ هناك برزخ وسراب يمنعهم من رؤية الحقيقة، لكن المتصوّفة كالأمير عبد القادر هم الذين يدركون هذه الحقيقة بل ويكشفون عن حقائق أخرى غيبية، ويفنون في الله ويصبحون يرون كلّ شيء به.

[1]- الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف في بعض إشارت القرآن إلى الأسرار والمعارف، تح: عبد الباقي مفتاح، ج1، دار الهدى، الجزائر، ط1، 2005، ص 127.

[2]- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، مؤسسة عبد العزيز سعود الباطنيين للإبداع الشّعري، الكويت، د (ط)، 2000، ص188.

[3]- الأمير عبد القادر الجزائري، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، مرجع سابق، ص118.

" ينبغي التنبيه إلى أن التجلي يقابل بالتعيين، ففي التجلي يعتبر ظهور الحق وهو أمر شهودي، بينما في التعين يعتبر التقيد وهو أمر وهمي يقع في الذهن لا في الخارج، فيُؤخذ الوجود باعتبار قيد ما بناء عليه يتقيد الوجود على حساب الاعتبار المأخوذ، فما ظهر من الصور على كثرتها فهي موجودة في اعتبار المدرك بينما الحق يقتضي بظهور الحق وإلا الصورة بما هي كذلك لا وجود لها ولا ظهور لها من نفسها"[1]، لا تجلي إلا له تعالى، إذ أنّ وجود الموجودات في العالم الخارجي ما هو إلا تعبير عن تمظهرات للحق، فما نراه من موجودات فهي لا تعبر عن ذاتها وإنما هي تعكس صورا للذات الإلهية كما أنها هي غير قادرة على إيجاد ذاتها بذاتها.

يفضل الأمير عبد القادر المتصوفة على الفلاسفة والمتكلّمين، لأنّهم لا ينتقدون ولا يكفرون بعضهم بعضا، فهم جميعا غير متفرّقين في دينهم[2] (أي لا يشكّلون فرقا)، هو يرفض، إذن، تفكير المتكلّمين والفلاسفة، لاختلاف وتباين مواقفهم ولرفض بعضهم للبعض الآخر الذي لا يوافق رأيهم.

من خلال ما سبق يمكن القول أنّ المرحلة الأولى التي ميزت المشروع الفكري للأمير عبد القادر هي ما يمكن تسميته بالمرحلة النقدية لأصحاب التأويل العقلي، بالإضافة إلى تفقّهه في الدين وقراءته لكتب الصوفية، وكلّ ذلك كان تمهيدا لدخوله المرحلة الثانية في حياته الفكرية والروحية وهي المرحلة التي اعتمد فيها على القلب والإلهام الغيبي كمصدر لتأويل النصوص القرآنية، لكن ما ينبغي الإشارة إليه هو أنّه من أسباب انتقال الأمير عبد القادر إلى الحياة الصّوفيّة هو الواقع الاستعماري المتأزّم، والمجتمع الجاهل لدينه غير الواعي لواقعه والذي ابتعد عن الفهم الصحيح لدينه الإسلامي، وابتعد أيضا عن عاداته الأخلاقيّة الاجتماعية ولم يعد طالبا للعلم.

[1]– رزقي بن عومر، قضايا في التصوف الجزائري، مرجع سابق، ص 62.

[2]– غلام الله بو عبد الله وآخرون، أعمال ملتقى الأمير عبد القادر، دار الحكمة، الجزائر، د (ط)، 1998، ص132.

إن تأويلات الأمير عبد القادر هي في حقيقتها تأويلات عرفانية، فالقلب عند الأمير الصوفي هو طريق الأمثل للوصول إلى الحقيقة (اليقين)، إذن مصدر الحقيقة عنده هو الحدس القلبي، ذلك الحدس النّوراني الذي التي تمتاز به النفوس الصوفية فقط، هذه الأخيرة تكشف الحقائق مباشرة دون جهد فكري، فالنّفس الطاهرة تجد نفسها على أهبة لتلقي الحقائق، أي أنّ القلب هو من يحدس المعارف مباشرة ودون وسائط، وهذه نعمة يتمتّع بها فقط أصحاب القلوب الطاهرة (المتصوفة).

سيكون الإلهام هو مصدر الفهم عند الأمير عبد القادر، فهو يحظى إذن بميزة ربانية وبالتالي فإن اجتهاده ليس عقليا نظريا، بل إيحائيا إملائيا[1]. إن التأويل الذي مارسه الأمير عبد القادر هو تأويل صوفي وليس عقلي، بل إن تأويلاته تبين لنا أنّ معرفته اللدنية ثرية بالأفكار.

ولعل الشرح المستفيض الذي يقدمه الأمير عبد القادر للآية القرآنية (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) يحملنا على القول أنّ اجتهاده ينم عن روح دينية عميقة وتصور فلسفي جدير بالنظر والاعتبار، "ليس عبد القادر ذلك المفكر المنغلق النظر الذي ينطوي تصوره على تزمت فكري قاتم، إنما هو العالم المتفتح ذو الفاحصة الناقدة، المتطلعة للبحث المتجدد والرافضة لكل أشكال التقليد"[2]، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على أن روحه كانت تبقى لوقت طويل في مجالسة الخالق، هذا من جهة ومن جهة أخرى تميزت هذه الروح بصفائها وقوة نقائها، كما أنّ تصوفه ليس ناجما عن تقليد وإنما هو حصيلة اجتهاده واطلاعه على الفكر الصوفي لبعض المتصوفة، وعلمه وعمله، كما أنه ليس متصوفا متعصبا لأفكاره بل هو شخصية تنادي بالحوار والعالمية وتسمع للآخر.

[1]- ملاح أحمد، الأمير عبد القادر المتصوّف، مرجع سابق، ص28.

[2]- ملاح أحمد، الأمير عبد القادر المتصوّف، مرجع نفسه، ص28.

لقد قرر الأمير عبد القادر، إذن، في مرحلة من مراحل حياته، أن ينكب على حياة الزهد والتفرغ للعبادة لساعات طويلة من الليل والنهار فلم يعد ينام إلاّ قليلا، ولأنّه أدرك أن الدنيا من الدنو، اقتنع أنه لا فائدة في الجري وراء شهواتها، خاصة تلك التي ذمّها الدين الإسلامي، إذ يرى أنّ الذي يريد الوصول إلى علم الحقائق الكلية عليه بالإكثار من العبادات، أي أن يلزم المرء نفسه سلوك التقوى والخشوع، بأن يضع نصب عينيه عبادة الإله وحده، والإخلاص إليه في العسر واليسر، وفي كل الحالات الأخرى الصغيرة منها والكبيرة، وعليه أن يعرض عما زاد عن الحاجة في القول والفعل، وأن يحوّل كل ما بقي منها إلى الله بالصيام له نهارا، والقيام إليه ليلا بالذكر والتلاوة، والانصراف عن أشياء الدنيا[1]، أي أن يمضي ليله ونهاره في عبادة الله، خاصة بالصوم في النهار والقيام في الليل، ويؤدي الواجبات الدينية ويُكثر من النوافل، وذلك في أوقات الحزن والفرح، والهم والفرج

يرى الأمير أنّ القرآن هو الحجة التي أثبتت مصداقية نبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ومعجزته التي خرقت المعهود من أغراض القول وفنون الكلام، والآية البينة التي لم يصمد في وجهها جحود، يعرّف الأمير القرآن، إذن، على أنّه المعجزة التي أكّدت أنّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم هو آخر رسول مرسل من الله، وقد أعجز القرآن عرب الجاهلية نظرا لفصاحته وبيانه ودلالاته رغم أنّهم كانوا متمكّنين من اللغة العربية، وشعرهم الجاهلي شاهد عليهم، ورغم ذلك فاق قدرتهم وأبهرهم فكان الحجة المعجّزة لهم، ثمّ يواصل الأمير تعريفه للقرآن فينقل ما أورده ابن خلدون عن ابن السّبع في الشّفاء قوله: "إنّ القرآن تلقّاه محمّد كما هو متلو بكلماته وحروفه وتراكيبه بخلاف غيره من الكتب الإلهية، فإنّ الرسل يتلقّونها في حال الوحي معاني ويعبّرون عنها بعد رُجوعهم إلى الحالة البشرية بكلامهم المعتاد لهم، ولذلك لم يكن في ألفاظها

[1] – ملاح أحمد، الأمير عبد القادر المتصوف المصلح، مرجع نفسه، ص 68.

إعجاز، وأمّـا القرآن فناظمه الله تعالى، فلذا لا يقدر أحد على تغييره بخلاف غيره من الكتب الإلهية، فإنّـه يقدر المعاند على التبديل والتغيير والزيادة والنّقص فيها"[1].

يقدّس الأمير عبد القادر القرآن الكريم ويفضّل، تبعا لذلك، الدين الإسلامي على باقي الدّيانات السّماوية الأخرى، ويعتبر القرآن كلام الله المنزل، فما نقرأه من ألفاظ في القرآن الكريم هو كلام الله، ولذلك هو محفوظ من التحريف، في حين سيعتبر الأمير عبد القادر كل من التوراة والإنجيل كتابان منزّلان معنى، مصاغان لفظا من طرف الأنبياء والرّسل، وبما أنّهما مكتوبان بأسلوب بشري وعن حكمة إنسانية، فهما معرّضان للتغيير والتبديل، ويبقى النقص فيهما أمر وارد، لأنّ الإنسان كائن ناقص معرّض للزّلل والخطأ.

فإذا كان الأمير عبد القادر يفضل الدين الإسلامي ويعتبر تبعا لذلك القرآن الكريم كتابا مقدسا، فإنه لا يرفض فتح الحوار مع الديانات السماوية الأخرى رغم قوله بأن التوراة والإنجيل كتابان بشريان من حيث التعبير، وهو في ذلك مؤمن بقوله تعالى: "وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (آل عمران، الآية 84) يرى الأمير عبد القادر في القرآن الكريم كتابـا جامعا شاملا لأحكام الدّين والدّنيا فيه أنباء السابقين، إذ أنّ الرّسالات والكتب السابقـة للرسالة المحمدية هي خاصـة بمجتمع معيّن وعقليته ويعتبرها أهلها ملكا لهم، في حين أنّ الدّين الإسلامي هو رسالة عامّة، ومن تمّ فالقرآن الكريم هو كتاب مقدّس أحقّ بالدّراسـة لأنّه يزخر بالفصاحة والمعجزات العلمية والحقائق العملية، ممّا يؤكّد ضرورة تأويله وفهـم كنوزه من طرف الخاصّة، كما أنّه يناسب عقليات الجميع مكمّل للدّيانات السابقة لا نافٍ لهـا، لذا هو ضرورة ينبغي الإيمان بها.

[1]– عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، مرجع سابق، ص132.

عند الحديث عن القرآن الكريم قبل الفترة المعاصرة، يمكن القول عنه أنّه هو الكتاب المقدّس عند المسلمين، وهو الذي أنزل على النبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم، حيث أنّ هذا الأخير يعتبر هو المفسرّ والمؤوّل الأوّل لآياته بتوجيه وبوحي ونور من الله تعالى، وقد حضِي بهذه المكانة على غيره من عرب قريش وجميع معاصريه نظرا لتديّنه وصفاء قلبه وتخليه عن الرذائل وتحلّيه بالفضائل وقربه من الحق، وأثناء حياته صلوات الله عليه طلب منه ابن العباس بالسّماح له بتأويل الآيات القرآنية، فسمح له بذلك ودعا له الله أن يفقّهه في الدّين ويعلّمه التأويل، وتواصلت محاولات فهم النصّ القرآني بعد وفاة النبي صلوات الله عليه مع الصحابة والتابعين إليهم بإحسان، ثمّ ظهرت اتجاهات متعدّدة محاولة تأويل وفهم النّص القرآني مع كلّ من المتكلّمين والفلاسفة وكذا الصوفية منهم الحلاّج، ابن عربي، الأمير عبد القادر، فإذا كان التصوّف تجربة شخصية فكيف يمكن لقراءة الأمير عبد القادر الصوفية للنصّ القرآني أن تؤسس لفهم إنساني؟

ينفي الأمير إمكانيّة تحقيق الفهم الأخير والوحيد للنّص القرآني الصالح لكلّ زمان ومكان، ومن يقول أنّه يستطيع تحقيق ذلك فقد غَلُظَ ذنبه، لأنّ "كلام الله وكلام رسوله صلّى الله عليه وسلّم . بحر لا نهاية لمدلولاتهما ولا قرار وكلّ من قال في مسألة هذا مراد الله تعالى لا زائد عليه أو مراد رسوله . صلّى الله عليه وسلّم . لا غير فقد أعظم الفرية"[1].

بما أنّ لغة القرآن هي رمزيّة فإنّ الرّغبة في زيادة التوسّع في فهم معاني القرآن تجعلنا نكتشف معاني جديدة، ويساعدنا على ذلك قراءة المعاني الماضية والسّابقة عنّا.

[1]– الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد ، ج1، مرجع سابق، ص 269، 270.

يمكن القول أنّ الأمير هو متصوّف القرن الثالث عشر، الذي جمع بين العلم والعمل، وحصل له هذا الفتح بعد جهاد أكبر، فأصبح مؤوّلا صوفيا لكثير من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، ورغم أنّ تجربته الصوفية هي خاصّة إلاّ أنّه استطاع أن يؤسّس لفهم إنساني لأنّ أخلاقه هي إنسانية ودينه هو خاص بالإنسانية عامّة، وتجربته هي روحية مطلقة خارج عن حدود الزمان والمكان حاول من خلالها فك أزمات التي كان يعاني منها البشر، وحاول تقريب البشرية فيما بينها، خاصّة وأنّه دين العالمين.

المبحث الثالث

مصادر
تصوف
الأمير
عبد القادر

من بين الأسباب التي دفعت لأمير عبد القادر لأن يكون متصوفا هو تنشئته الدينية، حيث عاش طفولته الأولى وسط عالم من التقى الكامل، وفي الرابعة من عمره، التحق عبد القادر بمدرسة والده في القيطنة حيث تعلم مبادئ الكتابة والقراءة وعندما بلغ سن العاشرة سنة 1919م تمكن من القرآن والحديث وأصول الشريعة على يد أحمد بن طاهر، قاضي أرزيو، إذ مكث في عاصمة المقاطعة الغربية سنتين نال في نهايتهما شهادة حافظ، خولته ترتيل الآيات القرآنية في الجوامع والاحتفالات[1].

عاش الأمير عبد القادر في أسرة ملتزمة دينيا، وتلقى تعليمه الأول بزاوية والده والتي كانت مركزة في تعليمها على التعريف بالدين الإسلامي.

فقد كان للتربية الإسلامية دور في وصوله إلى المرتبة الصوفية، تلقى الأمير عبد القادر هذه التربية مدى حياته، ولاسيما في طفولته على وجه الخصوص، فانغرست مبادئ التربية الدينية في روح الطفل، فجعلته يترفع عن الماديات ويسمو إلى ما هو روحي.

لابد وأن هناك أسباب أخرى جعلت من الأمير عبد القادر رجلا صوفيا، لعل من أهمها نذكر التربية الدينية التي تلقاها في صغره، وهو ابن الزاوية*، بل كان يعتمد أفراد باديته على جده ووالده في حل المشاكل الدينية والفصل في القضايا الدينية، وإن النزعة الصوفية للأمير عبد القادر نشهدها تقريبا في أغلب

[1]. أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر جزائري، ج1، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط2، 2004، ص70، 71.

* "لفظة الزاوية تعني لنا لأول وهلة الانزواء والانعزال والعكوف عن العبادة أو طلب العلم بعيدا عن الناس ومشاغلهم اليومية لكن تطور هذا المفهوم ليصبح مؤسسة تسهر على تحفيظ القرآن وتعليم أصول الدين وعلوم اللغة كما هي مركز لنشر الأخلاق الفاضلة... وهي مربط للمجاهدين للدفاع عن الثغور ضد الحملات الصليبية" (معمر الدين عبد القادر وآخرون، الملتقى الوطني حول أمجاد الفكر الصوفي، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط4، د(س)، ص 201.) تطور مفهوم الزاوية ولم يعد يعني كما كان في القديم الخلوة وإنما أصبح يعني التفاعل بين الزاهد وأفراد المجتمع – أصبح لهم دور عملي في المجتمع – مثل: إصلاح الجانب الأخلاقي.

محطات ورحلات حياته، ففي الجزائر جمع بين السياسة والتصوف، وفي فرنسا كتابه المقراض يدل على غيرته على الدين وتشبعه بالروح الصوفية، وفي بروسة درّس الحديث والفقه.

كانت في الأمير عبد القادر نزعة صوفية أصيلة تدفعه إلى الاتصال بالمتصوفة ومشايخ الطرق في عهد الصغر، وكان أبوه من أتباع الطريقة القادرية، وأثناء تواجده بمقر إقامته بدمشق، اتصل بالصوفي الناسك الشيخ محمد الفاسي مقدم الطريقة الشاذلية، فتتلمذ عليه واستفادة من تربيته، كما استفادة من محي الدين بن عربي الذي كان أكبر حافز له على تأليف كتاب المواقف في التصوف[1].

كان الأمير عبد القادر منذ الصغر يميل ويتقرب من المتصوفة واستمر ذلك معه حتى شبابه، حيث تعرف على متصوفة كثر، من بينهم نجد محمد الفاسي وابن عربي، كما تدرب على طقوس الصوفية وهو لم يبلغ العشرين من عمره بعد عندما قام بتأدية فريضة حجه الأولى برفقة والده، فالعلوم الدينية التي تلقاها في زاوية وادي الحمام وهو طري العود، تركت بصمات عميقة على تكوينه الروحي والنفسي، وجعلته مرابطا وصوفيا ومحاربا في آن معا[2].

وما ينبغي الإشارة إليه، أنّ هدفه الأسمى منذ الصغر، مهما تعددت معارفه وعلومه، هو أن يكون رجل زاوية ومتصوفا كوالده وجدّه، إذ درس الأمير عبد القادر الفلسفة من خلال رسائل إخوان الصفا وبعض كتب أرسطو، وفيثاغورس، كما طالع كتاب الحكمة المتعالية لصدر الدين الشيرازي، ودرس الفقه والحديث، اطلع على كتاب صحيح البخاري وصحيح مسلم وقام بتدريسهما، وبهذا اكتمل للأمير عب

[1]– الأمير عبد القادر، الأمير عبد القادر، جوانب من شخصيته ومختارات من مؤلفاته، الشركة الوطنية، الجزائر، ط2، 1970، ص125.

[2]. جورج الراسي، الدين والدولة في الجزائر من الأمير عبد القادر .....إلى عبد القادر، دار القصبة للنشر، الجزائـــر، د (ط)، 2008. ص 60.

القادر العلم الشرعي والعلم العقلي، كل هذا في إطار حب الطريق الصوفي وفي كنفه إلى أن استتم مسالكه قادريا ثم شاذليا في مكة انتهاء إلى المشرب الأكبري[1].

كان الأمير عبد القادر صاحب فكر فلسفي وديني، وهو بذلك جمع بين الحكمة والشريعة، وهذا ما يظهر من خلال اطلاعه على كتب فلاسفة اليونان، أرسطو والفلاسفة المسلمين مثل إخوان الصفا، كما حفظ القرآن والحديث، واطلع على تفسيرهما، كان قارئا متميزا للمتصوف ابن عربي، هذا الأخير الذي تتمثل أهم فكرة عنده في التصوف في قوله (بوحدة الوجود)، أي الاعتقاد بأن الله هو الطبيعة، فالحق هو الجامع لكل شيء في نفس الحاوي لكل وجود، الظاهر بصورة كل موجود يتخلل ويسري في كل صور وأشكال الموجودات، وبناء على هذا تستحيل الطبيعة إلى مجرد وهم وحلم وخيال يخترعه العقل، ويصير وجودها كوجود الظلال بالنسبة لأشخاصها وصور المرايا بالنسبة للمرئيات، وهكذا لا يكون للعلم المادي المتكثر وجود حقيقي.

إن أهم فكرة في التصوف عند ابن عربي هو قوله بوحدة الوجود، حيث أن الصوفي هو الذي يرى أن كل موجود ما هو في نهاية الأمر إلا تجلي للذات الإلهية.

كما تأثر الأمير عبد القادر بتصوّف جده، ولعل الفضل في تأسيس أول زاوية، خاصة في الطريقة القادرية في القطر الجزائري هو المرابط الشيخ الغريسي والد محي الدين، وهي التي أصبحت تعرف بزاوية القيطنة، أراد مصطفى الغريسي أن يوسّع زاويته ويجعلها معهد لطلب العلم ونشر الطريقة القادرية غير أنه

[1]– رزقي بن عومر، قضايا في التصوف الجزائري، مرجع سابق، ص 44.

توفي أثناء عودته من الحجاز لكنه في سفره التي ذهب فيها للحجاز قال: "أنا تركتها لولدي محي الدين مسرجة"[1].

أسس جدّ الأمير عبد القادر زاوية خصصها لتعليم الطريقة الصوفية القادرية، وقبل وفاته أوصى ابنه محي الدين ليواصل تعليم الفكر الصوفي من بعده، وقد عمل الابن بوصية الأب ووَرَّث الوصية لأبنائه.

ازدهرت القيطنة في عهد الشيخ محي الدين وأصبحت قبلة للزوار والطلاب، كما أشفق محي الدين على المرضى وأعانهم في ضيقهم، وأحسن على الفقراء وساعدهم أثناء محنتهم، وأمد المشردين والمحتاجين قوتا من محصلاته وأعطى اليتامى قسما من هداياه، فانتشر اسمه واعتبره الجميع أبا رؤوفا وقائدا أمينا[2].

نشأ الأمير عبد القادر نشأة دينية، إذ عُرفت عائلة محي الدين بتصوفها على الطريقة القادرية، وقد اقتنع الأمير عبد القادر بفكرة أساسية منذ صغره وهي أنه خُلق ليكون متصوّفا، "إن زاوية القيطنة من حيث هي مكان للخلوة و الدراسة ومركز للنشاط الديني والصوفي لم تكن شهرتها بأقل من أية زاوية أخرى، لقد كانت تتوفر على مكتبة جُمع رصيدها بفضل تركات متعاقبة لعائلة محي الدين وكانت تثرى على الدوام بمخططات وكتب وبكل ما له صلة بالدين على العموم و التصوف على وجه الخصوص، إضافة إلى الشروح والدراسات التي كانت تجرى داخلها، فقد مثلت مراكز التعليم التقليدي والروحي"[3].

كما اتخذ من زاوية والده مكانا لمعرفة الفكر الصوفي، وخاصة أنها كانت تحتوي على كتب العديد من المتصوفة على الطريقة القادرية أو القريبين في فكرهم من هذه الطريقة، كما كان يستغل الزاوية للمطالعة

[1]– بن نعيمة عبد المجيد وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، د (ط)،2007، ص458.

[2]– بن نعيمة عبد المجيد وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر، مرجع نفسه، ص460.

[3]. عدة بن داهة، رحلة في رحاب دولة الأمير عبد القادر، دار الخلدونية، الجزائر، د (ط)،2014، ص222.

الصوفية والعبادة خاصة في الأوقات التي تكون فارغة، وحتى خلال كفاحه ضد الغزو الفرنسي فإن الأمير عبد القادر كان متشبعا بالتصوف وهو ما يشهد به ليون روش الذي عايش الأمير عبد القادر عن قرب والذي يصفه في صلاته قائلا: "لقد كانت شفتاه مفتوحتين قليلا تبدوان وكأنه يرتل ولكنهما في الحقيقة كانتا ثابتتين، لقد كان في علاقته بالسماء يبدو وكأنه انقطع عن الأرض، لقد كان يمثل أسمى صور الإيمان والتجرد، بالرغم لهذا الإيمان العميق الراسخ فإنه لم يكن متعصبا"[1].

تعد منطقة غريس وريثة الأدارسة، ولها ماضي عريق في بث الإشعاع الديني منذ أن ترسخت فيها تعاليم المتصوف الكبير عبد القادر الجيلالي، وهو المتصوف الذي جمع بين الفكر الروحاني الماورائي المبني على الوحدة المطلقة لله، وبين انفتاح العقل والذهن على تفهم معطيات الحياة[2].

تأثر الأمير عبد القادر في تصوفه بعبد القادر الجيلالي، حيث ربط هذا الأخير بين التصوف والحياة أو بين العلم والعمل، فالزهد عنده ليس هو هروب من الواقع بل هو العودة إليه ومعالجته، ويمكن الاعتماد في ذلك على الإلهام الإلهي، وأيضا يعد هذا المنبع مصدرا لتفكيره حيث أنه جمع بين الأصالة والمعاصرة أي بين مبادئ الدين الإسلامي وتقنية الغرب.

لقد جمعت حياة الأمير الفكرية بين قطبين، تمثل الأول في استيعابه للحالة الصوفية بوصفها لحظة شاعرية استمرت منذ صباه، لتتأجج في المرحلة الثانية من تفكيره التي سعى فيها إلى تقليص مساحة

[1]. عبد القادر بوطالب، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائر، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية – من الأمير عبد القادر إلى حزب التحرير، منشورات دحلب، الجزائر، د (ط)، 2009، ص 263.

[2]. جورج الراسي، الدين والدولة في الجزائر ، مرجع سابق، ص 43.

الجراحات والأحزان التي خلفها فراق الوطن ورحيل الأم، من خلال تأملات تجلت نفحاتها في خطاب معرفي، بينما تجلى القطب الثاني في واقع مضن على مختلف الصعد، عانى فيه مجاهدات الأسر والكيد[1].

ومن بين أسباب تصوفه أيضا نجد التربية الدينية التي تلقاها من طرف عائلته، فهو من عائلة تتبنى الطريقة القادرية، بالإضافة إلى عزلته في السجن فوجد من الروح الإيمانية والتمسك بالله والتفرغ للعبادة المسلك الوحيد للترويح عن آلام فراق الوطن والأرض والأهل، عدم اكتمال مشروعه بسبب خيانة حتى أقرب المقربين له.

فالأمير عبد القادر، وكما تحدد ذلك سلفا، كان إنسانا ورعا وتقيا وذا إيمان راسخ الجذور، ولذلك فإنه لم ينتظر حتى نهاية ملحمته الجزائرية ليدخل في التصوف ولكن انتهاء مهمته قد سمحت له فقط بالتفرغ نهائيا للتعبد والتقرب من الله، ففي سنة 1864م وأثناء إحدى حجاته كما يرويه بكره الأمير محمد، حجز له بطلب منه بيتا للتعبد، وقد اعتزل فيه الأمير عبد القادر لمدة شهرين كاملين في رجب من سنة 1880م2.

بوادر تصوفه، إذن، ظهرت معه قبل حياته السياسية لكن وضوحها بجلاء كان بعد الانتهاء من تلك المسيرة.

توجه كذلك محي الدين وابنه عبد القادر إلى بغداد، فجددا الإجازة في الطريقة القادرية من الشيخ محمود القادري، وبوفاة الوالد محي الدين، انتقلت الخلافة الروحية إلى الأمير، ولاشتغاله بتكاليف الإمارة قام

[1]. ودان بوغفالة وآخرون، الأمير عبد القادر عبقرية في الزّمان والمكان، مكتبة الرشاد، الجزائر، د (ط)، ص151.

[2]. عبد القادر بوطالب، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائر، مرجع سابق، ص 263

أخوه محمد السعيد بشؤون الطريقة، وفي أحضان أسرته منذ صباه بدأ الأمير مطالعاته في التصوف، ككتاب "إرشاد المريدين" لوالده، ومنظومة جد جده المختار التي شرحها الإمام اليوسي[1].

كما صاحب الولد والده إلى بغداد من أجل ترسيخ أكثر الطريقة القادرية في التصوف، ثم كررا معا التجديد الروحي بحجهما للمرة الثانية، كما كان الولد مهتما بمطالعة الكتب الصوفية، ولاسيما منها كتاب والده (إرشاد المريدين)، وبعد وفاة والده كان هو المرشح الأول لمواصلة الإرث الصوفي وتولي أمر الزاوية القادرية، لكن نتيجة تكفله بالأمر السياسي ترك المهمة لأخيه السعيد.

إنّ الأمير عبد القادر لم يكن حافظا فقط للقرآن الكريم، فقد انصرف إلى قراءة كتب الحديث، وبعض تفاسير القرآن والكتب الفقهية، وكذا عددا من المقالات الصوفية، لاسيما كتاب إرشاد المريدين، وهو كتاب ألفه والده في فائدة المبتدئين في طريق الصوفية، وعند بلوغه سن الثانية عشرة، صار طالبا، أي مفسرا بارعا للقرآن وللأحاديث النبوية ولأشهر المقالات الفكرية المتصلة بفهم دينه[2].

اهتم الأمير عبد القادر بقراءة الحديث وحاول فهم القرآن ومعرفة أحكامه مُعتمدا على مُفسري القرآن، مُطلعا على بعض الكتب والمقالات الصوفية، "كان الشاب، الحاج عبد القادر يكرس أكثر ما يستطيع من وقته للدراسة وللعبادة الموسومة بتصوف مستوحى من الشيخ محمد الفاسي الذي قابله في مكة، وقد طور هذا التصوف تدريجيا بفضل قراءته لأعمال الصوفي الأندلسي محي الدين ابن عربي"[3].

يمكن القول، إذن، أنّ من منابع تصوفه هو تأثره بمحمد الفاسي وابن عربي، يقول الأمير عبد القادر: "إني كنت أجاهد على ديني وبلادي، ولما رضي أهل الوطن بموافقة النصارى، انحزنا لسلطان المغرب

[1]. الأمير عبد القادر، المواقف ، تح: عبد الباقي مفتاح، ج1، دار الهدى، الجزائر، ط1، 2005، ص13.
[2]. عدة بن داهة، رحلة في رحاب دولة الأمير عبد القادر، دار الخلدونية، الجزائر، د (ط)،2014، ص222.
[3]. قدور مصباحي، شباب الأمير عبد القادر، ديوان المطبوعات، الجزائر، د (ط)، 2007، ص15.

مرادنا بذلك أننا جميعا مسلمون: للواحد منا ما للجميع وعليه ما عليه وحيث حصروا الإسلام عندي فالواجب علي من الله أديته وعند عجزي لا عتاب علي فالآن أردت أن أستريح من تعب المشاق ولا تحصل لي تلك الراحة إلا بالمشي إلى مكة... ولم يبق في قلبي من الملك شيء بل غسلته بالماء والصابون"[1].

إنّ خيانة أبناء الوطن له، وعدم مساعدة المسلمين له للدفاع عن وطنه، ولاسيما السلطان المغربي جعله يستقيل نهائيا عن أمور السياسة، فضميره هو مرتاح لأنّه تولى الإمارة وهو لا يرغب فيها بل تأدية فقط لواجبه المتمثل في الدفاع عن دينه ووطنه وتلبية لنداء الجزائريين الذين ناداهم في البيعة ووعدوه أن يقفوا معه في السراء والضراء لكن عندما خانوا الوعود ولم يجد مساعدة إخوانه من داخل الوطن وخارجه انتقل من الجهاد الأصغر إلى الأكبر.

كما كان يحاول أن يتحلى بسلوك العرفانيين، إذ كان "يتشبه بهم عن نية من يحرص على أن يرقى إلى درجتهم، تشبها مؤسسا على أصالة منتبه، فهو من بيت يتوارث التربص على طريق أهل السلوك، كما أنّه كان على استعداد روحي واجتماعي لا مراء فيه... لأن أبيه وذويه من أهل الكشف، ثمّ إنّه كان على ثقافة عرفانية زادت بها تطلّعاته وقوّت لديه التوق، لاسيما بحلوله أرض المشرق الحافلة بالرموز والعبر"2.

لقد حمل الأمير عبد القادر، منذ الصغر، طموح أن يكون رجلا متصوفا، متأثرا في ذلك بأبيه وجده الصوفييْن بالإضافة إلى الفكر الصوفي الذي اكتسبه من خلال قراءته لكتب المتصوفة ولا سيما ابن عربي، إن البعد الصوفي في شخصيته متجدر في أعماق فطرته، ويمكن تقسيم مساره الصوفي إلى: مرحلة التعلق ثم التخلف ثم التحقق.

[1]. ودان بوغفالة وآخرون، الأمير عبد القادر عبقرية في الزّمان والمكان، مرجع سابق، ص282.

[2]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، دار الغرب، وهران، ط2، 2009، ص288، 289.

فالمرحلة الأولى: تمتد من ولادته إلى فترة جهاده، وهي مرحلة تعلقه بالتصوف والتعرف على رجاله، فوالده شيخ الطريقة القادرية، وهذه الوراثة الأسرية للمشرب الأكبري قد زادت رسوخا عندما صحب محي الدين وابنه الشيخ المربي محمد خالد النقشبندي (1193م) وذلك خلال إقامتهما في دمشق إثر حجهما عام (1828م)، وهناك زارا ضريح الشيخ الأكبر، وتمتد المرحلة الثانية من فترة الاعتقال ما بين1847 و1852م حيث جعل الأمير عبد القادر من سجنه أيضا خلوة للذكر والتفكير والتعبد، فأشرقت عليه مطالع الفتح النوراني وحصلت له وقائع روحانية ومشاهد ومرائي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللخليل إبراهيم عليه السلام، وهو ما أومأ إليه في الموقفين 83 و211 من كتابة المواقف. "وتحت وطأة خذلان الأصدقاء وخيانة وشماتة الأعداء لم تتزلزل فتوته الصوفية وشهامته الهاشمية"[1].

ففي المرحلة الثانية، اهتم الأمير عبد القادر بأخلاق المتصوفة، ويؤرخ لهذه المرحلة بفترة اعتقاله إلى السنوات الأولى من وجوده بتركيا، حيث استغل الأمير عبد القادر هذه الفترة في الخلوة والزهد والذكر الكثير حتى حصل له الفتح ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم وإبراهيم الخليل.

المرحلة الثالثة وهي مرحلة التحقق والفتح الكبير وتطلعت همة الأمير عبد القادر لذلك إلى أن حصل على مقصوده في مكة المكرمة خلال حجة عام 1279هـ (1863م) وعمره نحو 57 سنة، ومن الأسباب التي جعلت الأمير عبد القادر "يسلم زمام سلوكه الروحي للشيخ محمد الفاسي هو تطابق المنهج والمشرب الدرقاوي الشاذلي في التربية الروحية والأذواق العرفانية مع المنهج والمشرب الأكبري"[2].

[1]. الأمير عبد القادر، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج1، مرجع سابق، ص16.

[2]. الأمير عبد القادر، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، ج1، ص 18، 19.

لكن إذا كان كتاب المواقف يؤكد أن تصوف الأمير عبد القادر له جذور منذ الصغر، وأنه خلق ليكون متصوفا فإن "هنري تشرشرل" الذي عايشه يرى عكس ذلك، "فالرجل كان يريد تأسيس دولة وإقامة مجتمع، وقد يكون التصوف ودراسته والتعمق فيه قد اتخذه وسيلة لملء الفراغ القاتل الذي كان يعيشه، فرجل مثله كان صاحب بطولة وفروسية وحيوية وآمال، فإذا به سجين في فرنسا، وشبه سجين في بورسة، وتحت إقامة جبرية في دمشق، إنّ هذه القيود قد أثقلت كاهله فنشد حريته في التصوف الذي يحرره من الارتباط بالمخلوقات والاتجاه إلى الخالق وحده"[1].

يرى هنري تشرشل أن تصوف الأمير عبد القادر كان نتيجة حتمية وذلك بسبب نفيه من الجزائر، فنحى المجال الصوفي حتى يُخفف من آلام الغُربة والنتيجة المؤلمة التي انتهت إليها سياسته.

من أسباب تصوّفه أيضا يمكن الإشارة إلى نزعته الإنسانية، وهي النسب الحقيقي الذي أراده أن يكون صلة الوصل بينه وبين أخيه الإنسان، شرقيا كان أم غربيا أوروبيا، مسلما أو مسيحيا، وانتماؤه إلى آل البيت النبوي، وهو النسب العفوي الذي لا إرادة للأمير عبد القادر به، "وإذا كانت عنايته تعالى بأهل البيت النبوي كما أخبر، فما ظنك بعنايته تعالى بأهل البيت الإلهي، وهم المعنيون بأهل القلوب"[2].

ومن أسباب تصوّفه أيضا تربيته الدينية الصوفية، فقد شب في جوّ ديني تربوي، فهو ابن الزوايا والطرق، بالإضافة إلى إيمانه الشديد بالقضاء والقدر، ولعلّه يتابع في هذا الرسول صلى الله عليه وسلم فمثلا حين سئل عن الإسلام فقال: أن تؤمن بالأقدار كلّها خيرها وشرّها، حلوها ومرّها، فقد آمن بأن القضاء والقدر قد كتب له ليكون صوفيا بالميلاد والتربية والميل[3]، تمرس الأمير عبد القادر عهودا من عمره

[1]– هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، د (ط)، 2009، ص16.

[2]. فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د (ط)، 1985، ص120.

[3]. فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، مرجع نفسه، ص121.

بالقرآن، قراءة وفهما واستيعابا من خلال الفهم الذي انتهى إليه في مدوّنات التفسير السني المتواتر، ثمّ وافاه الفتح، فباتت حقائق أخرى تنكشف له في النص القرآني، "فعاش جدلا بالمنقلب، وبات كيانه وقلبه مسرحا ومرتعا لأنوار أخرى تبلج بها صبح القرآن"[1]. فبعدما كان الأمير عبد القادر قارئا لتفسيرات القرآن أصبح هو يقرأ القرآن قراءة صوفية ويستخرج كنوزه التي لم تتحدّث عنها تلك التفسيرات.

من هنا جاء كتاب المواقف جهدا استشرافيا، مادّة تفعيله الأولى هي اللغة وأفقه الحيوي هو اقتناصات الروح وما تستلهمه من فيض الدلالة وما تشع به إيحاءات الخطاب للقلب والعقل من ثمار[2]. فالمنهج الذي اعتمده الأمير عبد القادر هو فهم الآيات القرآنية وقراءتها والتدبر فيها ومن تم التوجه إلى الله وطلب معناها، فيحصل له بذلك إلهام مدلول تلك الآيات.

وما ينبغي الإشارة إليه أنّه يمكن أن يختلف ضبط مفهوم التصوف من صوفي إلى آخر، وذلك كلا حسب تجربته الصوفية، إذ يعتبر الأمير عبد القادر التصوف أنه جهاد النفس في سبيل الله، لا لشيء آخر من غير سبيل الله، ويوجه تحذيره إلى "الصوفي الذي يجاهد نفسه بالرياضات الشاقة لأجل طلب جاه عند الملوك، أو لصرف وجوه العامة إليه، أو حصول الغنى، كون عبادته مشوبة بأغراض نفسية وحظوظ شهوانية، ولقد أطلق على الصوفيين ألقابا عديدة فهم تارة أهل الله، وطورا العارفون، ومرة أهل الكشف والعرض"[3].

[1]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، مرجع سابق، ص106.

[2]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، مرجع نفسه، ص91.

[3]. فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، مرجع سابق، ص115، 116.

إذن يعرّف الأمير عبد القادر التصوف على أنه الخضوع التام لأوامر الله والابتعاد عن نواهيه طاعة لله دون أي غاية أخرى، حيث يرى أنّ المتصوف هو الذي يؤمن أن الله حاضر معه في جميع أفعاله، ومن منطلق أنه يخاف الله ستكون أفعاله تستجيب لما يأمره به.

يعتبر الأمير عبد القادر التصوف جهاد النفس في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية، والاطمئنان والإذعان لا لشيء آخر من غير سبيل الله، فهذا التعريف للتصوف يخرج هذا الأخير عن كل أنواع الروحانيات المريحة التي تعزل الفرد عن المجتمع وتدفع به نحو اللامبالاة، فجهاد النفس والإذعان لأحكام الله يعني بالدرجة الأولى الانفتاح عن المجتمع واهتماماته[1].

يرى الأمير عبد القادر أنّ التصوف يعني الجهاد الأكبر لا الأصغر، أي كبح شهوات النفس وبعد النجاح في ذلك يسهل على الصوفي الخضوع والخنوع للأوامر الإلهية وبذلك يتمكن من معرفة ربّه، كما أنّ التصوف عنده لا يعني الهروب من المجتمع بل المتصوف هو فرد اجتماعي بامتياز يؤثر في مجتمعه ويتأثر به.

حاول الأمير عبد القادر من خلال تعريفه لأهل الله أن يصحح بعض المفاهيم الخاطئة التي كانت ترسخ في أذهان الناس في عصره عن التصوف والمتصوفين، فأهل الله الذين يعنيهم ليسوا أولئك الذين يأكلون النار ويدخلون مسامير الحديد في أشداقهم، ويمشون راكبين على ظهور الأشخاص حتى يعرفهم العوام... ويخلص الأمير برأيه إلى اعتبار الصوفية هم سادات طوائف المسلمين... هذا هو مفهوم التصوف عنده إنّه: جهاد النفس في سبيل معرفة الله عن طريق الرياضات الشاقة، والعبادة الخالصة لله، والحضور الدائم مع الله"[2]. لقد أصبح الكثير من الناس في عصر الأمير عبد القادر يصفون أنفسهم بالمتصوفة، ولهذا

[1]. محمد عبد اللاوي، مجلة الدردارة: أيام ملتقى 26. 27 نوفمبر لمبايعة الأمير عبد القادر، مؤسسة الأمير عبد القادر، معسكر، عدد 5، ص13.

[2]. فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري، مرجع سابق، ص116.

أراد أن يبين أنّ هذا المصطلح لا يطلق على من هب ودبّ، بل الصوفي الحقيقي هو الذي استطاع أن ينجح في جهاده الأكبر في ضبط شهواته والابتعاد عن ما نهى عنه الله سبحانه وتعالى، إذن المتصوف الحقيقي هو الذي يكون في مجالسة دائمة مع الله.

وجملة السعادة أن يجعل الإنسان لقاء الله مقصده، والدار الآخرة مستقره والدنيا طريقه، فلا ينصرف إلى الدنيا فإنه لا يدرك منها كلّ ما أمل، بل بحرها لا قعر له، فإن الإنسان كلّما أدرك منها أمرا دعاه إلى غيره إلى غير نهاية، وأمورها متداخلة متداعية[1].

ولما كان معنى الألوهية يعني الإطلاق، ولما كان الإطلاق رديفا لمعنى الكلية، كانت ماهية الذات العلية موضوعا يستجمع التضادات، اتساقا مع ما يقوم عليه الوجود – الذي هو من صنع الخالق– من مفارقات وتضاد، من هنا كان تعريف الذات بالإطلاق يفيد التقييد، وكان التقييد بدوره يفيد الحصر والمحدودية وكل من حصر الحق في معتقد ونفاه عمّا عداه فهو جاهل بالله كائنا من كان[2].

يرى الأمير عبد القادر أن مصطلح الله يدل على المطلق، وتقرب الناقص منه الإنسان يكون عن طريق الجهاد الأكبر.

يؤكد الأمير عبد القادر أنّ هناك أخلاق على المتصوف الالتزام بها، إذ يعرف الخُلق على أنّه "عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة... إذ أن في الباطن أربعة أركان لابد من الحسن جميعها حتى يتم حسن الخلق، فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهي: قوة العلم، وقوة الغضب،

[1]. الأمير عبد القادر، المقراض الحاد، مرجع سابق، ص 26.

[2]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، مرجع سابق، ص 136.

قوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوى"[1]. الإنسان المتخلق هو الذي حصل له التناغم بين القوى التالية: العلم، الغضب، الشهوة، العدل.

إذن يمكن القول أنّ هناك أسباب دعت إلى تصوفه نذكر منها: تربيته منذ الصغر، فهو ابن الزاوية والطريقة القادرية، كما أنه ينحدر نسبه من الرسول صلى الله عليه وسلم، نزعته الإنسانية.

ويعتبر الأمير عبد القادر من الأوائل الذين جمعوا بين التصوف النظري والعملي، حيث قرأ كتب الصوفية واعتمد على شيخه محمد الفاسي كمرشد له، لكن تصوف الأمير لم يجعله يعتزل في الجبال ويقضي كل وقته في الصلاة، كما أن الواقع المتأزم الذي كان بعيشه لم يفلت منه عن طريق التصوف بل اعتمد في معالجة هذا الواقع الاستعماري عن طريق توكيل أمره إلى الله والاعتماد على الواحد الأحد في اليسر. كما اعتمد على الدين الإسلامي في توجيه أمته والتزامه بمكارم الأخلاق الإسلامية. والعسر فمثلا عند سقوط الزمالة لم يتحصر كثيرا واعتبر الأمر قضاء وقدرا، بل واسى أصحابه وبين لهم أن ما حل بهم رغم أنه مصيبة إلا أنه إيجابي من جهة أخرى، وذلك من خلال محاربتهم الاستعمار دون الخوف على شيء تركوه من ورائهم.

[1]. الأمير عبد القادر، المقراض الحاد، مرجع سابق، ص192.

الفصل الثاني: المصوّغات الحضارية للتجربة الصوفية عند الأمير عبد القادر

المبحث الأوّل :التصوف عند الأمير عبد القادر.

المبحث الثاني: نماذج لتأويلات الأمير عبد القادر.

المبحث الثالث: الأمير عبد القادر رجل صوفي وحضاري.

المبحث الأوّل

التصوف

عند

الأمير

عبد القادر

يرى الأمير عبد القادر أنّ الكثير من الناس هدفهم الوصول إلى درجة الفتح الكبير والعرفان، لكن القليل منهم من يصل إلى مبتغاه، "فإن في الوجود معشوقة غير مرموقة الأهوية إليها جانحة والقلوب بحبها طافحة، ولا يصل إليها إلا الواحد بعد الواحد في الزمان المتباعد، ولا يقدر أن يعبر عنها بعبارة ولا يشير إليها بإشارة أكثر من قوله: بعد التعب وجدت هذه المعشوقة، فما كان هجري للذاتي إلا في طلب ذاتي، فيقول: رأيت وما رأيت، فيقال له: هذا الذي تقول ثبت عندك بدليل فيقول: لا دليل بعد عيان"[1]، فبعد تعب وجهد جهيد وبعد زمن بعيد يصل الواحد من السالكين طريقهم إلى الله، وهذا لن يتحقق إلا عند التخلي عن الشهوات والرغبات، وبذلك يصل الإنسان إلى معرفة نفسه وربه، حيث يرى ما لا عين رأت ولا خطر على بال، ولا يستطيع أن يحكي ما رأى ولا يبرهن على ما رأى، فليس له إلا دليل واحد يقتنع به هو وحده، وهو أنه هو من رأى وليس غيره.

إن المتأمل في الحياة الفكرية للأمير عبد القادر، وبالأخص في الجانب المرتبط بتصوفه، يمكن أن يميز بين ثلاث فترات متمايزة عن بعضها البعض، وهي كالتالي:

1)- تتمثل المرحلة الأولى من فترة سفره مع والده إلى دمشق والأخذ من علمائها، وتلقّيه الطريقة النقشبندية*والقادريّة، و وقد أسس في هذه الفترة مراكزا لتعليم الطريقة القادرية، ويمكن القول أن بداية تصوف الأمير عبد القادر كانت من خلال التقائه بالمتصوفة والتأثر بهم، بالإضافة إلى ارتباطه بالطريقتين الصوفيتين النقشبندية والقادرية.

[1]- الأمير عبد القادر، المواقف في بعض إشارت القرآن إلى الأسرار والمعارف، ج1، ص90.

*- نسبة إلى خالد النقشبندي الذي التقى به الأمير عبد القادر في الشام.

2)- وتشكلت المرحلة الثانية نتيجة لما أحدثه فعل عزله في سجن أمبواز[1]، لقد أصبح منهمكا في قراءة كتب المتصوّفة، إلا أنه لم يكن في هذه المرحلة قادرا على الوصول إلى فهم خباياها، لأنّه لم يكن قد انتقل بعد إلى مرحلة الخمرة.

إنّ ما حدث مع الأمير عبد القادر هو ما يمكن أن نسميه حاليا، في العلوم الشيوصوفية، بظاهرة الاقتراب من الموت، لحصوله على الفيض، وإن كنا لا ندرك تفاصيل أسبابها وظروفها الأنثروبولوجية، إلا أنه يمكن أن نقول إن المراحل الأولى من حياته كانت تجربة وضعية أو دعنا نسميها نظرية ظاهراتية[2]، غير أنه من المؤكد أنه دخل التجربة العملية بداية من تجربة السجن والمنفى في أمبواز واكتملت ملامحها في مكة المكرمة.

3)- هي المرحلة التي تمّ له فيها الترقي الصوفي، وصل إليها في فترة تواجده بمكّة المكرّمة سنة 1279هـ، حيث أقبل على العبادة والخلوة، والتقى فيها بالشيخ "محمد الفاسي" الذي أعطاه الطريقة الشاذلية، وحصل له فيها فتح كبير، أشار إليه في قصيدته الرائيّة، يمدح فيها شيخه[3]، فالصوفي قبل أن يكون كذلك لابدّ له من شيخ يساعده ويرشده ويوضّح له ما استعصى عليه في رحلته الصوفية.

وخلوته الأولى كانت في غار حراء بجبل النور حيث تلقى الرسول صلى الله عليه وسلم الوحي لأول مرة، كما ذهب الشيخ الأكبر للطائف بعد حجه لزيارة ضريح الصحابي عبد الله بن عباس، فكذلك فعل الأمير عبد القادر إثر خروجه من خلوته الأولى، فذهب إلى الطائف سائحا معتكفا ثلاثة شهور، ثم في أواخر رجب 1280م أي بعد عام من خروجه من الحجاز استقر في المدينة المنورة فشرع في خلوة أخرى دامت شهرين، فالاعتزال الأول للأمير عبد القادر كان في غراء حراء، وفي هذه النقطة نجده تَابعا لرسوله حيث أن

[1]- نزار أباظة، الأمير عبد القادر العالم المجاهد،دار الفكر، دمشق، ط1، 1994، ص 28.

[2]- هاجر قويدري، الأمير عبد القادر في عباءة محي الدين بن عربي، جريدة الفجر، يوم 11- 09- 2011.

[3]- نزار أباظة، الأمير عبد القادر العالم المجاهد، مرجع نفسه، ص 28.

هذا الأخير أيضا خُلوته الأولى كانت في غار حراء، كما كانت تابعا لابن عربي أيضا في توجهه إلى الطائف بعد عزلته الأولى[1]، كما كانت له عزلة ثالثة دامت شهرين، وذلك في مكة المكرمة.

يعتبر الأمير عبد القادر من أبرز متصوّفة العصر الحديث، ولقد تعمّقت نزعة التصوّف في نفس الأمير عبد القادر أثناء سجنه في فرنسا، وأصبحت غالية عليه عند تحوّله إلى دمشق وانقطاعه وتفرّغه لمطالعة كتب الصوفية، وقد كانت إقامته بالحجاز لمدّة سنة ونصف (1862م) نقطة تحوّل حاسمة في سلوك الأمير عبد القادر الصوفي، فانكبّ فيها على العبادة بعمق الإيمان وعبّر فيها عن الوجد الصّوفي الذي استغرقه في قصيدته الرائية[2]، والتي نقتطف منها هذه الأبيات:

ويشرب كأسا صرفة، من مدامة فيا حبّذا كأس ويا حبّذا خمر

هي العلم كلّ العلم والمركز الذي به كلّ علم كلّ حين له دور

أمولاي إنّي عبد بابك واقف لفيضك محتاج لجودك مضطرّ[3]

هناك طريق يتبعه الأمير عبد القادر أثناء رحلته الصّوفية وهو متمثل في "خطة ثلاثية المسلك يعتمدها في مجال المعرفة الروحانية، ففي المسلك الأول يعتمد على معرفة الشيخ الأكبر وفي حالة ما إذا لم تف هذه المعرفة بمطالب الدين أو تخرج عن حدوده المعرفية والعقائدية، فإنّه يضطر إلى التماس المسلك الثاني وهو

[1]- الأمير عبد القادر، المواقف في بعض إشارت القرآن إلى الأسرار والمعارف، ج1، مرجع سابق، ص 19.

[2]- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 186.

[3]- الأمير عبد القادر الجزائري، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، مرجع سابق، ص197.

الكتاب والسنة، إلاّ أنّ فيهما مسائل لم تجد سبيلا للفهم والمعرفة، فيقف أمامها حائرا ويضطر حينها إلى المسلك الثالث وهو الإلقاء الذي ينير عقله بنور المعرفة"[1].

يمكن القول، إذن، أنّ الأمير عبد القادر قد تأثر بابن عربي، في الكثير من المسائل والأفكار، فهما ينتميان إلى نفس المذهب، لكننا نرى أن الأمير عبد القادر، في بعض المواقف يستغني ويبتعد عن شيخه، ويرجع بنفسه إلى القرآن والسنة لاستنباط ما يريد أن يفهمه، فإن لم يستطع يسلّم أمره إلى الله لينتظر الإلهام الغيبي.

يعرّف الأمير عبد القادر التصوف على أنه: هو التوحيد بالعيان، أي شهود الوحدة التامة بعد الخروج التام من الشرك، فالتصوف هو، إذن، التوحيد بشرط الشهود لا التصور والاعتقاد كما هو الأمر عليه عند المتكلمين وأهل النظر عموما أو عند عامة المؤمنين[2].

إن المتصوف، ليس هو من كان على دراية بعلم التصوف وآمن بأنّ الله واحد، بل لابد أن يلحق هذه المرحلة مرحلة أخرى هي مشاهدة الحقائق الإلهية.

إن لهذا النوع من التوحيد طرق منها: طريق الجذب وهو من غير مجاهدة، ويحصل عليه الإنسان بالفضل الإلهي بحيث لم يكن قد خطط له ولا عمل له وصاحبه يسمى المجذوب والطريق الثاني هو طريق السلوك وهو ما يتم الوصول فيه بواسطة المجاهدة والسير وطي الطريق إلى الله[3].

[1]- ملاح أحمد، الأمير عبد القادر المتصوّف، مرجع سابق، ص49.

[2]- رزقي بن عومر، قضايا في التصوف الجزائري، مرجع سابق، ص 46.

[3]- رزقي بن عومر، قضايا في التصوف الجزائري، دار لالة صفية، مرجع نفسه، ص 47.

هناك طريقان للوصول إلى الدرجة الصوفية، أولهما هو الجذب وفيها يتم الحصول على المعارف اللدنية فضلا من الله دون مجاهدة أو رياضة ودون تخطيط، وثانيهما هو السلوك أي الطريق الذي ينتهجه السالك للوصول إلى الله وذلك باعتماد الخلوة والرياضة والجهاد الأكبر والشيخ الموجه...

الأمير عبد القادر لم يكن مقلّدا لغيره بل له موقفه الخاص من التصوف كما قدم لنا معرفة صوفية خاصة تعكس وجهة نظره، إذ لابدّ من التشديد على أنّ الخطة المعرفية الروحية التي اتّبعها لم تستنسخ تصوّرات أهل الباطن، ولم تعتمد نظام أهل العرفان كما رسخ في تعاليمهم وتآليفهم، "بل لقد ظلّ الصفاء العقلي والواقعية الفكرية وجهته سواءً في منهج التأويل الخطابي أو في تدليلاته المنطقية أو في معايشته للأحوال، فلقد كان متأملا أكثر منه متخيلا، من هنا يمكن القول بأنّ معرفته الكشفية إخبارية وليست إنشائية"[1].

إن تأويل الأمير عبد القادر هو في أساسه تأويل عقلاني، منطقي، واقعي، تأمّلي وصوفي في الوقت نفسه، وبالتالي فهو ليس هرطقة ناتجة عن خيال وأحلام.

أهم ما يقال عن زهد الأمير عبد القادر أنه سنّي، لا يخرج عمّا أمرت به الشريعة الإسلامية، ويشهد له الجميع بصفاته الخلقية الحسنة، حيث يقول((قدّور بن رويلة)) في وصف أخلاقه: "إنّ الأمير عبد القادر، لا يأكل ولا يشرب إلاّ ما أمرت به شريعته، عدالته ليّنة صارمة في نفس الوقت، وأحكامه مطابقة لما جاء في الشّرائع السّماوية، لا يتسامح مع من يرتكب غلطة خطيرة، ولا يتورّع عن معاقبة ابنه، يكره من لا يتّبع الطريق المستقيم، ولكنّه يحبّ الإنسان المتديّن والذي لا يُؤذي أحدا، وهو يستنكر ويتخلّى عن أقرب أفراد عائلته إن ارتكب ما حرّم الله"[2]، ومن صفات المتصوفة التي ظهرت في الأمير عبد القادر كثيرة لكن نذكر منها: أنّه كان له إمام لأداء الصلوات الخمس، وكان يواظب على صلاة السنة، وكان يحب سماع القرآن الكريم، وكانت عيناه

[1]–عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، مرجع سابق، ص335 .

[2]– محمّد الطاهر عزوي، تصوّف الأمير عبد القادر، مجلّة مسالك، ديسمبر 1998، العدد 3، ص 91.

تفيضان بالدمع، كما كان شديد الرغبة في سماع الحديث، وكان لا يرد سائلا، ولا يُخجل قائلا، وما عقر في سبيل الله فرس أو جرح إلا وعوض صاحبه مثله وزاده من فضله، وكان لا يرتدي إلا ما يروق في عينيه من ملابس الكتان والصوف، حتى إذا وجد محتاجا تبرع له بها[1]، ومن بين العبادات التي التزم بها: نذكر أداء الصلوات المفروضة والنافلة، قراءة القرآن والحديث، وكان متواضعا في ثيابه التي لم تكن من الحرير بل من الصوف فقط.

كانت حاجات الأمير عبد القادر محدودة ومتواضعة، ملابسه منسوجة من الصوف، تقوم بصنعها نساؤه، بينما كان غذاؤه مما توفره أملاكه وأراضيه الواسعة والتي كان إنتاجها يسمح له أيضا بتقديم المساعدة للفقراء والمعوزين والجرحى في الحرب، والضيافة لعابر سبيل، وبالتالي فهو لا يحتاج إلى سحب موارد قليلة أو كثيرة من بيت المال[2].

كان الأمير عبد القادر من أنصار الزهد في اللباس والمعاش، يتغذى على منتوج أراضيه، والباقي منه يوزعه في سبيل الله، لا يبيعه ولا يكدسه، لقد كان مثالا يقتدى به خلفاؤه، أُعتبر نموذجا للنزاهة والتقشف، والاستعداد للتضحية بالنفس والنفيس، وقد كان احتقاره للثروة من الخصائص المميزة لشخصيته، كانت حاجاته محدودة ومتواضعة.

ومن صفات الأمير عبد القادر، إذن، والتي اعتبرت من معالم تصوفه، نبذ الثراء، والزهد في المأكل والملبس، حيث كان يلبس ملابس الصوف المصنوعة بيد نسائه، ويتغذى من حدود ما تنتجه أرضه التي زرعها هو، والباقي يخرجه صدقة.

[1] – مسعود مجاهد، كفاح الجزائر البطولي في عهد الأمير وبعد وفاته، مؤسسة الأمير عبد القادر، الجزائر، ط2، 1982، ص 138-139.

[2]– إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت الأمير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، د (س)، ص 218.

لقد تميّز الأمير عبد القادر بالتزامه الشّديد بالصلاة التي كان يأتيها بلا توان أو تحرّج أنّى حان وقتها، ويمكن أن نورد هنا ما وقع له ذات يوم بعد تسريحه من الأسر، إذ دُعي لزيارة ملك فرنسا، فاتجه إلى القصر، وفي قاعة الانتظار اتجه ببساطة وتلقائية إلى ركن القاعة، وشرع يؤدّي صلاته إذا أدركه الوقت هناك[1]، وكانت تلك التلقائية، وتلك الوقفة الخاشعة المستكينة لله، محلّ دهشة وتقدير، زاد من قيمته عند الحضور.

يمكن الإشارة إلى أنّ الأمير عبد القادر، كان لديه الإيمان الصوفي قبل أن يظهر ذلك علانية، إذ كان ملتزما بصلاته حتى في أوقات الحرجة، كأوقات الخروج من الأسر، كما يرى الأمير عبد القادر أنه على المتصوف الاعتكاف لطلب الآخرة، والتحلي بالصبر عند الشدائد، والرضا عند النوازل باعتبارها ابتلاءات ربانية وإغراءات دنيوية، وبتعبير آخر، يمكن القول أن المتصوف، في نظر الأمير عبد القادر، هو من كان عليه أن لا يرى في الأشياء والعباد سوى اعتبارها مخلوقات تحمل أسماء الله وأقواله وحدوده، فعليه أن يتعامل مع هذه المخلوقات كما لو كان يتعامل مع الله، أي كما لو كان يراه، عندئذ يحصل له الكشف وتتجلى له الأشياء في صورتها الروحانية[2].

يؤكد الأمير عبد القادر أن الذي يريد أن يكون التصوف مبتغاه هو من كان عليه أن يماثل في أفعاله وأقواله شخصية الرسول والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد يتساءل المرء عن الكيفية التي نماثل بها هذه الشخصيات، إذ ليس بالإمكان إيجاد وصفة تدلنا على الطريق الذي نسلكه، وحتى نوفّق في نصيحتنا نقول أنه على المرء أن يتحلى بآداب وأخلاق الأنبياء بإزاء الله وبإزاء العباد، والكائنات الأخرى الحية منها والجامدة[3].

[1]– عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، دار الغرب، وهران، ط3، 2009، ص 50، 51.

[2] – ملاح أحمد، الأمير عبد القادر المتصوف المصلح، مرجع سابق، ص 69.

[3] – ملاح أحمد، الأمير عبد القادر المتصوف المصلح، مرجع سابق، ص 68.

لكن ما هي الشروط والكيفية، من وجهة نظر الأمير عبد القادر، التي تجعل الإنسان ينتقل إلى الحالة التي نصفها ونعتبرها تصوفا؟

يؤكد الأمير عبد القادر على ضرورة اتباع سيرة الرسل والأنبياء، وهنا ينبهنا إلى صعوبة طريق السلوك، لأن المكاشفات فيه هي على سبيل الابتلاء، أي التربية والتهذيب وتقتضي معاملة في غاية الأدب وهو ما يتعارض مع حقيقة النفس التي تأبى الأدب، لأنها تطلب السيادة بأي طريقة، ما عدا طريق العبودية الملزم للتأدب أمام السيد المطلق عز وجلّ، طبعا فإن لكل مرتبة جاذبيتها وفتنتها تعترض السالك وإن الوقوف عندها افتتان... ولا ينجو سوى أصحاب العناية الإلهية[1].

إن السالك في طريقه إلى الله ينبغي أن يتحلى بأعلى مكارم الأخلاق لأنه في علاقة مع ربه، لكن الكثير من يضل في الطريق والسبب في ذلك أنّ النفس الإنسانية التي هي تأمر دائما بالسيطرة ولا ينجو من تأثيرها السلبي إلا الذين من تمكنوا من مجاهدتها جهادا أكبرا وهم الذين كان لهم حظا في العناية الإلهية، وقد اعتبر الأمير عبد القادر أن النفس مطية السالك في سيره إلى الله تعالى.

إن كثيرا من مقامات الأمير عبد القادر وأحواله، كانت في غالبيتها الساحقة تطبيقا عمليا، لا أثر للناحية النظرية أو القولية فيها، فعانى من تجربته، ومارسها في حياته تطبيقا عمليا[2].

يعتبر الأمير عبد القادر من بين المتصوفة الذين يمكن ضبط مفهوم التصوف عندهم على أنه ((علم وعمل)) كما رأى ذلك من قبل أبو حامد الغزالي، فتصوفه لا ينحصر في الانعزال في الأماكن النائية والاعتزال عن الناس، وإنما قرأ كتب الصوفية وطهّر وجاهد نفسه، ولقد طبّق تصوفه في حياته اليومية نذكر من ذلك:

[1]- رزقي بن عومر، قضايا في التصوف الجزائري، مرجع سايق، ص 48.

[2]- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، مرجع سابق، ص 147، 164.

صرفه لأملاكه على الفقراء والمساكين وفي أمور الحرب، الطلب من زوجته أن تفيد وطنها بأموال حليّها، لم يكن يجري وراء المصالح السياسية بل إنه لم يرض أن يكون حاكما سياسيا سوى إرضاء لربه . من واجبه الديني الدفاع عن الوطن والدين وطاعة لوالده – كما أنه اعتمد على مبادئه الدينية وأخلاقه الصوفية لتسيير شؤون أمته.

تصوّف الأمير، إذن، علم وعمل، لكن ما يلاحظ من بعض الدّراسات هو اعتبار التصوّف عنوانا للاعتزال عن الحياة، وهو ما تتصف به بعض الشخصيات وبعض الزّوايا ((القرن 2 هجري))، وقد استمرّ هذا المفهوم لعقود طويلة وصولا إلى غاية القرن 13هجري- 19 ميلادي، حيث تغيّر المفهوم والمصطلح من خلال ممارسات الأمير عبد القادر[1]، لقد سجل الأمير عبد القادر، إذن، بعد جهاد أكبر اسمه في سجّل المتصوّفة، وسيعد كتابه المواقف خير شاهد على ذلك، لقد تميّز زهده بالجمع بين العلم والعمل.

كان الأمير عبد القادر مقتنعا بدينه الإسلامي واعتبره الأحق والمصون، ففي تعريفه للقرآن يقرّ أنّ "القرآن تلقّاه محمّد كما هو مَتْلُو بكلماته وحروفه وتراكيبه بخلاف غيره من الكتب الإلهية فإنّ الرسل يتلقونها في حالة الوحي معانٍ يعبرون عنها بعد رجوعهم إلى الحالة البشرية بكلامهم المعتاد لهم، لذلك لم يكن في ألفاظها إعجاز، وأمّا القرآن فناظمه الله تعالى، فلذا لا يقدر أحد على تغييره، بخلاف غيره من الكتب الإلهية فإنّه يقدر المعاند على التغيير والزيادة والنقص فيها[2]، وعليه يمكن القول أنّ تعريف الأمير عبد القادر للقرآن ينضم إلى التعريف التقديسي للوحي.

تحدّث الأمير عبد القادر في كتابه ((المقراض)) عن القرآن العظيم، فجعله الحجة التي أثبتت مصداقية نبوّة محمّد صلى الله عليه وسلّم، ومعجزته التي خرقت العهود من أغراض القول وفنون الكلام، والآية البينة التي لم

[1] – محمّد الطاهر عزوي ،تصوّف الأمير عبد القادر، مجلّة مسالك، ديسمبر 1998، العدد 3، ص88.

[2]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، مرجع سابق، ص 84.

يصمد في وجهها جحود، على أنّنا وجدناه من جهة ثانية يوسع تعريفه للقرآن فيربطه بظاهرة النسخ، بحيث اختص وحده من الكتب السماوية بظاهرة الناسخ والمنسوخ*، وما ذلك إلاّ لأنّ القرآن تنزّل على مدى متدرّج[1].

تعريف الأمير عبد القادر للقرآن لا يخرج عن إطار القراءات التبجيلية، كما يرى ذلك كل من أركون ونصر حامد أبو زيد، إذ يرى أن القرآن هو كلام الله المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي أعجز به قريش أن يأتوا بمثله في الفصاحة والبيان والترتيب والتنظيم، رغم أن عرب الجاهلية في ذلك الوقت تميزوا بفصاحتهم، فالقرآن هو معجزة الله لعباده كما أن فحواه يخبرنا عن العديد من المعجزات، ومعنى تسمية ما جاءت به الرسل معجزة هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها، وهي على ضربين: ضرب هو من نوع قدرة البشر فعجزوا عنه، فعجزهم عنه دالّ على صدق الرسل كعجز العرب وسائر الناس على الإتيان بمثل القرآن، وضرب هو خارج عن قدرتهم فلم يقدروا على الإتيان بمثله كإحياء الموتى لعيسى وقلب العصى حية لموسى[2]، يعرف الأمير عبد القادر المعجزة على أنها ما لا يقدر البشر على الإتيان بمثلها، والمعجزة هي التي تجعل القوم يؤمنون لأنها تأكد على وجود القادر الكامل.

وقد انتقل الأمير عبد القادر من حالة الفهم الظاهري للقرآن إلى حالة الغوص في أعماقه وقراءته بطريقة صوفية، إذ يرى أنّه لا تأويل قلبي دون رياضة لكن هذه الأخيرة لا تنفي صفات النّفس، حيث يرى الأمير عبد القادر أنّه " ليس المراد من الرّياضة انعدام صفات النفس كالحسد والبخل والغضب ونحوها، فحقيقة الإنسان

*نزول القرآن بالترج على حساب الوقائع فكانت الآية تنسخ الأخرى.

[1]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، مرجع نفسه، ص80، 88.

[2]– الأمير عبد القادر، المقراض الحاد، مرجع سابق، ص 155، 156.

معجونة بهذه الصفات، إذ لو انعدم الحسد مثلا ما كان تنافس في الفضائل، فالمراد أن تكون النفس تحت حكم الشرع، فصفات النّفس إنّما هي مذمومة في موطن وحال، ومحمودة في موطن وحال آخر[1].

ومنه يمكن القول أنّ الجهاد الأكبر هو تخلية النّفس من الصفات الشهوانية الحيوانية التي يحرّمها الشرع، والتحلّي بمكارم الأخلاق المشروعة والتي تدعونا إليها ديانتنا، وهذا النوع من الجهاد أو النزعة الصوفية هي التي ينتمي إليها الأمير عبد القادر.

إنّ الأمير عبد القادر لم يكن مُغاليا في زهده، بل هذا الأخير يتماشى وفق ما نصّت عليه الشريعة الإسلامية، فهو لا ينكر مثلا عاطفة الحبّ المشروع، ومع انضباطه في سلوكه وروعه، لا يجد الأمير عبد القادر حرجا من وصف عاطفة الحبّ وتأثيرها في النفوس بقوله:

يا صاح أنصت لأخبار الهوى حاشا لمثلك أن أقول ولا يعي

إنّي أحدّث بالهوى بغرائب وعجائب حتّى كأنّي الأصمعي[2]

بمعنى أنّ عاطفة الهوى هي أمر واقعي لا يمكن إنكار دورها على التأثير في نفوس البشر، فهي كثيرا مثلا ما تكون منبع أروع القصائد، لكن ما ينبغي الإشارة إليه أنّ الأمير عبد القادر ينادي بالعواطف المحمودة المشروعة لا الممنوعة شرعا فمثلا هو يقر بحب الزوج لزوجته وممارسة رغباته الجنسية معها لكن ذلك ممنوع بين عشيقين ليس بينهما علاقة زوجية.

[1]. أحمد كمال الجزار، المفاخر في معارف الأمير الجزائري عبد القادر والسّادة والأولياء الأكابر، المطبعة العمرانية للأوفست، الجيزة، ط1، 1998، ص141.

[2]– ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 183.

كما ترسّخت، في نظر الأمير عبد القادر وفكره، ثنائيّة الظاهر والباطن، إذ لكلّ خارج داخل، ولكلّ واجهة خلف ولكلّ سطح عمق حيث يقول:

لئن كان هذا الرّسم يعطيك ظاهـري فليس يريك الرّسم صورتنا العظمى

فثمّ . وراء الرّسم . شخص محـجب له همّـــة تعلو بأخمصها النجما

وما المرء بالوجه الصبيح افتــخاره ولكنّه بالعـــقل والخلق الأسمى[1].

من هذه الأبيات، نفهم أنّ ما هو مهمّ في حياة الإنسان ليس صورته الخارجية، لأنّ المظهر الخارجي تختفي وراءه صورة داخلية، هي ما يمثل فعلا حقيقته، فالرّوح هي التي ترتقي إلى العالم الآخر، لتعود إلى مسكنها أي الجسد، مُلهمةً بالمعنى الحقيقي للنص القرآني، الذي يعد هو الآخر حاملا لمعنى ظاهري وآخر باطني.

يؤكد الأمير عبد القادر، أنّ العارفين بالله، يرون الأمور على حقيقتها، فهم يعرفون ما لا يعرفه غيرهم، لأنّهم يتميّزون بصفاء النّفس، والوصول إلى هذه المرتبة من تزكية النفس وترقيتها في درجات المعرفة يرقى بالإنسان إلى مرتبة العارفين بالله، ولما يحظى الإنسان بهذه المرتبة الشريفة تتبدّى له الأشياء على صورة أخرى، وهي صورة الحقيقة والكمال، هنا في هذه اللحظة المثيرة، تعظُم غبطة الإنسان الصوفية ويفارق حينها صورته الإنسية، لأنّها اللحظة التي تَتَلَبَّس فيها صورة الخلق بصورة الحقّ[2]. سيكون تبعا لذلك، الطريق الصوفي هو الأنسب للوصول إلى الحقيقة المطلقة.

[1]. نزار أباضة، الأمير عبد القادر الأمير عبد القادر العالم المجاهد، مرجع سابق، ص31.

[2]– ملاح أحمد، الأمير عبد القادر المتصوّف والمصلح، مرجع سابق، ص 38.

يرى الأمير عبد القادر أنّه قبل أن يكون متصوفا كانت له قراءة خاصة للقرآن الكريم وكان يعتمد في فهمه له على تفسيرات القرآن الكريم ويسترشد بآراء أهل الاختصاص كالأئمة والفقهاء لكن بعدما صار صوفيا أصبحت له قراءة أخرى جديدة للقرآن الكريم فلم يعد يعتمد في فهمه على الآخرين بل اعتمد قلبه وذاته الباطنية لاستكشاف كنه معانيه، بل أكثر من ذلك أصبح مؤولا لآياته، بما توفّر عليه من رقيّ روحي وتجهيز معرفي.

وتصوف الأمير عبد القادر هو تصوف سني أي لا يخرج عن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، إلا أن تأويل الأمير عبد القادر للقرآن الكريم هو يختلف عن قراءة سابقيه إلا أنه لا يخالفهم، إذ يرى محمد أركون في هذا الصدد أنّ كلّ جيل لاحق تسمو معارفه عن الجيل السّابق نتيجة التقدّم الزّماني، ففي كلّ عصر جديد يتجدّد ويرتقي مستوى فهم المعاني القرآنية، نتيجة الاستفادة من القراءات السابقة، والظروف والمشاكل الجديدة التي يطرحها العصر، فهل نحن اليوم مُلزمون بأوّل فهمٍ للقرآن، وهل كلّ قراءة جديدة هي تطوير للقراءة السابقة عنها أم أنّها تنفيها؟

كان الأمير عبد القادر متمكّنا في دينه ولهذا كان يُرجع إليه لفهم الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، إذ أنّه في حالة عجزه كان يسلّم أمره لله وينتظر منه الإلهام ليعرف الحقيقة ويفيد غيره بها، وكان بيته في دمشق مركز اجتماع أعيانها لمناقشة المسائل الهامّة وموئل العلماء، وكانت له فيه جلسة خاصّة مع كبارهم يفسّر فيها من الآيات الكريمة والأحاديث الشّريفة وأقوال السلف الصالح، وكان لا يرد عليه إشكال من آية أو حديث أو غير ذلك إلاّ وأجاب عنه بأحسن جواب بفتح الملك الوهّاب[1]، إذ عُرِف بوَلعه بالعلم، إذ جعل بيته مكتبة اجتماع لمناقشة قضايا علمية ودينية مع كبار العلماء.

1- نزار أباظة، الأمير عبد القادر العالم المجاهد، مرجع سابق، ص 32.

إذا شككنا في حقيقة وجود كتاب المواقف للأمير عبد القادر، فإننا نشكك في أن الأمير عبد القادر رجل متصوّف، إذ ترى الأميرة بديعة حسني الجزائري أنّه طبع كتاب المواقف عام1911م، وإذا بحثنا عن حال مصر في تلك الحقبة نجد أنّها كانت تعيش في خضم الاحتلال البريطاني، وأنشطة التبشير وتشويه الدين الإسلامي من قبل القساوسة والمبشرين أمثال ويلكس البريطاني، وأكبر أبناء الأمير، محمد باشا، "كان يتيه فخرا بكتاب ضخم يُنسب إلى والده، ولكنه لم يقدّم أيّ دليل على نسب الكتاب لوالده وربّما لم يطلع على ما جاء فيه وإنّما تصفّحه فقط"[1]، لقد رفضت الأميرة بديعة حسني الجزائرية، الموقف القائل أن كتاب المواقف هو للأمير عبد القادر، حيث اعتبرت أن الأمير عبد القادر، لم يقم بكتابته ولم يأمر بطبعه، وكل ما هناك أن المروّضين للأفكار الخاطئة والمشوّهين للإسلام هم من فعلوا ذلك، حيث احتوى على مواقف هي بعيدة عن إيمان الأمير عبد القادر المسلم ومستواه الفكري واللغوي وكذا دين الإسلام، فقد طبع الكتاب في المطبعة المصرية، إذ كانت مصر تعيش الاحتلال البريطاني وبالتالي لابد وأنّ الذهنية المصرية كان يسيطر عليها الذين من بين أهدافهم تضليل المسلمين، فاعتمدوا على كتاب المواقف، وقالوا فيه ما قالوا ونسبوا أقوالهم للأمير عبد القادر، والأغرب ما في الأمر أيضا هو إعجاب الابن الأكبر للأمير عبد القادر بنسبة هذا الكتاب إلى والده دون فهمه لحقيقة هذه النسبة، هذا من جهة ومن جهة أخرى، عدم فحصه وتمحيصه لكتاب المواقف والدراسة والتحليل والنقد، لكن إلى أيّ مدى يمكن الاقتناع بموقف بديعة حسني؟ وهل أدلتها تؤكد أن كلّ الكتاب ليس للأمير عبد القادر أم بعضه فقط؟ وما البراهين التي اعتمدها حتى تجعلنا نقتنع أن طباعة كتاب المواقف هو عمل تبشيري بالدين المسيحي وتشويه للإسلام؟

يمكن القول، إذن، أنّ كتاب المواقف يعتبر بأجزائه، المرجع الذي يدل على قدرة الأمير عبد القادر في تأويله لبعض الآيات القرآنية، لكن ما ينبغي الإشارة إليه هو أن هذه القدرة لم تكتمل أو بالأحرى لم تتجلى

[1]– الأميرة بديعة حسني الجزائري، فكر الأمير عبد القادر حقائق ووثائق، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 2000، ص 179، 180.

بوضوح إلا بعد أن قرأ كتب الصوفية وخاض تجربة صوفية أي بعد التحلي بمكارم الأخلاق وتطهير القلب والتخلي عن ما نهانا عنه ديننا الإسلامي، وبهذا تمكن من كشف حقيقة بعض النصوص الدينية ولاسيما القرآنية، لتصلنا هذه القراءة من خلال كتابه "المواقف" فخرجت من أناه الجوانية إلى الآخر، وهذا الأخير عند الأمير عبد القادر ليس هو الأنا المسلم فقط وإنما هو الإنسان في كل زمان ومكان، وما جعل أيضا عمله التأويلي يمكن وصفه أنه قراءة فلسفية عالمية هو أن الأمير عبد القادر هو شخصية عالمية وتصوفه عملي، فأفكاره التأويلية لم تكن ناجمة عن تجربة الزهد عن الدنيا بكل ما فيها والهروب من الواقع، وإنما هي تعالج وترتبط بالواقع الاجتماعي العام مثال: ممارسته أفكاره التأويلية في تسييره السياسي والعسكري ومبادراته في الصلح.

المبحث الثاني

نماذج لتأويلات الأمير عبد القادر

تعود الإرهاصات الأولى لتأويل الآيات القرآنية للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، معتمدا في ذلك على الوحي من الله، وقد نجد الصحابة والتابعين قد اجتهدوا أيضا في تقديم شرح وفهم للآيات القرآنية، وقد سمح لهم الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته بذلك، كابن العباس الذي دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفقهه الله في الدين ويعلمه التأويل.

اعتمد الأمير عبد القادر على القلب (التصوف) كطريق للوصول إلى الكشف عن خبايا الآيات القرآنية، لكن إذا كان التصوف تجربة شخصية ذاتية يعيشها المتصوف فكيف ساهمت هذه التجربة عند الأمير في تأسيس قراءة فلسفية عالمية لبعض الآيات القرآنية؟

أول الأمير عبد القادر للنص القرآني:

يقول الأمير عبد القادر: "كنت ليلة بالمسجد الحرام متوجّها للذّكر وقد نامت العيون، فجلس بالقرب منّي يمينا وشمالا أناس وجعلوا يذكرون الله تعالى فخطر في قلبي أيّنا أهدى سبيلا، فبعد الخاطر بقريب أخذني الحقّ تعالى ثمّ ألقى إليّ قوله تعالى: ((**بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ**)) سورة سبأ: الآية 41[1]، فمن خلال قراءتنا لهذه السّطور نتساءل كيف أنّ كلاّ منهما كان يذكر الله تعالى في نفس المكان والزّمان لكن هؤلاء الناس لم تكن عبادتهم خالصة لوجه الله تعالى عكس الأمير عبد القادر؟

يجيبنا الأمير عبد القادر أنّ الفرق بينهما يتمثّل في: " أنّ عبادتهم كانت مشوبة بأغراض نفسية وحظوظ شهوانية، وأقول تبعا للمحقّقين من أهل الله أنّ كلّ من عبد الله تعالى خوفا من النّار وطلبا

[1]- أحمد كمال الجزار، المفاخر في معارف الأمير الجزائري عبد القادر والسّادة والأولياء الأكابر، مرجع سابق، ص68.

للجنّة... فهذه كلّها أعمال ليست بمقبولة إلاّ بالفضل والمنّة"[1]، فهــذه العبادات غير مقبولة لأنّها مرتبطة بغايات نفعية مرجوّة محدّدة تصبح شريكة لله، فهي ليست خالصة لوجه الحقّ وحده، لكن السؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا هو أنّه إذا كنّـا نخافه ونؤمن بتسييره هو لحياتنا وعجزنا نحن فإذا أكثرنا من الصلوات للدعاء لأنفسنا بأمور دينية ودنيوية، فهل هذا يعني أنّنا أشركنا به؟

هذا يعد في رأي الأمير عبد القادر شرك، لأنّه يطلب من المسلمين العمل لنيل رضا الله لا رضا أنفسهم، ومن عمل من أجل نفسه لا من أجل الله، فقد عبد نفسه ولم يعبد الله، فالله أمر بالعبادة لوجهه لا لغرض، لكن النفس الشهوانية زحزحت النّاس عن مقام الإخلاص وجعلتهم يعبدون الله من أجل شهواتهم الأخروية[2]، ومنه نفهم أنّ دعوة الله حتى من أجل فوزنا بالجنّة في الآخرة هو شرك، لأنّنا بذلك نكون قد عبدنا وقدّسنا مصالحنا، ولم نعبد الله وحده لا شريك له.

وقد ألهمه أيضا الله في الموقف5 معنى الآية: ((**إِنَّمَا قَوْلُنَا لشَيْء إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَه كُنْ فَيَكُون**)) سورة البقرة: الآية 17 إذ فتح الله على الأمير عبد القادر على أنّ معنى الآية هو"وأمره بالكون فينا، كان شئنا أم أبينا... فــالإرادة نوعان: إرادة متعلّقة بالفعل نـفسه، فهذه نافذة الوقوع، وإرادة متعلّقة بالفاعل أن يفعل فـهذه غير نافذة التحقق إلاّ إذا جامعتها الإرادة الأخرى"[3]، فالحق تعالى إذا قال لشيء كن فيــحدث ويصبح له محلّ في الواقع، أمّا الإنسان إذا أراد شيئا أن يكون، فلن تتحقق هذه الكينونة إلاّ إذا شاء الله.

[1]–أحمد كمال الجزار، المفاخر في معارف الأمير الجزائري عبد القادر والسّادة والأولياء الأكابر، مرجع نفسه، ص68.

[2]– أحمد كمال الجزار، المفاخر في معارف الأمير الجزائري عبد القادر والسّادة والأولياء الأكابر، مرجع نفسه، ص 69.

[3]– الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف،ج1، مرجع سابق، ص 114.

يرى الأمير عبد القادر أنّ قوله تعالى ((**وَأَمَّا بنعْمَة رَبّكَ فَحَدّثْ**)) سورة الضحى: الآية 11 المراد بها التحدّث بالنّعم وإنشاؤها وبثّها لمستحقّيها المستعدّين لقبولها، إذ "ما كلّ علم يصلح لكلّ النّاس، ولا كلّ النّاس يصلح لكلّ علم، بل لكلّ علم أهل لهم استعداد لقبوله"[1]، فالتأويل لا يصلح إلاّ للمتصوفة، وعلى الصّوفي أن يتحدّث بنعمة الله عليه، ورؤيته للحقيقة، لكن علينا أن نُفرّق بين إخبار العوام بالنّعم دون استيعاب مضمونها، وبين سماع الخبر وفهمه من طرف الخاصّة وهم المتصوفة، بمعنى آخر، إنّ المتصوف يخبر العامي أنه يوحى إليه بحقائق، لكن لا يُخبره بمضمون تلك الحقائق التي يوحى له بها.

وأمّا الآية 122 من الأنعام ((أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي به فِي النَّاس كَمَنْ مَثَله فِي الظُّلُمَات))، فالمقصود بها في رأي الأمير عبد القادر أنّه لا نور إلاّ العلم بالله تعالى، ولا حياة إلاّ به، ولا موت ولا ظلمة إلاّ الجهل بالله تعالى والغفلة عنه[2].

ناقش الأمير عبد القادر في تأويلاته الصوفية الكثير من القضايا الفلسفية ولاسيما منها مرتبة الإنسان الكامل، هل هي خاصة بالرجال فقط؟ يجيبنا الأمير عبد القادر عن هذا الإشكال من خلال تأويله للآية التالية: ((**وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ**)) التحريم الآية 4، والخطاب لعائشة وحفصة، جعلا الله لهما المكانة الكبرى حيث جعل الله تعالى نفسه في مقابلتهما نصرة للرسول صلى الله عليه وسلم مع جبريل وصالح المؤمنين وجميع الملائكة... فإن الكمال يكون في النساء، فليس الكمال خاصا بالرجال[3]، إن ألف التثنية في الفعل تظاهرا تعود على عائشة وحفصة زوجتا الرسول، حيث أن الآية ترفع من مكانتهما، فجعل الله نفسه والملك جبريل وكذا كل

[1]- الأمير عبد القادر، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج1، مرجع سابق، ص 158.

[2]- الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف في بعض إشارت القرآن إلى الأسرار والمعارف، ج1، مرجع سابق، ص 129.

[3]-الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، ج2، مرجع سابق، ص 3.

الملائكة الآخرين والأصلح من الناس كلهم مجتمعون لنصرة رسول الله، كما أن مرتبة الإنسان الكامل هي ليست خاصة بالرجال فقط ومنهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما هي أيضا خاصة بالنساء، وسبب ذلك تعتبر أمة الله من صنف الإنسان، فهي تملك الاستعداد والقابلية للتأثر بالفعل الإلهي، وبذلك هي تجلّي لاسم من أسماء الله، وهذه المكانة للمرأة لا تتمتع بها الملائكة.

ومن بين ما أوّل أيضا نجد الآية الأولى من سورة الحجر، حيث يقول تعالى: ((**آلَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ**)) يؤول الأمير عبد القادر هذه الآية كالآتي: ليس المراد من تسمية الكلام القديم بالقرآن كونه جامعا للحروف والكلمات والآيات والسور فقط، بل لكونه جامعا للمعلومات الإلهية متضمنا لها، عرف ذلك من عرفه وجهله من جهله، إذ كلامه حقيقة واحدة أظهر بها معلوماته التي لا نهاية لها، والقرآن الكريم قديم مبين لها وكاشف عنها، فإن حقيقة البيان دليل يحصل به الإعلام فيفهم من فتح الله عليه في فهم القرآن ما قُدّر له حسب استعداده[1].

يكشف لنا الله، من خلال كتابه، عن الحقائق الإلهية لمن يملك الاستعداد، ولهذا يسمي الأمير عبد القادر كتابه، الذي أول فيه الكثير من الآيات القرآنية، بالمواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار.

ونأخذ أنموذج آخر من تأويلاته حول موضوع الذات الإلهية في قوله تعالى: ((**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ**))، سورة محمد: الآية 19، ومعنى ذلك، أنه لا يستحق العبادة والاتصاف بصفات الإله إلا الذات المسمى بالله، والحقيقة المسماة بالله واحدة، ولكنها تظهر بما لانهاية له من الصور فهي واحدة كثيرة، ولها في كلّ مظهر وجه خاص ولا يستحق العبادة من تلك الوجوه المظهرية إلا الذات الإلهية... الغيب المطلق الذي لا صورة له ولا يُعرف منه إلا

[1]–الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، مرجع سابق، ص 1277.

وجوده لا غير من حيث اتصاف الألوهية، وما يعده المتكلمون من علماء الرسوم معرفة، هو إلى الجهل أقرب منه إلى المعرفة[1].

إن العابد الحقيقي هو الذي يعبد الله وحده لا شريك له، والمقصود بالله هو الذات المطلقة غير المحدودة بزمان ولا مكان، وليس لها وجود معين، ولا شكل محدّد، فكل موجود ما هو إلا مظهر من مظاهر الذات المطلق، فعباد الله ما هم إلا مظهر له، والشمس ما هي إلا مظهر له وقس ذلك على باقي الموجودات.

كما أول قوله تعالى: ((**أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**))، **سورة الأعراف: الآية 172**، أي كراهية أن تقولوا إنما أشرك آباؤنا فاقتدينا بهم. فقوله: إن رآني منه فمني أراه، يرى أنّ الحق تعالى يرى عبده من رؤيته لذاته، فإنّ حقيقة العبد هي التي يرى الحق فيها أسماؤه أو ذاته فتعينت بأسمائه، وكذلك العبد يرى الحق من رؤيته لذاته فإنه ليس غيرا للحق تعالى وإنما هو هو ظهور للحق ومظهر لله تعالى، فالعبد يرى الحق من رؤيته لنفسه لأنه وجوده وحقيقته التي بها هو هو[2]، إذن إن الله تعالى يوم القيامة يسأل الكفار لماذا كفرتم بالله؟ فيجيبون أنهم وجدوا آباءهم كفارا فكفروا مثلهم، والله يرفض هذه الإجابة لأن الحقيقة موجودة فينا ولا نحتاج لآبائنا حتى نعرفها، فالعبد يعرف أنه اسم لله، والله يعرف أن عبده ما هو إلا تجلي له.

وما دام الإنسان أصله الإمكان، والإمكان لا وجود له من نفسه، فإن ادعاء الوجود هو خروج عن الحقيقة، وبالتالي باطل وجب رفعه بالتزكية أي إلجام النفس عن دعوى الوجود والاستقلال، إذ حقيقتها

[1]- أحمد كمال الجزار، مختصر كتاب المواقف الروحية والفيوضات الروحية للأمير عبد القادر الجزائري، الهيئة المصرية، مصر، د (ط، س)، ص 58.

[2]- الأمير عبد القادر، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج3، ص 1392.

الفقر وجوديا وصفاتيا وفعليا أما الغنى فهو لغيرها اللائق بالكمال، ثم إنه لا ثاني للعلم ولا ثاني للقدرة، ولا شريك للحق وجودا وصفة وفعلا[1].

إن النفس الإنسانية فقيرة من حيث الوجود والصفات، أما الذات الإلهية فهي عكس ذلك تماما، إنها غنية من حيث الوجود والصفات، فلا وجود إلا له تعالى ووصف الإنسان بذلك يعني الشرك بالله، لأن في ذلك تشبيه للذات الإلهية بالذات الإنسانية.

وكأنموذج آخر من تأويلاته للنص القرآني، نجد في قوله تعالى: ((**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُون**))، سورة الزخرف: الآية 44، وفحواها أن القرآن ذكر لك- أي الرسول صلى الله عليه وسلم - ولقومك أي أمّتك... وجه ثاني للآية: وأنه مذكر لك ولقومك بالعهد القديم - يوم قال لهم الله - (ألست بربكم)، وجه ثالث: وأنه لذكر لك ولقومك العرب، فإنه نزل بلسان عربي مبين، وجه رابع: واعظ، والقرآن أعظم واعظ، وجه خامس: شرف لك ولقومك العرب[2]

لقد أدرك الأمير عبد القادر أن القرآن قابل للتأويل، بل إن الآية الواحدة يمكن قراءتها بأوجه متعددة حتى بالنسبة للشخص نفسه، فمثلا الآية 44 من سورة الزخرف، يقصد بها أن القرآن أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم والتابعين له حتى يعتبروا، حتى يفكر محمدا وأهله بالتوراة التي أُنزلت على سيدنا موسى عليه السلام، كما أنزل بلغة قريش حتى يفهموه ويبين لهم أنه خاص بهم، ولقد فضل الله محمد وقومه بالقرآن بما أنّه أنزل عليهم.

[1]- رزقي بن عومر، قضايا في التصوف الجزائري، مرجع سابق، ص 51.

[2]- أحمد كمال الجزار، مختصر كتاب المواقف الروحية والفيوضات الروحية للأمير عبد القادر الجزائري، مرجع سابق، ص 65.

ومن تأويلاته حول موضوع قدرة المتصوفة على إخراج الأسرار الإلهية لغير مستعدّيها، ((**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا**)) سورة النساء: الآية 5،" هذه الآيات تأديب للشيوخ المرشدين، والسفيه هو الذي يبذّر الأسرار الإلهية حيث هي المال المعنوي الذي تميل إليه الأرواح وهو قوام وحياة للأرواح فلا يجب على الشيوخ بذل الأسرار للمريد المبتدئ فإنها تهلكه... وكتب القوم مشحونة بالتحذير من الحديث عن الحقائق لمن ليس من أهلها والشيوخ أصحاب الأذواق لا ينطقون بهذه الأسرار، أما من أخذها من الكتب دون ذوق فإنّه يتكلم بها في المجالس العامّة"[1].

إن الغنى الأسمى والأفضل هو غنى الروح لا الغنى المادي الدنيوي، والأبله هو ذلك المتصوف الذي يبوء بالحقائق والأسرار الغيبية لمن ليس بأهل لها، أو لذلك المريد المبتدئ الذي هو في بداية سعيه لتحقيق المعرفية اللدنية، فهو لم يملك بعد الاستعداد الروحي لتلقيها، وبسبب ذلك لا ينبغي قول له حقائق إلهية لا تتفق مع مرتبته، فالأبله مثله مثل من اعتمد في ففهمه للقرآن على العقل ثم حاول إيصال هذا الفهم إلى الطبقة العامية .

وبالرجوع إلى الآيتين القرآنيتين التاليتين: ((**صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ** تَصِيرُ الْأُمُور)) سورة الشورى: الآية 53. وقاله تعالى: ((**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**))، سورة الأنعام: الآية 60، نجد الأمير عبد القادر يؤولهما بالشكل التالي، وهو أن معنى هاتين الآيتين في رأيه هو أنّ رجوع الأمور والمخلوقات إلى الله يكون بعد القيامة بعد فناء المخلوقات ومن مات فقد قامت قيامته

[1]– أحمد كمال الجزار، مختصر كتاب المواقف الروحية والفيوضات الروحية للأمير عبد القادر الجزائري، مرجع سابق، ص 138 .

والموت إما اضطراري وهو المعروف أو اختياري وهو موت القوم بالمجاهدات، الذي يؤدي إلى الرجوع إلى الله، وقد روي أحمد في مسنده، أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا، والموت الاختياري أعلى في هذا الشأن من الموت الاضطراري[1] ، فالموت نوعان، الأول فناء الجسد وانتهاء الأجل، أما الثاني هو قتل الإنسان النفس الأمارة بالسوء ومجاهدتها والتخلي عن المذمومات والالتزام بقوة الإرادة في تحقيق ذلك، والتحلي بمكارم الأخلاق.

يؤكد الأمير عبد القادر أنّ المقصود من قوله تعالى: ((**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ**))، سورة النحل: الآية 126، الصبر خير وفيه عوض وخلف لما فقده الإنسان الصابر، ولابد في الصبر من التألم النفسي الطبيعي، ولا يندفع إلا بحال إلهي يُنسي النفس هذا الألم، أما التألم الروحاني فالإنسان يقدر على دفعه، و يُورّث ذلك الرضا والسرور، واعلم أن كل ما ينزل بالإنسان من الحقائق الغيبية فهو ملائم له، لكن القوابل هي التي تشعر بالشر وأخبر الله العباد أن الصبر على فقد الصحة والمال والولد، يعطيهم تأييد الله وهو خير لهم مما فقدوه[2]، فالصبر هو قدرة يمنحها الله يُعوض بها الإنسان على ما منعه من النعم، حيث أن الإنسان رغم أنه فاقد لأمر من أمور الدنيا إلى أنه هو يرضى بذلك، لأن هذا الإنسان مدرك أنه لم يتحصل على أمر دنيوي زائل، إلا أنه وجد الله.

أول الأمير عبد القادر الأحاديث النبوية:

لم يؤول الأمير الآيات القرآنية فقط، بل أوّل أيضا الأحاديث النبوية، مثل ما ورد في صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال: ((أَنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللَهَ وَأَتُوبُ إِلَيْه فِي اليَوْم أَكْثَرْ منْ مائَة

[1]. أحمد كمال الجزار، مختصر كتاب المواقف الروحية والفيوضات الروحية للأمير عبد القادر الجزائري، مرجع نفسه، ص174.

[2]. أحمد كمال الجزار، مختصر كتاب المواقف الروحية والفيوضات الروحية للأمير عبد القادر الجزائري، مرجع نفسه، ص 173.

مَرَّة))، فاعلم أن الغين هو التغطية واللبس، وأنه صلى الله عليه وسلم كان يغلب عليه أحيانا شهود عظمة الربوبية وما تقتضيه الألوهة من لوازم العبودة، ثم ينظر إلى ضعف العبد وعجزه، ويرى صلى الله عليه وسلم عند هذا الشهود شيئا عظيما لا تطيقه البشر، من حيث هي بوجه ولا حال فيستغفر الله.[1]

كان محمد صلى الله عليه وسلم يشعر بالغُبن، نتيجة لإدراكه حقيقة جلالة الله وعظمته وتقديسه، فيجد نفسه مهما أدى من العبادات فإنها تبقى غير كافية على الأقل لشكر الله على نعمه وأدائه لواجباته اتجاهه، بالإضافة إلى عجزه عن جعل كل الناس المرسل إليهم يُسلمون، فالناس أنواع بل يمثلون الأضداد، فمثلا منهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم المتخلق واللامتخلق، فلا يجد ما يفعل في هذه الحال إلا استغفار الله.

ومن بين المسائل التي نظر فيها الأمير عبد القادر نجد مسألة أهل القرآن، فمن هم أهل القرآن، وما المقصود بهذه العبارة؟

ورد في الحديث: ((أهل القرآن أهل الله)) رواه الحاكم في مستدرك النسائي، وابن ماجه، وفي بعض الروايات: ((حملة القرآن أهل الله)).

المراد بأهل القرآن أهل التوحيد الخاص، أصحاب تجريد التوحيد ومقام التغريد، وأهل التوحيد هنا القريبون منه القرب المعنوي، وهم أنصار الله الملبّون دعوته، المستجيبون إلى طاعته، وهو مقام النبوّة والولاية الكمالية، والقائمون به هم الدّاعون إلى معرفة الله تعالى وتوحيده على طريقة الصوفية، أهل الحقيقة والسلوك إلى الأحوال من الفناء والبقاء والسكر والصحو ونحوها[2]، أقرب المقربين إلى الله تعالى هم أهل

[1]. الأمير عبد القادر الحسني الجزائري، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، ج 2، مرجع سابق، ص22.

[2]– الأمير عبد القادر الحسني الجزائري، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج1، مرجع سابق، 357.

القرآن، والمقصود بهم أنّهم هم من وحّدوا الله حق وحدانيته قولا وعملا، وهؤلاء هم المتصوفة والعرفانيون الذين أدركوا الحقيقة الربانية، وحققوا ذلك من خلال مجاهدة النفس وقد انتهجوا مناهج متعددة في سيرهم الصوفي فمنهم من اعتمد على السكر حيث أن النفس تفقد ذاتها لتذوب في الحق، ومنهم من اعتمد الحلول والفناء.

وقد ورد في بعض الأحاديث الربانية: ((**يَا دُنْيَا تَضَيَّقي وتَمَرَّري عَلَى أَوْلِيَائي حَتَّى يحنوا إلَى لقَائي**))، إذ يرى الأمير عبد القادر أن الدنيا شاغلة عن خدمة الله إلا من رحم ربك، "كسليمان عليه السلام والكمل من أولياء الله تعالى الذين كانت الدنيا في أيديهم لا في قلوبهم، وفي ظاهرهم لا في باطنهم، فتصرفوا فيها تصرّف المستخلف لا تصرف المالك، ومع هذا فقد ورد أنّ سليمان عليه السلام يدخل الجنة بعد الأنبياء أربعين سنة، وورد أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يدخل الجنة حبوا"[1].

إنّ الذين يفضلهم الله تعالى ويكرمهم هم الذين لا يحقق لهم مطالب الدّنيا، وأغلب الناس قد غوتهم الدنيا والدينار وجروا وراءها، وحسبوا أنّهم أرباب الأرض إلا فئة قليلة من عباد الله نذكر منهم الرسل والأنبياء والصالحين، فهم الذين أدركوا وعرفوا حق معرفة أن الحياة الدنيا زائلة وما هي إلا طريق عبور للحياة الدائمة وفهموا أن الله استخلفهم في الأرض، ونجد منهم الأمير عبد القادر.

كان الأمير زاهدا، يرفض زهو الدنيا ومالها، فقد كان رجل سياسة، ولم يرتدي الملابس الفخمة، وكان يسكن الخيمة، بل كان يصرف أملاكه في خدمة الوطن، وما ينبغي الإشارة إليه أيضا هو أنّه لم يرض أن يكون أميرا وإنما المهمة فرضت عليه، هذا من جهة ومن جهة أخرى كان يشاور من كان يسوسهم فهم لم يكن يحسب أن الجزائر ملكا له، فكبح النفس الطامعة في الدنيا ليس بالأمر السهلّ كما أن هناك من

[1]– الأمير عبد القادر الحسني الجزائري، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج3، مرجع سابق، ص 1107.

الذين رضا الله عنهم لا يدخلون الجنة بسهولة ونجد منهم بعض الأنبياء وبعض الصالحين، وهذا إن دلّ إلاّ ويدلّ على أنّ ترويض النفس الطامعة في الدنيا، والفناء في الله ليس بالأمر الهين وهو على مراتب.

كما استشكل على الأمير عبد القادر شرح قول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((لكُلّ وَاحد منْهُمْ، يَعْني أَهْلَ الجَنَّة، زَوْجَتَان منْ نسَاء الدُّنْيَا، صحيح البخاري، فإنه "رأى النار التي يدخلها عصاة هذه الأمة، فرأى أكثر أهل ذلك المحل النساء من هذه الأمة، فليس المراد أنه رأى النار التي يدخلها كل من يدخل النار. فأُنظر لما سئل عن سبب ذلك؟ قيل: يكفرن بالله؟ قال: لا يكفرن الإحسان، فنفى عنهم الكفر بالله، الذي يستوجبن به الخلود في النار، ومن لم يكفر بالله فلا بد أن تذكره الشفاعة ويخرج إلى الجنة"[1].

إن الحديث، في رأي الأمير عبد القاد،ر لا يعني أن أكثر أصحاب النار النساء، وإنما يعني أن المكان الذي لاحظه الرسول من النار، النساء فيه أكثر من الرجال، ورؤيته تلك، لا تعني أنهم خالدات في النار، فالخالدون فيها هم الكافرين بالله فقط، فرآهم الرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم في تلك اللحظة كان الله يُعاقبهم على ذنوبهم، كما يؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم أن الرجل يوم القيامة يتزوج بامرأتين مما يعني أن النساء في الآخرة أكثر من الرجال.

وكما ورد في الحديث القدسي: ((مَا وَسِعَنِي سَمَائِي وَلا أَرْضِي ، وَلَكِنِّي وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ))، "فاعلم أن الأرض والسماء مع وسعهما لا يطيقان التجلي بجميع الأسماء الإلهية، والمؤمن يطيق ذلك والمراد المؤمن الكامل، الحاصل على رتبة الإطلاق عن الصفات والنعوت، فلا يكون مغلوباً بالاسم، ولا مقهوراً تحت حكم صفة، بل له الظهور بجميع الأسماء في الآن الواحد "[2].

[1]. الأمير عبد القادر الحسني الجزائري، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، ج 2، مرجع سابق، ص 221.

[2]. أحمد كمال الجزار، مختصر كتاب المواقف الروحية والفيوضات الروحية للأمير عبد القادر الجزائري،مرجع سابق، ص 153.

إن أسماء الله كثيرة ومتعددة، حيث أن كل الموجودات تعكس أسماء الله في السماء والأرض، لكن الإنسان الكامل هو الذي تتضح فيه كل الصفات دفعة واحدة وفي وقت واحد.

أول الأمير عبد القادر قضايا متنوعة:

أول الأمير عبد القادر أقوال الصالحين التي تحتوي على رموز، مثل: قول ابن عطاء الله السكندري إذ يقول: " لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين ومعنى ذلك أن النّفس حقيقة واحدة ولكن تعدّدت، بتعدّد صفاتها وتباين مقتضياتها، فيقال أمّارة ولوّامة وملهمة ومطمئنة، وما تحقق سير السائرين، كناية عن تبديل صفاتها البهيمية بالصّفات الإلهية، وأمّا محو الصّفات بمعنى زوالها بالكلية فهو غير واقع، لأنّها لو مُحيت لمِحيت النفس رأسا وانعدمت، ووصول إلى الله وصول محسوس وهم باطل، كيف يتوهّم السير والوصول إليه ، فإنّه لا مسافة بينك وبينه"[1].

لا يخفى علينا أنّ الدين الإسلامي يقسّم الأنفس إلى: مطمئنة، لوامة، أمّارة بالسوء، وما ينبغي الإشارة إليه هو أنّه لا يخلو كلّ كائن عاقل من هذه الأنفس الثلاث، لكن الفرق بين الناس هو في غلبة إحدى هذه الأنفس على الأخرتين، فمثلا المتصوف هو الذي يتغلّب على الشهوات السيئة، وإنّنا نقصد بذلك غلبة نفسه المطمئنة على اللوامة والأمّارة بالسّوء، وهذا نتيجة تعبّده وزهده.

تبعا لما سبق، يمكن أن نستنتج أن تأويل الأمير عبد القادر (الصوفي)، لم يقتصر على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، بل تعدى ذلك إلى تأويل أفكار ومفاهيم المتصوفة، وخاصة تلك التي تتعلق بمحي الدين ابن عربي، ونأخذ أنموذجا عن ذلك من خلال هذين البيتين لابن عربي.

[1]– أحمد كمال الجزار، المفاخر في معارف الأمير الجزائري عبد القادر والسّادة والأولياء الأكابر، مرجع سابق، ص ص104، 105.

يقول الشيخ محي الدين في عرض أبيات شعرية جاء فيها:

إن شاء الإله يريد رزقا له فالكون أجمعه غذاء

إن شاء الإله يريد رزقا لنا فهو الغذاء كما يشاء

يشرح الأمير عبد القادر البيت الأول بقوله هناك اختلاف في الصور التي يتجلى بها تعالى بتنوع الصور الإلهية، فتنتقل الممكنات من حال إلى حال، ثم يشرح البيت الثاني، بقوله كلنا معشر الكائنات رزقا وغذاء له[1].

يرى الأمير عبد القادر أن ابن عربي يحاول تبيين أن الموجودات ما هي إلاّ صور متعددة لله سبحانه وتعالى مهما اختلفت وتمايزت الموجودات عن بعضها البعض، فكل الوجود هو له، كما أن كل الموجودات ما هي إلا مُلكه، وقد كان للأمير عبد القادر اتصال روحي بابن عربي، ومن بين هذا الاتصال نجد تلقيه الروحي العرفاني لقول ابن عربي: "لا تشترط العصمة في رسول إلا فيما يبلّغه عن الله فإن عصم من غير هذا فمن مقام آخر وهو أن يخاطب الله العباد المرسل إليهم بالتأس يبه، يريد رضي الله عنه: أنّ العصمة وإن كانت ثابتة للرسول مطلقا فثبوتها من منزلين مختلفتين، فلا يثبت للرسول العصمة إلا فيما يبلّغه عن الله فقط، ولكن من مقام ومنزل آخر وهو أمر الحق تعالى المرسل إليهم بالتأسي بالرسول والاقتداء به، فإنّ العصمة هي المنع مما نهى الله عنه، وعرّفهم الحق نسبة كلّ شيء في العالم فهم يثبتون كل شيء من مقامه وبابه لا يُخلطون الحقائق"[2]، ومعنى ذلك أن العصمة للرسل، ليس فقط فيما بلغهم الله، بل في كل ما نهى الله عنه، فهم لا يخلطون الحقائق.

[1]- ملاح أحمد، الأمير عبد القادر المتصوّف، مرجع سابق، ص41.

[2]- الأمير عبد القادر الحسني الجزائري، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج 2، مرجع سابق، ص 881.

تعد مسألة ((المبشرات)) من بين ما أوله الأمير عبد القادر، ففي قوله تعالى: ((قُلْنَا اُحْمِلْ فيهاَ من كُل زَوْجَين اُثْنَين وَأَهْلكَ إلاَ من سَبَقَ عَلَيْه اَلْقَولُ وَمَنْ آمنَ))، سورة هود: الآية 40، أعلم أن كشف الأنبياء عليهم السلام صحيح وكذا مرائيهم، وإنما يدخل الخلل أحياناً نادرة فيها كوشفوا به، "فنوح عليه الصلاة والسلام وعده الله بنجاة أهله المؤمنين فحمل ذلك على العموم وأن ابنه من أهله فأعلمه الله أن المراد بأهلك المؤمنين خاصة "[1].

قدم لنا الأمير عبد القادر، تأويلا للكثير من المسائل التي تخص المرأة، ونجد منها إجاباته على أسئلة دوماس، يسأل دوماس فيقول: ((لماذا ترضى الحرة المسلمة لزوجها أن يتخذ الإماء؟ وكيف يتوصل المسلم إلى العدل والتسوية بين نسائه؟))، يجيب الأمير عبد القادر عن ذلك بقوله: "بأنّ النساء مادة تكثير السلالة، وسلامة الدين قد تقتضي تعداد الزوجات ثمّ يسوق الحجة الكتابية فيحصي الأنبياء التوراتيين الذين عددوا الزوجات"[2].

فسّر الأمير عبد القادر أيضا مسألة إباحة الإسلام بتعدد الزوجات، بأنّ الغرض منها هو زيادة النسل، أي تنمية الكثافة السكانية، مبينا لدوماس أن هذا الأمر هو موجود في الإسلام وموجود أيضا في المسيحية، بل إنّ حتى السيد المسيح عدد الزوجات، وهذا ما يدل على سعة اضطلاع الأمير عبد القادر، ثم سأله دوماس عن سبب تحجب المرأة المسلمة، فأجاب: "أنّ تحجب المرأة المسلمة، واحتجاب المرأة جاء استجابة لتحلل أخلاق المجتمع الإسلامي وابتعاده عن روح الاسلام، فالمرأة يجوز لها في الشرع أن تخرج لقضاء حوائجها بادية الوجه واليدين، ولما كثر الفساد وقلت المروءة وكثرت الفاحشة، صار أشراف الناس وأهل

[1]. أحمد كمال الجزار، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج2، مرجع سابق، ص 258.

[2]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، مرجع سابق، ص188.

البادية يأمرون نساءهم بتغطية وجوههنّ دائما، ويورد قول المسيح: إياكم والنظر فإنه يزرع في القلب الشهوة"[1]، فارتداء المرأة للحجاب هو ستر لمفاتنها حتى لا تتعرض إلى اعتداءات من طرف غير المتخلقين.

سئل الأمير عبد القادر عن سبب تقليد المسلمين، فأجابه أن المسلمين رأوا أن المسيحيين هم في قمة الحضارة*" فظنوا أنهم الأحسن، فقلدوهم في كل شيء، وفي الأخير يؤكد الأمير عبد القادر للسائل أنه علينا أن لا نسأل لماذا حدث هذا الفعل ولم يحدث فعل آخر، لأن أفعال الله ليست اعتباطية بل يسبقها علم وقدرة، وبالتالي أفعاله تعالى لا تحتاج إلى تعليل.

كما سُئل عن الطلاق، فأجاب، أنّ تشريعه أمر يُسعف الرجل والمرأة على تجاوز حالة الانسداد التي قد تطرأ على علاقتهما، فضلا عن كون شريعة الطلاق كانت قديمة وعرفها الكتابيون: الطلاق مباح في الأديان القديمة، وجاء في الإصحاح الحادي والعشرين من سفر الخروج: إن استقبح سيدها زواجها فليطلّقها[2].

سئل الأمير عبد القادر في مقام آخر: هل كل إنسان يمكنه أن يكون متصوفا وإنسانا كاملا؟ فكان جوابه أن كل إنسان يمكن أن يصل درجة التصوف ويكون متصوفا، فلكل إنسان قابلية للكمال الإلهي، لكن ليس لكل إنسان الاستعداد لذلك، "أنت مرآة الحق التي ينظر فيها، فاصقل مرآتك حتى يظهر الحق

---

[1]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، مرجع سابق، ص191.

*- **الحضارة:**

في اللغة: الحضرة قرب الشيء، والحاضر هو المقيم في المدن والقرى.(ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي كثير وآخرون، المجلد 2، دار المعارف، القاهرة، د (ط، س)، ص 907).

" هي جملة الظواهر الاجتماعية ذات طابع ديني وخلقي وإستطيقي تكتيكي أو علمي شائعة في جميع قطاعات مجتمع ما أو عدة مجتمعات فيقال مثلا حضارة عربية، صينية" (مراد وهبة وآخرون، المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ط2، 1971، ص 83). بمعنى خصائص مجتمع ما في الكثير من المجالات منها: السياسي، الاقتصادي، الديني، الأخلاقي.. وللحضارة جانبين: جانب محسوس أو ويمكن التعبير عنه بالتقنية والاختراعات العلمية وجانب آخر نفسي ونقصد به الجانب الثقافي للحضارة.

[2]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، مرجع سابق، ص192.

لك منك فيك وصقلها يكون بتجردك عما سوى الله ظاهراً وباطناً مع القيام بالشرائع وتفرغك له شهوداً ووجوداً حتى تفنى عن نفسك وعن العالم، فتعرف نفسك وتعرف الحق، وإذا رحلت عن هذه الدار دون هذه المعرفة فقد خسرت خسراناً مبيناً وكنت أنقص الناقصين"[1].

كل إنسان يمكنه الوصول إلى درجة الكمال الإنساني، لكن ما ينبغي الإشارة إليه هو ليس لكل إنسان القابلية و الاستعداد للكمال لإنساني، وهذا الأخير لا يمكن الوصول إليه إلا بمجاهدة النفس وقهرها، والتمسك بالطاعات والعبادات ومكارم الأخلاق، ويروي الأمير عبد القادر أنه حصل له الفتح بالكثير من المبشرات فمثلا اجتمع في واقعة بعمر بن العزيز – رضي الله عنه . مع نحو ثلاثمائة من التابعين، فأخذ يده ليقبلها فاختطفها منه، فقال له: "إنكم معشر التابعين كنتم تقبلون أيدي الصحابة فلم منعتني تقبيل يدك"، واجتمع بالشافعي رضي الله عنه ومعه علماء كُثُر وما حصل كلام بيني وبينه. واجتمع بالشيخ سيدنا محي الدين فكان معه زمانا طويلا وقرأ عليه الفتوحات وكان يتذكر كلماته العويصة في غير الفتوحات ليعرفها منه[2].

لقد أنعم الله تعالى على الأمير عبد القادر، حيث التقى مع التابعين الذين لم يلتقي معهم في حياته الدنيا، ومنهم عمر بن العزيز، الذي رفض أن يقبل الأمير عبد القادر يده لأنه رآه في نفس المرتبة معه، كما التقى بالشافعي لكن لم يجري أي حوار بينهما، في حين جالس ولفترة طويلة محي الدين بن عربي، وكشف له عن الكثير من الحقائق في الفتوحات، كما شرح له حقائق أخرى في غير كتاب الفتوحات لم يعرف كنهها الأمير عبد القادر.

[1]. أحمد كمال الجزار، مختصر كتاب المواقف الروحية والفيوضات الروحية للأمير عبد القادر الجزائري، مرجع سابق، ص 306.

[2]– الأمير عبد القادر، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج3، مرجع سابق، ص 1389.

المبحث الثالث:

الأمير

عبد القادر رجل

صوفي وحضاري

لم يفصل الأمير عبد القادر بين مشروعه الحضاري ونزعته الصوفية بل عمل على التوفيق بينهما، فالأمير عبد القادر كعارف بالله، تتأطر سياسته ومعاركه وسلمه وحربه بهذه المقولة: ماذا يفعل الحق متحققا بعينه الثابتة التي لا وجود لها ولا تشم رائحة الوجود، وهو هنا اسم من أسماء الله مجسدا في حرب أو سلم وهكذا، هذا الفهم يجعلنا نحتاط كثيرا لتفسير فعل من أفعال ولي الله، باعتبار استهلاك وجوده في وجود الحق، ليأتي الحديث القدسي ليثبت هذه الأطروحة: كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده الذي يبطش بها[1].

من هنا يتبين أن الأمير عبد القادر استطاع أن يجمع بين الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر، حيث أنه خلال مساره الحربي جعل الله حاضرا معه في أقواله وأفعاله، نقل الأمير عبد القادر التصوف من الموقف الفرداني إلى الموقف الجماعي، ومن الموقف الطبقي إلى الموقف الشعبي ومن النخبة إلى الجماهير، لم يكن التصوف مجرد تطهير للنفس عنده وإنما منهج معرفة يقوم على التطهير الروحي، هذه المعرفة هي ثورة حقيقية للضمير على ما يصيب الناس من مظالم لا تقتصر على ما يصدر عن الآخرين وإنما تنصب أولا على ظلم الإنسان لنفسه حين تقترن هذه الثورة في الرغبة في الكشف عن الله[2].

إذا كان الأمير عبد القادر قد جمع بين التصوف والجهاد، فإنه بذلك يكون قد نقل تجربته الذاتية الصوفية إلى المجتمع، كما تجلت ملامح جهاده الأكبر – ثورة الذات على ذاتها إذ كبحت النفس ذاتها من المظالم التي كانت تلحقها بذاتها مثل : الكذب، السرقة، الرشوة– في المجتمع، فهو كرجل سياسي حارب الظلم السائد في المجتمع، وكرجل مجاهد حارب ظلم فرنسا للجزائريين؛ كان الأمير عبد القادر عارفا

[1]– رزقي بن عومر، قضايا في التصوف الجزائري، دار لالة صفية، الجزائر، د (ط، س)، ص 68.

[2]– عائشة بن ساعد، البعد الروحي لمقاومة الأمير عبد القادر، أطروحة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2003– 2004، ص 96، 97.

بالسياسة الفرنسية، وذلك من خلال الصحف التي كان يحتفظ بها، كما كانت له شبكة تجسس في فرنسا ذاتها[1].

لما تمت مبايعة الأمير عبد القادر، لم يُفوّت فرصة الاعتماد على بعض تنظيمات السياسة الفرنسية المسيحية الغربية، وأيضا من بين الأسباب التي ساعدته على نجاحه السياسي هو أنه منذ صغره كان يقرأ في الصحف عن السياسة الفرنسية وهذا ما يدل على سعة ثقافته.

كان الأمير عبد القادر حاكما إنسانيا، غرس هذا المنهج الإنساني من الحكم في الآخرين، وفي هذا الصدد نُذكر بموقف اتخذه الخليفة الشهيد بن علال حين استجاب في غياب الأمير عبد القادر إلى طلب أحد رجال الكنيسة، وأطلق سراح الأسرى، ومن غير شك أنّ تصرف الخليفة في أمر دقيق كهذا، يعد من اختصاص الأمير عبد القادر لَيُؤكد روح التسامح ويبرز مدى السياسة الإنسانية التي كان الأمير يسير عليها ويكرسها في من حوله، بحيث تيسر على أحد خلفائه أن يتصرف في غيابه بما كان يدرك أنه يطابق مواقف الأمير ويترجمها[2]، النظام السياسي، إذن، في دولة الأمير عبد القادر، يعكس القيم الحضارية والإنسانية التي لاشك أن منبعها الدين الإسلامي، إذ أنّ تصرف الخليفة بن علال في أمر هو من مسؤولية حاكم الدولة فقط إلآ ويدل على أنّ ما فعله كان متأكدا أن رئيسه يقبله بل ويثمنه.

نشر الأمير عبد القادر التصورات الإسلامية وطبق حدود الشريعة، فاستحق بذلك لقب الإمام والقائد والمربي، لأنه كان يلقي الدروس في الفقه، ولم يمنعه من ذلك الاستعانة بخبرات الأجانب، ولا إهمال

[1] - BoualemBessaih,Amir Abd el Kader l'Imam chamyl,Emag, Alger, 2000, p 125.

[2] – بوعلام بسايح ، الأمير عبد القادر وحقوق الإنسان ملتقى دولي بمجلس الأمة، مجلة تصدر عن مجلس الأمة، مارس 2008، العدد 35، ص 17.

الجوانب الروحية للمجتمع، فأعطى بهذا إعلانا لأوروبا حول رسالة الإسلام الدينية التي ترسم آفاق التعاون بين المسلمين والشعوب الأخرى وواصل تجسيد هذه النظرة العميقة مع مسيحي الشام[1].

يعتبر الأمير عبد القادر إماما، لأنه نشر ودرّس شعبه وغيرهم الفقه والحديث والكثير من الدروس عن الدين الإسلامي، كما أن مواد دستوره كانت تعكس معاني الآيات القرآنية والأحاديث، كما يعتبر رجلا منفتحا على الحضارة، وهذا ما يظهر في استفادته من الحضارة الأوروبية، ودعوة شعبه للالتحاق بهذا الركب الحضاري شرط أن تتماشى مع القيم الأخلاقية للمجتمع، كما كان رجلا إنسانيا وهذا ما يؤكده نصرته المسيحيين في الشام.

كان الأمير عبد القادر في ترحاله وممارسته السياسية والاقتصادية والحربية والسلمية والحوارية يفتش عن الله، ولا يسالم دون تفتيشه أي أحد، وأول حروبه وآخرها هي حربه مع نفسه جهادا أكبرا في عمق الجهاد الأصغر إذ يقول:

"أمولاي طال الهجر وانقطع الصبر أمولاي هذا الليل وهل بعده فجر

أسائل كل الخلق هل من مُخبـر يُحدثني عنكم فيُنعشني الخـبر"[2]

ففي أفعاله السياسة والحربية، وفي محاولاته تحقيق وتجسيد روح الحضارة كان يتحرك بالله، متوكلا عليه، وفي وجه الله عبادة له.

كان التصوف ظاهرا على كل أعماله، لم تثنه الإمارة فيما بعد ولا الجهاد ولا السجن ولا المنفى ولا مخالطة رجال عصره من مختلف الأجناس والمسؤوليات، فهو لم يتبدل ولم يتغير، لم يكن تصوف الأمير عبد

[1]– عائشة بن ساعد، البعد الروحي لمقاومة الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 340.

[2]– رزقي بن عومر، قضايا في التصوف الجزائري، مرجع سابق، ص 69.

القادر عائقا عن الجهاد لأنه تصوفه تجريدي فلسفي ذوقي لم تدخله الشعوذة والخرافة التي تعتبر محطات وطوابير الاستعمار الفرنسي فيما بعد، فتمكن من الربط البنيوي بين مصالحه وحركية الجهاد[1].

لقد طبع الأمير عبد القادر أعماله بطابع النزعة الصوفية، إذ نجده مثلا مجاهدا وصوفيا، سياسيا وصوفيا، محاورا وصوفيا، فرغم الظروف المريحة أو القاسية التي عاشها داخل وطنه أو خارجه مع المسلمين أو غيرهم لم تجعله يحيد عن مبدئه الصوفي والسبب في ذلك أن تجربته الصوفية لم تكن شطحات وخزعبلات وخرافات، وبذلك نقول أنه حقق مصالحه المتعلقة بالآخرة والجهاد، أي عالم الآخرة والدنيا.

يعتبر الأمير عبد القادر الصوفي المثالي في العالم الإسلامي الذي ربط بين الخلوة والواقع العلمي في سلوكاته ومعاملاته ومواقفه الخاصة والعامة، كما عَرَّف الغرب المعنى الكامل للتصوف الإسلامي... فهو متدين مترفع قوي الصلة بربه مؤمن بالقدر خيره وشره... كانت تجربة الأمير عبد القادر تجربة إصلاح لكل المؤسسات ذات البعد الديني عن طريق تمسكه بالعدل والمساواة واهتمامه بالقضاء والمراقبة الدائمة لموظفيه[2].

من خلال معايشة الأمير عبد القادر، أو التأمل في أقواله وأفعاله، يتبين أن تصوفه عملي، كما يعتبر من رواد الحركة الإصلاحية وذلك ما يتجلى من خلال إصلاحه للحالة السياسية السائدة التي خلفها الحكم التركي، بالإضافة إلى محاولته النهوض بالمجتمع في مختلف الميادين.

ففي ظل ظروف استعمار الفرنسيين للجزائر نادى والد الأمير عبد القادر بالجهاد ومقاومة المحتل الأجنبي فالتفت حوله جميع القبائل الجزائرية، وبعد تنازله لابنه، هذا الأخير بنى الدولة وأسس الجيش

[1]– عائشة بن ساعد، البعد الروحي لمقاومة الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 96.

[2]– عائشة بن ساعد، البعد الروحي لمقاومة الأمير عبد القادر، مرجع نفسه، ص 341.

النظامي فحول المقاومة إلى نظام، وبعد انتصارات هائلة حققها، اضطرت الدولة الاستعمارية لمد جسورها عبر البحار بقوات مجهزة، وبعد فشلها بالقضاء على مقاومة البطل استعانت بالدول المجاورة[1].

إذن تولى محي الدين المقاومة الشعبية غير منظمة لمدة سنتين، إذ فقط تلتف حوله القبائل عندما يتم تحديد موعد لمعركة ما أو تكون فجائية وكان محي الدين هو القائد لهذه المعارك والمحرض للقبائل للدفاع والدود عن وطنها، ثم تكلف بهذه المهمة ابنه الأمير عبد القادر، لكن المقاومة معه أصبحت تعتمد على جيش منظم، وقد ألحق هزائم نكراء بالفرنسيين دفعهم إلى إنقاذ أنفسهم عن طريق الاستعانة بأسلحة جد متطورة يمكن أن لا يعرف اسمها الجزائريين وبجيش عدده كبير، ورغم ذلك صمد الأمير عبد القادر في وجههم وهزمهم في الكثير من المعارك رغم أسلحته البسيطة وعدد جيشه القليل، والحكمة التي نأخذها هنا هي الأسلحة والعدد وحدهما غير كافيان بل يحتاجان إلى رجال شجعان لديهم العزم والإرادة والصبر، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة بإذن الله، ولكبر سن محي الدين، اعتذر للجزائريين أبناء وطنه عن توليه مسؤولية الحكم، ورشح لهم ابنه الأمير عبد القادر.

بعد اختيار الأب لابنه عبد القادر خاطب القبائل قائلا: "ولدي شاب لغر فطين أثبت مني على مكابدة مشاقة التعب والسهر وغيرها من الأمانة التي قال سبحانه فيها: **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**، فكونوا معه يدا وعضوا"[2].

[1] – الأميرة بديعة حسني الجزائري، وما بدلوا تبديلا، تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ودولته وهجرته، دار الفكر، دمشق، ط1، 2002، ص 6.

[2] – الحاج مصطفى بن التهامي، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، دار البصائر، الجزائر، د (ط)، 2009، ص 130.

لكبر سن محي الدين اعتذر للجزائريين أبناء وطنه عن توليه مسؤولية الحكم، ورشح لهم ابنه الأمير عبد القادر وذلك لأنه من الناحية الفكرية حكيم، ومن حيث القوة هو شجاع يُجيد ركوب الخيل واستخدام السيف، ومن الناحية الأخلاقية والدينية فهو قدوة في مكارم الأخلاق والتزام بفضائل الدين الإسلامي وسننه وحتى ما هو مستحب منه، فالأمير عبد القادر لحسن سيرته، ومكافحته للعدو انتشرت أخباره في جميع الأقطار وأفزع صيته قلوب الأعادي... مرة يجاهد ومرة يقاتل أهل البغي والفساد[1].

لكن علينا أن لا ننس أن النموذج القيادي الذي كان لا يزال راسخا في الأذهان وفي الضمير الأهلي هو نموذج منفر يحيل على إدارة فالسة، لذا كان على الدولة الوطنية الوليدة وإدارتها الناشئة، أن تراعي في أهدافها التجديدية مقصدين اثنين على الأقل أن تخلق أداة هيكلية جماعية تحافظ على حيوية وفتوة العراك والجهاد، أن تبذل الجهد الكامل في نسج لحمة الجماعة والمجتمع الجديدين[2].

كوّن الشعب الجزائري صورة سيئة عن الحكم التركي، لذا حاول أعضاء الدولة الجديدة محو هذه الصورة السيئة من الأذهان وذلك من خلال جعل الفعل الجهادي مستمرا نشيطا وتحقيق التآزز بين كل الأفراد الجزائريين، إن الذين رصدوا تسيير دولة عبد القادر أو على الأقل الأكثر نزاهة منهم، لاحظوا جميعهم أن العلاقات بين الدولة والأشخاص، تحت حكم عبد القادر لم تكن علاقات مبنية على الاستبداد والخضوع، ولكن كانت علاقات تكافل بين الأشخاص ومؤسساتهم، بدون أية حالة نفسية، إن سلطة الأمير كانت تقوم على نوع من الرضى الشعبي، على (الانتخاب)، في حين أن السلطة الاستعمارية كانت تجد مصدرها من القوة[3].

[1]– مختار حساني، ثورة الأمير عبد القادر من خلال ثلاثة مخطوطات، دار الحكمة، الجزائر، ط1، د (س)، ص 134.

[2] –عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق، ص 321.

[3]– عمار بلخوجة، الأمير عبد القادر لا سلطان ولا إمام، تر: حبيب شنيني، منشورات ألفا، الجزائر، ط1، 2008، ص96، 97.

الميزة التي ميزت الأمير عبد القادر هي العلاقة الحسنة والوطيدة التي جمعت بين الحاكم والمحكومين والسبب في ذلك هو بناء تلك العلاقة على الحب، الاحترام، المحبة، التعاون وخاصة الحرية، إذ وجد الشعب في الحاكم صفات حميدة كثيرة فقدوها في الحكم التركي.

فمن بين الأسباب التي جعلته ينجح في عمله السياسي نجد: قدرته على فهم نفسية شعبه ومن تم قدرته على توجيههم، بعد نظره، شساعة ثقافته، تميزه بحسن معاملة اللاأنا سواء كان جزائريا أو عربيا أو مسلما أو غربيا أو عدوا، وبذلك كان قادرا على إقامة العلاقات الداخلية والخارجية، فهو دبلوماسي محنك.

وبما أن إدارة دفة الحكم تعتمد على الأموال، اقترح على وزرائه أن يفكروا في إرساء قواعد متينة للميزانية، وطلب من مجلس الشورى أن ينظر في الأمر من جميع نواحيه، وقد انضم لمجلس الشورى عدد لا يُستهان به من ذوي الخبرة ورؤساء العشائر والعلماء والوجهاء وبعد أخذ ورد اتفقوا، أنّ الزكاة فرض على كل مسلم ومسلمة وأنه لا يُعفى من أداء هذا الفرض إلا طوائف من ذوي الفقر[1].

إن التسيير السياسي لدولة ما يحتاج لأموال وكذلك محاربة العدو، وقد بلّغ الأمير عبد القادر هذه الفكرة لوزرائه وطلب منهم المساندة لإيجاد منهجية محددة يتبعها الجميع محددة المعالم حتى يتم إثراء الميزانية، كما حدد الأمير عبد القادر أنّ مجال صرف هذه الأموال سيكون في أمور الحرب، وقد بيّن لوزرائه أنّ موعد إعلان الحرب ضد المستعمر أصبح واجبا نتيجة خداع الفرنسيين لهم، كما حذرهم من دراسة الأمر بجدية حتى يتم التنبؤ بالمشكلات التي يُمكن أن تواجههم في مشروعهم السياسي والحربي للتصدي لها قبل وقوعها.

[1] – مسعود مجاهد، كفاح الجزائر البطولي في عهد الأمير وبعد وفاته، مؤسسة الأمير عبد القادر، الجزائر، ط2، 1982، ص203.

كانت مطامحه كلها متجهة إلى أن يجعل من شبعه أمة، وتتمثل سياسته في أن يرفع نفسه عن طريق علاقته بفرنسا، ويمنع بالمقابل أي تقارب بين أمته وبين الفرنسيين حتى لا تقوى الحركة التجارية المشتركة، وأفضل ما يناسب مشاريعه هو تناوب الحرب والسلم ذلك أن محاربة المسيحيين أفضل عمل بالنسبة لأبناء شعبه، والسلم ضروري بالنسبة إليه لينظم الشؤون الداخلية ويحافظ على آلاته الحربية ويزيد من عددها[1].

أراد الأمير عبد القادر صناعة الأمة الجزائرية، ومن بين الخطط السياسية التي انتهجها في تسيير شعبه هو إقامة الصلح وعلاقات مع الفرنسيين، لكن بالمقابل كان يمنع شعبه من إقامة العلاقات مع الفرنسيين خاصة منها التجارية، وذلك حتى لا تغويهم مصالحهم الخاصة ويصبحون تابعين للاستعمار، وبذلك بدل مقاومة الأمير عبد القادر للفرنسيين سينهمك في مقاومة القبائل الموالية للاستعمار.

من القيم الحضارية والدينية التي حاول تثبيتها في شعبه، نذكر الوطنية والقومية، ونعني محاولته بعث الروح المعادية للسلطة الأجنبية التي احتلت البلاد وإثارة الناس بخطاب تتردد فيه عبارات: بلادكم، أرضكم، دينكم، نساؤكم، فقد تجاوز خطابه بني فلان، إلى الشعب، إلى المواطنين حيثما كانوا ومهما كان انتماؤهم القبلي أو الصوفي أو الجهوي، وربما لم تعرف الجزائر قائدا من أبنائها استعمل هذا الخطاب من قبل، إنّه كان يعمل على بعث قومية عربية، أي جمع كلمة الجزائريين لمواجهة العدو المشترك[2].

سعى الأمير عبد القادر إلى غرس روح حب الوطن في قلوب الجزائريين، ولهذا كان يزرع فيهم روح المقاومة والسعي للجهاد ضد العدو، وهو في حثه هذا لم يقتصر على قبيلة دون أخرى ولا فرد دون آخر، بل خطاباته السياسية هي تخص جميع الشعب الجزائري حتى أعدائه وأعداء والده والمختلفين عنه في الفكر

[1]– أ. ف. دينيزن، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية، في الجزائر، تر:أبو العيد دودو، دار هومة، الجزائر، د (ط)، 2009، ص 128.

[2] – هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، د (ط)، 2009، ص 9.

الصوفي، ففي تلك الحرب الفرنسية كان الإسلام هو المقصود بالتحدي أيضا، وليس فقط التراب الجزائري، كان المقصود بالتحدي الدين الإسلامي، هذه المؤسسة الحضارية الضخمة، هذه الإيديولوجية، "هذه العقيدة التي فرضها الله سبحانه وتعالى وأقامت إلى البلد أساسا قويا للفكر الحضاري للإنسانية جمعاء، هذا التراب الثقافي الاجتماعي والروحي هو الذي أرادوا قتاله ومحاربته"[1] إنّ هدف الفرنسيين من خلال احتلالهم للجزائر هو غزوهم الدين الإسلامي ونشر دينهم المسيحي، ورفضوا تمسك الجزائريين بمبادئ الدين الإسلامي وأخلاقياته، لأن هذا الدين هو من ساعد السلف على صُنع الحضارة العربية في يوما ما، ولابد لخلفهم في يوم من الأيام أن يفهموا دينهم جيدا ويطبقوه ويبهروا العالم بحضارتهم، ولهذا حاول المستعمر المسيحي محو الدين الإسلامي.

رتب الأمير عبد القادر جيشا منظما على نمط جيوش الدول، وقسمه إلى مشاة، وفرسان، ومدفعية، واستجلب لتعليمه وتدريبه ضباطا من الجيش التونسي، ومن الجند التركي الذي بطرابلس ومن الفارين من الجيش الفرنسي، وسن لهذا الجيش نظاما يتعلق بمأكله وملبسه، ورواتبه، ومدة التعليم، وشروط الترقي فيه، ونيل الأوسمة، وغير ذلك[2]، كون الأمير عبد القادر، إذن، جيشا منظما، أحضر لتدريبه متمكنين من البلاد العربية تونس وطرابلس، وكذا الغربية مثل الهاربين من الجيش الفرنسي.

كانت استراتيجيته تقوم على اعتبار جوهري، وهو العمل والاستعداد لمنع الفرنسيين من التوغل، ففي التل كانت المدن الموازنة للساحل من الغرب إلى الشرق تلمسان ومعسكر وملیانة والمدية تشكل حواضر المملكة ومراكز الحضارة والعمران التي توفر الإنتاج الصناعي وتزخر بالنشاط الثقافي[3].

[1] – الأميرة بديعة حسني الجزائري، فكر الأمير عبد القادر حقائق ووثائق، مرجع سابق، ص30.

[2] – يحي بوعزيز، الأمير رائد الكفاح الجزائري، مرجع سابق، ص 87، 88.

[3] – إ سماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر ، مرجع سابق، ص 223.

من بين الخطط العسكرية التي اعتمدها الأمير عبد القادر تركيز القتال وتعيين عدد مكثف من الجيوش على المناطق، حتى يمنعوا زحف العدو المتمركزين في الساحل إلى الداخل، خاصة وأنه كان يخاف احتلال المناطق الحضارية والتي تعد مركزا للنشاط الثقافي والصناعي.

إذا كان أمر التجنيد هو أمر اختياري من عامة الشعب، فإنّ قادة الجيش كان يتم انتقاؤهم من طرف الأمير عبد القادر، وهذا بشهادة أحد الجنود الجزائريين حيث يقول: "إن الكبير من العسكر بمنزلة القلب من الجسد إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله، فلأجل ذلك لا تكون ولاية كبراء العسكر والخيالة وأصحاب الرايات إلا باختيار السلطان"[1].

تولى الأمير عبد القادر شخصيا أمر اختيار المراتب العُليا في العسكر، لأنه إذا أدى المسؤول واجبه على أحسن وجه فإنه سيُلزم المسؤول عنهم لأداء عملهم على أحسن وجه، كما فتح الأمير عبد القادر مدارسا للأطفال في المدن وحتى القرى، إذ يقول: "فتحت المدارس في المدن وبين القبائل فكان الأطفال في هذه المدارس يتعلمون بدون مقابل العبادات والصلاة وحفظ تعاليم القرآن وفروضه ومعرفة القراءة والكتابة والحساب بصورة جيدة، وكان الذين يريدون مواصلة تعليمهم بعد ذلك يرسلون إلى الزوايا والمساجد لتعلم التاريخ وعلوم الدين، وخصصت للطلبة رواتب على حساب معارفهم ودرجاتهم"[2]

كان هدفه إذن تعليم أفراد الشعب الجزائري، من خلال تكوين الناشئة، أمور دينهم الصلاة، أركان الإسلام، بالإضافة إلى قراءة الحروف وكتابتها وتركيب جمل، وكذا القيام بالعمليات الحسابية، وعند اكتسابهم المبادئ الأولى ينتقلون للمسجد لتلقي بعض العلوم خاصة ما يتعلق منها بالدين الإسلامي،

[1]– قدور بن رويلة، وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي المليانى، تح: محمد بن عبد الكريم، دخائر المغرب العربي، الجزائر، د (ط)، 1968، ص53،54.

[2]– بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري ، دار النفائس، بيروت، ط1، 1980، ص 57.

وهدفه من تنشيط الحركة التعليمية تحقيق شيئين: الأول المحافظة على التراث العربي الإسلامي الجزائري والمساهمة في تطويره معرفيا ووعيا، والثاني تحقيق التماسك الاجتماعي بين الجزائريين لمواصلة الجهاد ضد الاستعمار، ومن تمّ صار التعليم في المدينة والريف في الجزائر التي أميرها عبد القادر رسميا ومن مهام الدولة أساسا بتعيين المؤهلين للتدريس وتخصيص لهم رواتب خلاف الأمر الذي كان خلال العهد العثماني[1].

الجديد في دولة الأمير عبد القادر مقارنة بالحكم العثماني هو الاهتمام بالتعليم وتخصيص معلمين لهذه المهمة وراتبا لهم، وقد بذل الأمير عبد القادر جهودا كبيرة لإنجاح هذا المجال، لأنه رأى بالتعليم يتم المحافظة على الموروث الثقافي جيلا بعد جيل، ومما لاشك فيه أن هذه طريقة غير مباشرة اعتمدها في مواجهة الاستعمار هذا الأخير الذي من بين أهدافه الاستعمارية هو محو الموروث الثقافي، هذا من جهة ومن جهة أخرى كان المعلم يحث المتعلمين على الجهاد ولو بالقلم إن كانوا شبابا وإن كانوا صغارا يتم توعيتهم بالأمر وبأيديولوجية المستعمر.

يقول الأمير عبد القادر: "ظهر لي أن العلم هام جدا فعملت على تشجيعه، حتى إنني عفوت أكثر من مرة عن أناس مجرمين محكوم عليهم بالموت لمجرد أنهم طلبة ومعروف أن المرء في بلادنا يحتاج إلى وقت طويل حتى يصل إلى مرتبة عالية من العلم (...) ولأساعد الطلبة على دراستهم بذلت أقصى جهد للمحافظة على الكتب والمخطوطات من الضياع، ذلك أنه بالنسبة إلينا يلزم المرء عدة شهور لكتابة نسخة واحدة ولذلك أعطيت أوامري (...) في جميع القبائل لبذل أقصى عناية من أجل المحافظة على المخطوطات"[2].

[1]- عميراوي أحميدة، من تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى، الجزائر، ط2، 2009، ص 141.

[2]- بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري، مرجع سابق ، ص 57، 58.

ومن بين الجهود التي بذلها لإثراء الثقافة والعلم هو الإعفاء عن المحكوم عليهم بالموت، لأنه موتهم يعني موت الفكر والمعارف يمكن أن لا توجد في ذهن شخص آخر، كما كان يحرص على عدم إتلاف المخطوطات والكتب، لأنّ كتابتها تستلزم الوقت الكبير خاصة وأن الناس مشغولون بأمر الجهاد، ففي رأي الأمير عبد القادر، الإنسان الذي أوتي العلم والمعرفة يستطيع أن يستشعر المستقبل بما يملكه من سعة الرؤية أمامه التي تمكنه من الإحساس والشعور والتنبؤ ويأمر الله تعالى بتوجيه عقل الإنسان نحو الكون للنظر فيه والتفكير باحثا منقباً، ليعود بذخيرة من المعرفة ونتائج عن الأكوان بما فيها، فيعمق مفاهيم جاء بها القرآن ويبصِّر الناس بالقوانين العلمية والسنن التي خلق الله الكون على أسس منها[1].

جعل الأمير عبد القادر من الإنسان العالم والعارف في مرتبة عليا، لأن هذا الأخير لديه القدرة على التنبؤ بأحداث المستقبل، ومن تم اقتراح معالجة للأزمات قبل وقوعها، كما يمكن للإنسان من خلال تفكيره العقلي أن يكشف الكثير مما قاله ديننا الإسلامي فإبراهيم عليه السلام بحجة عقلية أكد أنّ هناك إله واحد ويتميز بالكمال، إذ أن أحد الناس آتاه الله الملك فقال له إبراهيم أن هناك إله واحد قادر يحيي ويُميت، فقال أنا الذي أحيي وأميت، فعجزه إبراهيم بحجة عقلية أخرى وقال له إن الله يُشرق الشمس من المشرق فأنت أشرقها من المغرب، وبذلك أكد وحدانية الأحد الصمد.

رأى الأمير عبد القادر أن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، خلقه الله وجعله مفتقرا إلى الغذاء وإلى ما يدفع به الحرّ والبرد، فلهذا امتنع الإنسان أن يعيش وحده وحدثت الحاجة إلى الاجتماعات، ثمّ لو اجتمعوا في صحراء مكشوفة لتأذّوا بالحر والبرد واللصوص، فافتقروا إلى أبنية، ولكن جميع المنازل قد يقصدها جماعة من اللصوص فافتقر أهل المنزل إلى التناصر، التعاون، والتحصن بصور يحيط بجميع المنازل فحدثت البلاد

[1] – الأميرة بديعة حسني الجزائري، وما بدلوا تبديلا تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ودولته وهجرته، دار الفكر، دمشق، ط1، 2002، ص 200.

لهذه الضرورة[1]، وبما أن حاجات الإنسان متعددة فهو بحاجة إلى أفراد يعيشون معه، كلا وتخصصه ومن تم يتم تبادل التخصصات، وهكذا تستمر الحياة.

انطلقت السياسة الأميرية العمرانية من الريف إلى القرية، وتوسعت لتشمل مدنا كثيرة ساحلية وداخلية شكلت منها حزاما دفاعيا ورباطات هجومية، ثم تراجعت هذه السياسة بسقوط هذه المدن إلى الريف والقفار ومنها الى المدينة المتنقلة "الزمالة" وهي ميزة تنفرد بها بعض المجتمعات الرحالة مثلما هو الشأن في المحضرة . الجامعة المتنقلة بموريتانيا، فالدولة الجزائرية الأميرية، إذن، انطلقت من الريف أصالة إلى المدينة حضارة وتحولت إلى الريف والترحال استقرارا[2].

إن الأمير عبد القادر لم يُنشئ المدينة المتحضرة مباشرة، وإنما لما جاء للحكم بعدما كانت كل قبيلة منفردة وحّد بين القبائل فأصبحوا يشكلون قرية ثم زاد عدد السكان بالإضافة إلى التنمية التي عرفوها فتشكل الريف، ثم المدينة التي تتوفر فيها أكثر حاجيات السكان الكثيري العدد كالسوق، الثانويات، المكتبات، المصانع، وقد أسس الأمير عبد القادر هذه المدن في الداخل والساحل كتكتيك يساعد لتحقيق أهداف الحرب، لكن بسبب قضاء الاستعمار على هذه المدن عرف مشروعه التراجع من المدينة إلى الريف، ولإعادة الأمير عبد القادر بعث من جديد مشروعه التحضيري كوّن الزمالة تلك العاصمة المتنقلة.

ومن بين المدن التي أنشأها نجد تاكدمت، وقد أولى أهمية كبيرة لها لأسباب استراتيجية، تعود إلى موقعها: وبالفعل فبُعدها عن حاميات العدو، كان يعطي للأمير عبد القادر ميزة لمعرفة تحركات العدو في وقتها وتدارك خطر أي هجوم، فموقعها هو بين التل والصحراء مما جعل من السهل على البدو أن

[1] – الأمير عبد القادر، المقراض الحاد، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، د(ط، س)، ص 26،27.

[2]. عميراوي أحميدة وآخرون، الزمالة بين المفهوم والواقع، الملتقى الوطني الخامس الزمالة العاصمة المتنقلة للأمير عبد القادر، مرجع سابق، دار البعث، قسنطينة، د (ط، س)، ص 94.

يقصدوها لشراء بضائع التل مقابل ماشيتهم، وهو ما كان يسمح للأمير بمراقبتهم عن قرب لأنهم يكونون موارد مهمة للزكاة[1].

من بين المدن الحضارية التي أنشأها نجد تاكدمت، فـما ينبـغي الإشارة إليه هو أن أيّ محطة من محطات مشروعه كانت تُنجز بتخطيط مرسوم الأهـداف والأبعاد، وقد اختار هذه المنطقة بالذات لأنّها من حيث المسافة بعيدة عــن الاستعمار، قريبـة من أصحاب البادية التي يقصدونها لاقتناء العَلف وكل لوازم الماشية، ويعتبر البدو كمموّل أساسي لصندوق الزكاة، مع العلم أن هذه الأخيرة كانت توجه في مصاريف المقاومة.

وتعتبر الزمالة من أبرز إبداعات الأمير العسكرية، تتلاءم مع متطلبات حرب العصابات من ناحية، وتشتمل على كافة المرافق والخدمات الضرورية من ناحية ثانية، بما في ذلك مكتبة غنية، إن زمالة الأمير عبد القادر تعتبر اجتماع بشري واسع وبكثافة سكانية تتوفر على تجهيزات مختلفة نذكر منها: سوق تحتوي على حاجيات السكان الغذائية، الخضر، الملابس، وبها حتى مكتبة تحتوي على مراجع متنوعة وثمينة، بالإضافة إلى مصانع للسلاح والخياطة، ووُجد بها حرفيون لخدمة السكان، وقد تناسبت مع حرب العصابات المفاجئة لأنها مدينة متنقلة.

وتتمثل أهمية الزمالة بالنسبة للأمير عبد القادر في"تكوين عاصمة منتقلة كبديل جديد لضمان الانتقال بسرعة وتفادي ضربات العدو، ولضمان استمرار الدولة والمقاومة معا، حماية موارد الدولة وجعلها في مأمن، إيجاد ملجأ أمن مشترك لغير القادرين على الجهاد والمقاومة كالنساء (...) وجاء نظام الزمالة

[1]. عبد القادر بوطالب، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية – من الأمير عبد القادر إلى حزب التحرير، منشورات دحلب، الجزائر، د (ط)، 2009، ص 90،91.

كحل بديل أدى إلى توحيد القبائل تدريجيا ودون شعور، وتجمعها حول الأمير عبد القادر هو بروابط الوشائج الإنسانية "[1].

أسس الأمير عبد القادر الزمالة كعاصمة متنقلة حتى لا يعرف العدو مكانها ويحطمونها كما حدث مع المدن السابقة، وبالتالي المحافظة على أشخاص الدولة وممتلكاتهم، لم شمل القبائل في مدينة واحدة، تقوية أواصل المحبة بين أفراد المجتمع الواحد الذي هو الزمالة، بنـــاء المصانع المتواجدة قريبا من الأمير عبد القادر حتى يراقبها – تناصر العمال مع المستعمر– لأنها تمدّ رجال الحرب ببعض لوازم المقاومة كالسلاح، بدلة الجيش.

لقد مارس الأمير عبد القادر عملية التحديث هذه خلال سبعة عشر عاما من الحكم والمقاومة، فبالإضافة إلى البنى الدستورية، فقد اهتم اهتماما خاصا بالنواحي الاقتصادية وبتطوير التجارة وشق الطرق، كما أدرك منذ ذلك الوقت المبكر أهمية صناعة الحديد والصلب في ترسيخ الاستقلال الاقتصادي وتحريك عجلة الصناعة، فعمل على تصنيع أسلحة القتال من بنادق ومدافع، كما جعل لدولته عملة وطنية جرى صكها محليا[2] .

إذن لا ازدهار لأمة دون أن يكون لها إنتاج صناعي محلي، لأنّ هذا يؤدي من جهة إلى إثبات مكانتها عالميا، ومن جهة أخرى تقل ميزانية الواردات وتتضاعف مداخيل الصادرات، مما يؤدي إلى تفوق في الميزانية، كما أن عامل صناعة الأسلحة في الجزائر ساعد الأمير عبد القادر على الانتصار في الكثير من

[1]. عميراوي أحميدة وآخرون وآخرون، الملتقى الوطني الخامس الزمالة العاصمة المتنقلة للأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 131.

[2]. جورج الراسي، الدين والدولة في الجزائر من الأمير عبد القادر .....إلى عبد القادر، دار القصبة للنشر، الجزائـــر، د (ط)، 2008، ص74، 75.

المرات على الفرنسيين، فمثلا هناك دولا تأبى بيع الأسلحة للأمير عبد القادر خوفا على مصالحها، بالإضافة إلى وجود مشاكل في تمرير هذه الأسلحة.

من بين الأبعاد التي كان يسعى لها هو الالتحاق بالركب الحضاري لكن مع الاحتفاظ بالأخلاق الإسلامية، وهذا ما يظهر من خلال قوله لهنري تشرشل: "أعطني الوقت انتظر زمن النهضة التجديد، نعم سأستخدم تقنياتكم لكن سأطعم الغرب بالروح الذي تنقصه إنكم في عالم بدون روح"[1]، ومن خلال هذا القول يظهر أن الأمير عبد القادر من أنصار ربط البيولوجيا بالأخلاق – بيو إيطيقا– وكذا العلم والتقنية والسياسة.

لقد تأثر الأمير عبد القادر بصدمة التقدم الاقتصادي بمصر على يد محمد علي باشا أثناء زيارته لها، وكذا بالمستوى الرفيع الذي وصلت إليه بلدان أوروبا في المجال الاقتصادي، وعلى هذا الأساس أصبحت القضايا الاقتصادية موضع اهتمام عزيز جدا لديه، فعمل على تطوير الإنتاج الزراعي وتحسين طرقه، وإيجاد مشاريع صناعية اعتمد فيها على الموارد المعدنية المحلية، تصدرتها الصناعية الحربية[2].

أُعْجب الأمير عبد القادر بالتطور الاقتصادي الذي حققه زميله محمد علي باشا في مصر، وبعد عودته منها كان معولا على النهوض بهذا الجانب، ومن بين ما اهتم به في مشروعه هذا نجد: الاهتمام بالنشاط الزراعي وتنميته، وكذلك المجال الصناعي وقد استثمر في ذلك التجهيزات المحلية كالحديد حتى لا تأخذ منه التكاليف الباهضة ويضطر إلى الاستيراد.

[1]– بشير بويجرة، مجمع الزاد في ما طفح به المقراض الحاد، دار القدس العربي، وهران، د(ط، س)، ص 7.

[2]. عدة بن داهة، رحلة في رحاب دولة الأمير عبد القادر، دار الخلدونية، الجزائر، د(ط)، 2014، ص 91.

اعترف الأمير عبد القادر بنجاح الغرب في الميدان العلمي والتيكنولوجي، ولهذا العرب هم بحاجة إلى استيراد اللوازم التيكنولوجية من الغرب مما يؤدي إلى عدم استقلالهم، ولهذا أراد الأمير عبد القادر أن يكوّن العرب المسلمون حضارة خاصة بهم وأن يكون لهم تكوين علمي سامي، وأن يصاحب ذلك الالتزام الأخلاقي والديني، ذلك ما يجعلهم يصلوا إلى أبعد ما يكون، بل الغرب سيصبح تابعا لهم، لكن حدث العكس وقد تنبأ الأمير عبد القادر بالأزمة بقرون عديدة قبل حدوثها.

يصف الأمير عبد القادر الحضارة الغربية الفرنسية فيقول:

"فهي وسيلة للمقصود من ملك قد عشق اللهو بباريز من خـدم

تفاخر لعب الدنيا بزينتهـا تكاثر المال ولا أولاد فالتحـم

أبواب سلطنة القديم ناميـة لدى الجديد بما يريد من عمـم

ترنقت بفؤاد النائي مملكـة حوت فرنسا بها مدائن النعـم

مراكب الفلك في البحار ماخرة ما بين رائح أو غاد مع الأضـم

لاحت قلائعها نارت علائقهـا ضاءت مشارقها بالجو والعلـم" [1]

هذه الأبيات تدل على إعجابه بالحضارة الفرنسية، إذ يرى أنّه بلد غني من حيث الأموال، فيها الجديد والإبداع الحضاري، كما احتوت على الخيرات الكثيرة والمختلفة، فيها البحر الذي تحمله الكثير من البواخر سواء لصيادة السمك أو نقل البضائع، والشعب الفرنسي هو مثقف.

[1]. محمد الصغير البناني، مذكرات الأمير عبد القادر، دار الأمة، الجزائر، د(ط)، 2008 ، ص 207.

إذا تساءلنا: فيما يتجلىّ الجديد والتحديث والتحضر في دولة الأمير عبد القادر؟ إننا نجيب بأن الأمير هو مؤسس الوطنية والسيادة في الجزائر وأنه جدد في الاقتصاد بإبطال الخراج على الرعية والامتيازات للمخزن والإبقاء فقط على الزكاة والعشور، وجدد في القضاء فسوى بين الناس وطبق نصوص القرآن على الجميع، وخصص راتبا قارا للقاضي، وجدد في العسكرية فجعل خدمة الوطن واجبة عن الجميع، وجدد في مفهوم الدين والتصوف فلم تعد القادرية هي المثل وإنما جعل وحدة الشعب كله هي الهدف[1].

يبرز الجديد في دولة الأمير، إذن، على المستوى الاقتصادي حيث أوجب الزكاة على كل قادر عليها، وعلى المستوى القضائي ساوى بين الجميع إذ أصبحت آيات القرآن دستورا يطبق على الجميع، وحدد راتبا للقاضي حتى لا يطمع في الرشوة، وفي المجال العسكري أجبر الخدمة العسكرية على كل شاب مُعافى، أما في المجال الديني الصوفي لم يهتم بنشر الطريقة القادرية الصوفية كنموذج وحيد للتصوف وإنما جعل الدين الإسلامي نقطة تقارب وتقاطع كل الشعب الجزائري.

لو كان الأمير عبد القادر رجلا غير حضاري لرفض الأخذ بالحضارة الأوروبية فهو "لا يعارض الأخذ بالحضارة الأوروبية ما دامت لا تتعارض مع مبادئه، فقد ألزم جيشه بالنظام الأوروبي المحكم... وانتدب بعض المدربين الأجانب للقيام بهذه المهمة، واشترى الأسلحة الحديثة وبني مصانع للذخيرة والمدفعية وصك النقود واستعمل عليها بعض الخبراء الأوروبيين في تسييرها (...) ولعل النظام الإداري الذي سنه ضاربا صفحا عن النظام الإداري العثماني (...) يكشف عن تفهمه لحاجة قومه لنظام يكفل لهم الارتقاء"[2].

[1]. إبراهيم مياسي، روح الأمير عبد القادر عبر المقاومة الجزائرية، دار هومة، الجزائر، د (ط)، 2012، ص 169.

[2] – هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 46.

لم يكن الأمير عبد القادر متعصبا لعاداته وأصالته بل كان يأخذ من الحضارة الأوروبية المهم لا يتناقض ذلك مع مبادئ الشرع الإسلامي، ودليلنا في ذلك أنّه في تدريب الجيش الجزائري اعتمد على مهارات الأوروبيين، واعتمد في الإنتاج الصناعي على خبراء أوروبيين، فقد كان هدفه هو الانتقال بشعبه من التفكير القبلي إلى التفكير العالمي الإنساني.

أما في الجانب العسكري فقد خصص الأمير عبد القادر جهاز الطب العسكري "فلقد أقام مستشفيات متنقلة ترافق الجيش لمعالجة المرضى والجرحى من العسكر، وعين في كل مستشفى أربعة أطباء يشرف عليهم طبيب عام بالعاصمة وهو أبو عبد الله الزروالي... فكان عالما بالطب وبخواص الأعشاب والعقاقير، وكان باستطاعته أن يخرج الرصاص من داخل العضو المصاب دون أن يحس المريض بالألم"[1].

من بين إبداعات الأمير الحضارية أنه خصص مستشفى متنقلة لمداواة المرضى، ونظرا لعدم وجود متخصصين في الطب، فكلف الذين لهم خبرة في الطب وعين على رأسهم طبيبا مختصا لإنقاذ المواقف الحرجة ولمراقبة أعمال مساعديه.

أما إبداعه على المستوى السياسي فمن بين أبهر إبداعاته الحضارية هو تشكيل السلطات وأولها "السلطة التنفيذية: تعتبر السلطة التنفيذية أهم السلطات في دولة عبد القادر، فقد رئسها بعد انتخابه سنة 1832 م سلطانا، وأصبح منذ ذلك الحين المرجع والحكم للبث بالأمور التي تهدد مجتمعه بالخطر... وأشرك ممثلين عن العلماء وشيوخ القبائل في حكومته بمعسكر"[2].

[1]– عبد القادر دحدوح ، استحكامات الأمير عبد القادر العسكرية، موفم للنشر، الجزائر ،د (ط)، 2008، ص 26.

[2] – أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر 1808. 1847، ج2، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط2، 2004، ص40.

من بين السلطات التي أنشأها الأمير عبد القادر نجد السلطة التنفيذية، وهو من يترأسها ويساعده شيوخ القبائل وعلماء وأئمة البلاد، وفيها يتم عرض القضايا الخطيرة، إذن لقد تعددت الأبعاد* التي كان يطمح إليها الأمير عبد القادر فمنها السياسية، الاقتصادية، الثقافية، الإنسانية، الحضارية.

فرغم اعترافنا بالنجاحات التي حققها إلا أنه لا يمكننا إنكار نهاية مقاومته بالسيف وحكمه الفعلي للجزائر والتفرغ لمشروعه الصوفي والفصل بينه وبين مشروعه الحضاري إلى حدّ ما ومن بين أسباب هذا الفصل هو فشله السياسي الراجع إلى ظروف نذكر منها:" عدم التكافؤ بين الطرفين المتحاربين... ثم جاء سقوط الزمالة للقضاء على ما تبقى من الورشات، ضغط العدو على المواطنين بالترغيب والترهيب وحرب الإبادة والأرض المحروقة، ليقمعهم ويبعدهم عن المقاومة، وكذلك انعدام المساندة والدعم السياسي أو المادي من أية جهة كانت سواء من الجيران أو من العالم الإسلامي، الخلافة العثمانية، أو دول أخرى كبريطانيا مثلا"[1].

من بين أسباب تراجع مقاومته نجد: إن العساكر الفرنسية تتميز بكثـرة الجيش واعتماده على وسائل حرب متطورة، مقارنة مع العسكر الجزائري الذي يتميز بقلة أفراد الجيش ويسترد وسائل الحرب التي

---

*- **البعد:** في اللغة: هو خلاف للقرب... قال تعالى " أولئك يُنادون من مكان بعيد" أي سألوا الرد... من مكان بعيد من الآخرة إلى الدنيا.

(ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي كثير وآخرون، المجلد 1، دار المعارف، القاهرة، د (ط، س)، ص 309).

أما في الاصطلاح:هو عند القدماء أقصر امتداد بين شيئين فمنهم من قال بالخلاء وجعل البعد امتدادا مجردا للمادة قائما بنفسه، ومن أنكر الخلاء جعله قائما بالجسم. (جميل صليبيا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، لبنان، د (ط)، 1982، ص 213).

وهو المسافة المعتبرة.

(André Jacob , Encyclopidique, philosophique universsèle, Puf Paris, 1997, p 1844)

فمشروع الأمير عبد القادر له نقطة البداية وله نقطة النهاية التي سطرها حيث كان له وأهداف بعيدة – تحتاج إلى الوقت الطويل– سعى إلى تحقيقها فحقق البعض منها لكن البعض منها بقي طموحا –لأن مشروعه لم يكتمل– مثل أن يجعل المسلمين والنصارى شعبا واحدا، أن يؤسس دولة جزائرية مستقلة حديثة مزدهرة يغرس في شعبها القيم الإسلامية والمحافظة عل الدين الإسلامي كما كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة.

[1]– علي عزوزي وآخرون، الزمالة العاصمة المتنقلة للأمير عبد القادر، مؤسسة الأمير عبد القادر، تيارت، د (ط، س)، ص180، 181.

تستغرق الوقت الطويل في وصولها إلى الجزائر من البلد المستورد، إذ أنه يمكن أن تكون عملية تمرير الأسلحة مكشوفة هذا من جهة، ومن جهة أخرى حتى وإن تواجدت مصانع أسلحة في الجزائر فهي ليست بفتاكة وكثيرة كما بحوزة الفرنسيين.

كما أن فترة الصلح لم تكن كافية لتحقيق أهداف الأمير من أجل التحـــضير والتجهيز للحرب، بالإضافة إلى القضاء على الزمالة التي تعتبر من بين الإنجازات الكبرى للأمير عبد القادر، والتي كلفته المال والجهد والوقت، وأرهب المستعمر الجزائريين وذلك نظرا لقتلهم وتعذيبهم الشديـد، فتركوا مشاركة الأمير عبد القادر في زمام الحرب، وأيضا الدول التي كانت تربطها صلات دبلوماسية معه قطعت التواصل معه إما خوفا من فرنسا أو لانتهاء المصالح معها.

الفصل الثالث: مواقفه الأمير عبد القادر الإنسانية.

المبحث الأوّل: روح الحوار عند الأمير عبد القادر.

المبحث الثاني: ثقافة الأخوة والمصالحة في فكر الأمير عبد القادر.

المبحث الثالث: البعد الإنساني عند الأمير عبد القادر.

المبحث الأوّل:

روح
الحوار
عند الأمير
عبد القادر

سعى الأمير عبد القادر إلى ولوج عالم الحوار مع مختلف الشخصيات من مختلف الطبقات ومع العديد من الدّول وفي شتى المجالات، كما حاول أكثر من هذا محاورة الآخر المستعمر، فقد كانت فكرة التواصل الحضاري بالنسبة إليه ضرورة لا بد منها، إنّ نجاح الأمير عبد القادر، كما يذهب إلى ذلك الكثير من الباحثين، في مراسلاته يرتبط بالأساس بتسلّحه وإيمانه بضرورة تبني أسلوب الحوار، كما زاد أسلوبه الخاصّ بأدب الحوار وضوحا، باستحضار واستشعار ضرورة أن تكون المجادلة، بحسب ثقافته، بالتي هي أحسن، وبلين القول، وصدق الوعد، ومن أجل أن يكون الحوار بنّاء، جاء أسلوبه في الحور متسلسلا، خاليا من الغموض والإبهام والتّعقيد[1]، وفي بعض الأحيان كان يتعمّد على إطالة الحوار وذلك لحرصه الشّديد على الشّرح من جهة وإصراره على التّعليم والبيان، إنّ التزامه بهذه الآداب هو نتيجة لتنشئة اجتماعية قائمة على أسس دينية، وعلى عادات وتقاليد وثقافة كان منبعها الأساسي هو الدّين الإسلامي.

تجلّى بوضوح استعمال الأمير عبد القادر للأسلوب الحجاجي، في مجادلاته ونقاشاته مع الآخر، ونراه في كثير من الحالات يستعين بنصوص دينية يقتبسها من التوراة والإنجيل[2]، إنّ اعتماد الأمير على حجج من النصوص الدينية غير الإسلامية، إنما يدل على انفتاحه على الثقافات الأخرى حتى تلك المختلفة في المرجعية الدينية، وهذا ما يجعلنا نعتبرهّ علامة على قبوله بفكرة حوار الحضارات.

اختار الأمير عبد القادر أن يمضي حياته في خلق علاقات التواصل، القائمة على الاعتقاد في القيم الإنسانية، فخلال الثلث الأخير من حياته، توالت عليه زيارات القناصلة الانجليز المقيمين بدمشق والقدس، من أمثال ((ريشاد فرنسيس بيرتون)) الضابط الانجليزي المقيم في الهند، والذي ارتدى الزي الإسلامي

[1]– عبد الرزّاق بن سبع، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه ، مرجع سابق، ص 361.

[2] – عبد الرزّاق بن سبع، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، مرجع نفسه، ص 352.

وأطلق على نفسه اسم الشيخ عبد الله، وانتمى إلى الطريقة القادرية[1]، وقد عُين هذا الضابط قنصلا لانجلترا في دمشق عام 1869م، وكان هو وعائلته من المقربين إلى الأمير عبد القادر.

يتبين أن شخصية الأمير عبد القادر، وهذا من خلال ما تنقله جملة من الشهادات والوقائع، شخصية منفتحة على الحوار وتقبل بالاختلاف، ففي مرحلة تواجده بدمشق قام الكثير من الشخصيات السياسية والعسكرية ومن جنسيات وديانات مختلفة بزيارته، ولا سيما ريشارد فرنسيس بيرتون الانجليزي الذي أعلن إسلامه وأصبح أحد أفراد الطريقة القادرية إن فعله هذا إنما يدلّ على قوة الإقناع عند الأمير عبد القادر، وبناء على ذلك نستطيع القول أن شخصية الأمير تكون قد جمعت بين الروح الدينية والعلمية والفلسفية والعسكرية في الوقت نفسه.

يتجلى البعد الإنساني، إذن، في شخصية الأمير عبد القادر، فقبوله بالآخر المختلف، وقدرته على الإنصات ومقابلة الرأي بالرأي الآخر، يكشف لنا عن وجود روح ذات عمق وبعد فلسفي تكون قد ميزت فكره، ومن الوقائع التي حدثت له، والتي يمكن الرجوع إليها في هذا المقام، مراسلة وجهها الأسقف دوبوش للأمير عبد القادر، طالبا منه إرجاع الأسرى: "إنك لا تعرفني لكنني لزمت أن أخدم الله وأن أحبّ فيه جميع البشر أبناؤهم وإخواني، سأذهب وسأتقدم إلى خيمتك وأقول لك بصوت خافت لن ترده: أعطيني وأرجع إليّ إخوتي الذين في سجنك، ليس لدي لا ذهب ولا فضة ولا يمكن أن أعطيك إلا الصلوات وباعتراف وشكر كامل من طرف العائلات التي باسمها أكتب لك"[2]، وقد كان الأسقف دوبوش متأكدا أن الأمير عبد القادر لن يردّ طلبه الإنساني.

[1]– ودان بوغفالة وآخرون، الأمير عبد القادر عبقرية في الزّمان والمكان، مكتبة الرشاد، الجزائر، د (ط، س)، ص79.

[2]- Abd el Kader, Amir Abd el Kader, l'illustratrecapitif, d'Amboise, D'Ahleb, 2013, p 7-8.

لقد ساهمت التنشئة الاجتماعية للأمير عبد القادر في تكوين فكر منفتح على كل قيم الحوار، إن معاملة أمه ((لالا زهرة)) للأسرى مثلت أنموذجا للتسامح، تقول ((لالا زهرة)) للأسير النقيب شميتز أحد أسرى معركة سيدي إبراهيم: "ماذا جئتم تفعلون في بلادنا؟ كانت تستقر بهدوء وازدهار فرميتم بها في أعاصير الحرب ودمارها، إنها إرادة الله تتمّ، وهو القادر على كل شيء، وتدابيره عصية على فهم البشر، ولعله سيغفر لكم يوما ولبلادكم ولعائلاتكم"[1]، فهذه أمّ الأمير عبد القادر التي عرفت بحسن معاملتها للأسرى الذين لم تسبّهم وإنما خاطبتهم وجادلتهم بكل احترام مُبيِّنة لهم أن فعلهم هذا غير لائق، فإن كان خطأ منهم فإن الإنسان خطاء لكن من الأجدر أن يتعلم الإنسان من خطئه ولا يكرّره ويتمادى فيه.

لقد تعدّدت مجالات حوار الأمير بتعدّد مجالات اتصالاته وعلاقاته، والمعروف عن الأمير عبد القادر أنّه بفضل ذكائه وتكوينه العلمي والفكري والعسكري، كان كثير الاتصال والمراسلات للدّول والملوك والأمراء والحكّام والرّؤساء والوزراء والعلماء والكتّاب والسياسيين والدبلوماسيين، سواء خلال كفاحه المسلّح بالجزائر (1830- 1847م) أو في منفاه بفرنسا وتركيا ودمشق والشّام (1848، 1883م)[2]، فقد كان الأمير عبد القادر يسعى للتّحاور مع مُختلَف الشّخصيات من مُختلَف الطّبقات، لقد اختلفت حواراته وهذا دليل على اتّساع وتنوع معارفه.

ويمكن أن نحدد بعض المجالات التي خاض فيها الأمير عبد القادر الجدال والحوار مع الآخر:

انتهج الأمير عبد القادر، في المجال السياسي، مبدأ الحوار، وتجلّى ذلك في رسائله الإخوانية، التي انصبّت حول نقاط رئيسية ثابتة تدور حول: الدّعوة إلى الجهاد والحثّ على مقاومة العدوّ وهي المراسلات التي كان

[1]-برونو إيتين، عبد القادر الجزائري، مؤسسة الاتصال والنشر والإشهار، الرويبة، ط2، 2001، ص 133.

[2]– غلام الله بو عبد الله وآخرون، أعمال ملتقى الأمير عبد القادر، دار الحكمة، الجزائر، د(ط)، 1998، ص 46.

يبعثها إلى خلفائه وقُوّاد جيشه ورُؤساء بعض القبائل، طلب الدّعم والتّأييد والعون باسم الأخوّة الإسلامية من العثمانيّين، التّشاور وتبادل الآراء مع سلطان المغرب، توضيح موقفه وموقف الإسلام من أحداث فتنة دمشق في رسالته إلى المجاهد الإمام محمّد شامل[1]. وهذا ما يعكس تنوّع موضوعات رسائل حوار الأمير عبد القادر حيث تعلّقت بالتأكيد بضرورة الجهاد، طلب مساعدات ماديّة لتغطية مستلزمات الحرب، تبادل الخبرات مع غيره من القادة السياسيين المسلمين، وتبيين موقفه الرّافض من عدم قبول المسلمين في دمشق التعايش مع المسيحيين على أرض واحدة.

إنّ الدّارس لهذه الرّسائل، يكتشف أنّ الأمير عبد القادر يمتلك قدرة كبيرة على التفاوض، خاصّة وأنّه تصدّى لمسائل تمسّ وطنه وعقيدته، ولذلك فهو يسخّر كلّ ما يملك من براهين وأدلّة وحكمة، ويعطي كلّ مقام ما يلزمه من صنوف الكلام، لأنّه يعلم أنّ هذه المراسلات جزء من جهاده ودفاعه عن الدّين والأمّة[2].

خاطب الأمير عبد القادر القبائل، أثناء مبايعته، قائلا: "إنني لست أفضلكم خلقا وشجاعة وحكمة، ولم يخطر لي هذا المنصب يوما ولكنني أُجبرت عليه كما تعلمون فهو مسؤولية أمام الله وأمامكم، فالإسلام هو الذي وحد قبائلنا بعد شتات، وجعلها قوة لا تُقهر، تدفعنا إلى ميادين المجد والشرف، وجعلنا إخوة يحب أحدنا لأخيه ما يحب لنفسه، ولا فرق بين عربي وأعجمي، ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى، وأمرنا بالعدل والمساواة"[3]، وبعد مبايعته، حاور القبائل وبيّن لهم أنّ توليه هذا المنصب لا يدل على أنه أحسن من غيره، وهذا ما يدل على تواضعه، فقبوله البيعة، هو تحمل لمسؤولية عظيمة، وذلك تلبية لنداء

[1]– عبد الرزّاق بن سبع، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، مرجع سابق، ص238.

[2]– . عبد الرزّاق بن سبع، الأمير عبد القادر وأدبه، مرجع نفسه، ص263.

[3] – الأميرة بديعة حسني الجزائري، وما بدلوا تبديلا تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ودولته وهجرته، مرجع سابق، ص 28.

إلهي وإنساني، وكل ما سيفعله في مساره السياسي إنما هو إحياء للقيم الأخلاقية الإسلامية، وهذا واجب ديني.

إن دعوة الأمير عبد القادر للإنسان الجزائري للانضمام إلى صفوف الجيش ظلت قائمة على مفهوم القبول وليس الإرغام، وهذا ما يظهر في ندائه لأبنائه الشباب "على كل من يرغب في أن يلبس لباسا أنيقا وأن يصبح ابنا للسلطان، عليه أن يأتي ويلتزم بذلك، فإنه يحصل على راتب محترم، وسيعفى من كل شيء، وقد استجاب بعض الشبان لما تضمنه النداء، وقدموا أنفسهم للتجنيد"[1]، يتبين، إذن، أن فكر الأمير كان قائما على الإيمان بالحرية، هذه الأخيرة التي تعد أساس لكل ممارسة ديمقراطية، فرغم أن البلاد كانت تعيش حالة حرب، إلا أنه لم يفرض على أحد التجنيد الإجباري.

اعتمد الأمير عبد القادر، في ممارساته السياسية، مبدأ المشاركة، فقد اختار أن يشاركه في العمل السياسي، من هو على اختلاف معه دينيا وسياسيا، مثل تعيينه لليهودي المتمرّس بن دران كممثّل مفاوض عنه لدى الفرنسيين، كما وجدناه يختار ممثلا دبلوماسيا من أصل إيطالي كان قائما بأعمال أمريكا في الجزائر، ليتولّى تمثيله لدى الحاكم الفرنسي في الجزائر، وكان سداده في ذلك الاختيار كبيرا بحيث وجدنا خياره ذاك يُربك الحكومة الفرنسية إذ وجدت نفسها أمام ممثلّ له وجاهته على الصعيد الدولي وقادر على تحميل فرنسا تبعات خرقها للاتفاقات مع الدولة الجزائرية[2]، فإنّ اعتماد الأمير عبد القادر في التمثيل الّدبلوماسي على الأجانب يعتبر خطة منه حيث لا تستطيع فرنسا التلاعب معهم خاصة لأنّها تدرك قدراتهم السياسية ومكانتهم على الصعيد العالمي، وكل ذلك هو يخدم الأمير عبد القادر ومصالحه.

[1] – بسام العسلي ، الأمير عبد القادر الجزائري ، مرجع سابق ، ص 44.

[2] – عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق، ص 266.

لم يستخدم الأمير عبد القادر لقب الأمير أو السلطان في مجمل علاقاته مع أفراد أسرته، لقد كان ذلك أسلوب حياته مع الأطفال والنّساء والشّيوخ ..، إذ نجده مثلا في كلامه مع زوجته يستخدم عبارة ((لالة خيرة)) "اعلمي أيتها الزّوجة الصّالحة أنّي قد صُرفت إلى أمر آخر جَلَل، فإن كنت تريدين عرض الدّنيا فَوَ الله لن تأخذي منها مقدار حبّة من خردل، وإن كنت تريدين الآخرة فعلى الرّحب والسّعة، وقد قال ربّي :فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان[1].

هكذا كان الأمير عبد القادر نموذجا في حُسن مُناقشته الأمور العائلية مع زوجته، حتّى وإن تعلّق الأمر بأبغض الحلال فلم ينهرها أو يسبّها وإنّما ناداها في أوّل الكلام بالزّوجة الصّالحة، ثمّ عرض عليها الموضوع الذي يخصّهما فعالجاه وتوصّلا إلى نتيجة إيجابية؛ متمثّلة في رضاهما بمواصلة حياتهما مع بعضها حتّى وإن ألزمتهما الظّروف أن يكونا بعيدين جسديّا قريبين روحيا، وذلك الحلّ الإيجابي ما هو إلاّ محصّلة قُدْرَتَيْهما على التّحاور وتَفَهُّم بعضهما.

كما حاور الأمير عبد القادر زوجته طالبا منها بيع الحلي ودفع مبلغه للخزينة العامة للحرب، حيث ناداها "بيعي جميع حليك وقدمي ثمنها للخزينة العامة، فالحرب تتضور جوعا والشعب يقر بردا والمحاصيل سيئة، ويجب أن أُؤمن الأعلاف لخيولي فهي ضرورية تتيح لي مقاومة الفرنسيين، هل تدركين أهمية هذا يا حبيبتي؟ ألا تؤمنين بأنني أفضل العيش بطمأنينة إلى قربك؟ إنني أتألم حبا وأنا غارق في أحلامي يا ابنة عمي، وأنت تعلمين أنك كنزي الوحيد"[2].

[1]– إدريس قرقورة، فارس الجزائر الأمير عبد القادر، دار الغرب، وهران، د (ط، س)، ص13.

[2]– برونو إيتين، عبد القادر الجزائري، مرجع سابق، ص 171.

كان الأمير عبد القادر ينظر إلى الجانب الإنساني في المرأة، وهذا المنحى في موقفه من المرأة احتراما وتقديرا وحبا يعبر عن إنسانية الأمير عبد القادر الرفيعة وروحه العالية وسمو أخلاقه.

كما أنه فتح مجال النقاش والجدال مع الباحثين والمشتغلين في الحقل المعرفي، وهذا نص لحوار دار بين الأمير عبد القادر وأحد الباحثين:

"الباحث: قرأت أنّك متأثّر ((بابن عربي)) كثيرا وخاصّة في أفكاره حول الحلول والاتّحاد.

الأمير: آهٍ، سامح الله من أحبّني فأراد تكريمي وتشبيهي برجل عظيم، ورَمَوْني بهذا التّشبيه لأنّه قد أضاف الكثير إلى كتابي المواقف، وقيل أنّه كُتِب بالنّور على نحو الحوار، وقد فسّر البعض أنّ أقوالي فيه متشابهة مع أقوال ((ابن عربي))، فأنا أحترمه لكنّي لست متّفقا معه في كلّ آرائه، فإذا كُنتُ على معارف دينية واسعة ومتمكّن في الدّين، فهل يمكن أن أقول وأنسب إلى نفسي ما لم يُنسِبه أو يتميّز به محمّد صلّى الله عليه وسلّم"[1]، وعلى نقيض مما يفعل بعض المنسبين إلى فئة العلماء، الذين لم يفتحوا إطلاقا باب المناقشة، فإنه كان يشجع طلابه على السؤال والاستفسار، فبعد كل درس كان الأمير عبد القادر يفتح حوارا حقيقيا يشارك فيه كل طلابه، وبهذا فإنه قد دشن طريقة ثورية بالنسبة لذلك العهد، وفي أول الأمر فإن العلماء قد عارضوا هذه الطريقة إذ أن معظمهم كانوا متمسكين بالمنهجية الحرفية، وقد ذكرهم بأن القرآن كان يخاطب العقل في أغلب الأحيان[2] .

[1]- عبد الكريم منصور بن عوف، حوار مع الأمير عبد القادر، دار القدس، وهران، د (ط)، 2013، ص 186.

[2]- عبد القادر بوطالب، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية – من الأمير عبد القادر إلى حزب التحرير، مرجع سابق، ص 256.

اعتمد الأمير على منهجية خاصة في التدريس، كانت تعتمد على الكفاءات، وهي الطريقة نفسها المعتمدة اليوم، والميزة التي تميز بها هو قدرته على التغيير مع رضا الأطراف التي كانت متمسكة بأفكار ينبغي تغييرها.

حاور الأمير عبد القادر قبائل تلمسان في خطبة الجمعة في مسجد مسكرة حيث ندد أمام بني عامر بتهاونهم في دفع الضريبة، يقول ما نصه: "ألستم أوّل من دعاني إلى المهمة التي أشغلها؟ هل تعتقدون أن أي جزء مهما صغر من الضريبة التي أطالب بها مخصص لنفقاتي الشخصية أو لنفقات عائلتي؟ إنّ ما أطالب به يمثل ما يلزمكم به شرع النبي صلى الله عليه وسلم"[1]، لقد خاطب قبائل تلمسان، هؤلاء الذين رفضوا دفع الضريبة ليؤكد لهم أن الضريبة إنما هي موجهة بالأخص لمصالح الكل، فمفهوم الدولة يتجاوز الفهم الموروث الذي يربطها بمفهوم القبيلة، كما أن الدين الإسلامي يأمرهم بذلك هذا من جهة، ومن جهة أخرى جمع الضرائب يساهم ويساعد على تأسيس الدولة الجزائرية، كما أنّ هذه القبائل كانت من الأوائل المساندة لهذا المشروع بمبايعتها للأمير عبد القادر.

كما حاور الأمير عبد القادر سكان جرجرة، ومما قاله لهم أنه تمكن من هزم الكفار الذين جاءوا لاحتلال أرضهم أكثر من مرة، وكان جهاده ضدهم مجيدا من أجل الإسلام، "تأكدوا أنني لو لم أقف في وجه الفرنسيين المعتدين لرأيتهم عندئذ ما لم يخطر على قلب بشر لا في الماضي أو الحاضر، استيقظوا يا أهل جرجرة وانتبهوا من غفلتكم وثقوا إن ليس في قلبي سوى الرغبة في سعادة وصلاح جميع المسلمين"[2]، طلب الأمير عبد القادر، إذن، من سكان جرجرة الانضمام تحت لوائه بكلمات لها وقعها الكبير على

[1]– برونو إيتين، عبد القادر الجزائري، مرجع سابق، ص 177.

[2] – بسام العسلي ، الأمير عبد القادر الجزائري ، مرجع سابق، ص 62-63.

العقول والقلوب، حيث لامهم عن أفعالهم السيئة ضده وهو يقابل فعلهم ذلك بما هو خير لهم حيث يعمل جاهدا لتحقيق استقلالهم، يقول الأمير عبد القادر مخاطبا أهل جرجرة: "وأن كل ما أطلبه منكم اليوم هو الطاعة والوفاق والمحافظة التامة على شرائع ديننا المقدس حتى ننتصر على الكفار، ولا أطلب منكم لتعضيد جيشنا سوى ما فرضه الله، إنني لا أرغب في تغيير تقاليدكم، ولا في إبطال قوانينكم وأعرافكم، ولكن القيام بالعمليات الحربية تتطلب مسؤولا، وإنني اقترح عليكم اختيار (ابن سالم)، أما إذا لم يلامس قولي هذا مكانا في قلوبكم، فسيأتي يوم تندمون فيه"[1].

طلب من سكان جرجرة دفع الزكاة التي تستغل أموالها في أمر الحرب، وفعلهم هذا ما هو إلا أداء لواجبهم الديني ونصرة للإسلام ومساعدة للمسلمين، كما أن مساعدتهم له في أمر الجهاد هو يتطلب تعيين رئيس لهم والأمير عبد القادر اقترح عليهم ابن سالم إن قبلوا الأمر، وإلا لهم الحرية في اختيار من يسوسهم.

من بين رسائل الحوار التي بعث بها الأمير عبد القادر نجد رسالته إلى القبائل المجاورة لحصن التيجاني قائلا لهم: "إن الله منذ ولانا أمر المسلمين والنظر في مصالحهم لم نزل نجتهد ونسعى في تأليف قلوبهم على الاتحاد والخضوع لشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لقوله عز وجل: «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» وقد توجهنا هذه المرة إلى بلاد الأغواط لجمع كلمتهم وإصلاح فسادهم، فأظهر عامة أهلها غاية الطاعة والانقياد إلا التيجاني، فأمرناهم بالرجوع إلى الحق وحذرناهم عاقبة شق عصا الطاعة لأمراء المسلمين غير مرة، فلم يرجعوا عن غيِّهم، بل صمموا على قتالنا"[2].

[1]– بسام العسلي ، الأمير عبد القادر الجزائري ، مرجع نفسه، ص 63-64.

[2] –مسعود مجاهد، كفاح الجزائر البطولي في عهد الأمير وبعد وفاته، مرجع سابق، ص 156

طالب الأمير عبد القادر من القبائل المجاورة لحصن التيجاني مبايعته حيث خاطبهم قائلا: "لما تحملت مسؤولية البلاد كان هدفي هو تحقيق الوحدة بين كل القبائل التي كلها تشترك في الدين الواحد وهو الإسلام، وأردنا تحقيق هذه الغاية مع سكان الأغواط فقبلوا الأمر إلا التيجاني والموالين له الذين رفضوا فنصحناهم أنهم إذا لم يقبلوا هذه الفكرة سنضطر إلى الدخول في صراع مسلح معهم لأننا خفنا أن يُؤثر التيجاني على أفراد القبائل التابعة له والمجاورة له وبذلك لا يتحقق هدفنا النبيل، (..) فخفنا إن أغفلنا أمرهم تسرب هذا الفساد إلى غيرهم، فيفوت المقصود الذي هو جمع الأمة على كلمة واحدة، فأخذنا في حصار حصنهم والتضييق عليهم، ولما أشرفوا على الردى طلبوا منا الأمان مع أنهم خدعونا مرات عدة، فمنحناهم الصفح صونا لدمائهم وحفظا لأعراضهم لقوله تعالى: «فاعفوا واصفحوا» فأمنّاهم، وبعد الإنصات لهذه الرسالة اعترفت القبائل التي كانت موالية للتجاني للأمير عبد القادر بالإمارة."[1]

بعث الأمير عبد القادر رسائل لداي تونس ((مصطفى خزندار)) من أجل الإخوة المهاجرين الجزائريين، وهذه الرسائل كانت تدور أساسا حول علاقات المهاجرين الجزائريين بالسلطات التونسية، ورجاء الأمير عبد القادر أن يتواصُوا بهم خيرا باسم الأخوة والدين، خاصة وأن هؤلاء المهاجرين قد أخرجوا من ديارهم وسُلبت أموالهم فلم يبق لهم من حطام الدنيا شيء، ففروا بدينهم عند إخوانهم علّهم، تمنحهم السلطات التونسية أرضا يعيشون منها، فالأمير عبد القادر كان يرى أن بلاد المسلمين وطن الجميع، وللجميع الحق في العيش في أي بقعة تظلها بلاد المسلمين[2].

[1] – مسعود مجاهد، كفاح الجزائر البطولي في عهد الأمير وبعد وفاته، مرجع سابق، ص 156-157.

[2]– عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، مرجع سابق، ص 250، 251.

تواصل الأمير مع حكام أمريكا وذلك من أجل دعمه بالسلاح و إقامة تبادل تجاري مع العديد من الدّول ولا سيما أمريكا، إذ كانت قطعا من أسطولها تمارس نوعا من الدّلالة التجارية في منطقة البحر المتوسّطي وشمال أوروبا والبلاد الاسكندنافية، وهو نفس العمل الذي كانت تؤديه بوارج تجارية من هولندا والسويد وبلاد أخرى[1]، فقد كان الأمير عبد القادر يستغل كل فرصة للتعامل مع الآخر من أجل الاستفادة منه ماديا ومعنويا، كما تواصل مع الاسبان إذ اعتمد الأمير عبد القادر في قيادته للحرب على أسلوب الحوار والمراسلة والاتّصال، ومنها تلك الرّسائل التي كتبها إلى المشاركين في حكم اسبانيا على مختلف درجاتهم لكي يهدّئوا الأوضاع بينه وبين فرنسا حتّى لا يدخلوا في حرب مسلّحة، حيث طلب منهم التّحاور مع فرنسا ليبيّنوا لها ظُلمَها للجزائريين، إذ أنّ محتوى هذه الرّسائل جميعا هو رغبة الأمير عبد القادر في توسّط اسبانيا بينه وبين فرنسا، ومعرفة موقف السّاسة الإسبان من ذلك خاصّة وزير الحرب والوزير الأوّل ووزير الخارجية والملكة، وحاكم ميلة، وحاكم غرناطة العامّ، وكذا الطلب منهم الحصول على مساعدة عسكريّة وسياسية[2]، ومن بين الأهداف التي سطرها الأمير عبد القادر من تواصله مع ملكة اسبانيا هو شكوى حاله إليها طالبا منها أن تكون همزة وصل لإصلاح العلاقات بين الجزائر وفرنسا.

يقول الأمير عبد القادر مخاطبا العقيد الاسباني: "أقول لكم أيضا أنه إذا احتجتم إلى أغنام سمينة، وصوف، وتمور الصحراء، والزبدة، والعسل، نقدر أن نزودكم بهذه المنتجات بالتبادل بالشعير والقمح، وأتكفل أنا شخصيا بنقلها، وفي انتظار جوابكم أكرر لكم بأني صديقكم من أعماق القلب، تذكروا اليوم أنكم الحماة لي تجاه الحكومة الفرنسية، لا تتوقفوا من العمل لصالحي، وأنا وأنتم جميعا على يقين بأنكم لا

[1]– عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق، ص 265.

[2]– . يحي بوعزيز وَميكيل دو إيبالرا، مراسلات الأمير عبد القادر مع اسبانيا وحكامها العسكريين بميلة،، مرجع سابق، ص 28.

تخسروا شيئا، عزيزي العقيد"[1]، وضّح الأمير عبد القادر، إذن، في رسالته أنّه ينقصه الشعير والقمح ويمكن أن يتبادل معهم ذلك بالأغنام والصوف، ومن أجل تسهيل المبادلات التجارية بيّن الأمير عبد القادر للعقيد أنه هو من سيتولى بنقل هذه الحاجيات إلى الميناء، كما أنه هو يُحيّيه ويقدر الخدمات الجليلة التي تقدمها له.

كما حاور الأمير عبد القادر السلطان المغربي لكن ما ينبغي الإشارة إليه هو أنّه انتقلت علاقة الأمير عبد القادر والسّلطان المغربي من الحوار والوئام إلى الصراع والصّدام، المرحلة الأولى هي فترة الحوار والمآزرة (1832- 1847م) شهدت هذه الحقبة حوارا بين الأمير عبد القادر والسّلطان المغربي مولاي عبد الرّحمن، وكذا تشاور في أمور الحرب والتنظيم السياسي، حيث كان الأمير يُمرِّر الأسلحة التي استوردها من الدول الأجنبية عبر المغرب فالجزائر، إذن عُرِفت مدّة هذه العلاقة بينهما بفترة الوئام والتّفاهم المتبادل والتأييد للجهاد في الجزائر وتقدير كلّ من القائدين للآخر[2]، إنّ بداية هذا الحوار كان نتيجة اتّصال الأمير عبد القادر بالسّلطان المغربي برسالة أخبره فيها عن أوضاع أشقّائه الجزائريين المستعمَرين، وعن المجهودات التي يبذلها من أجل الدّفاع على التّراب الجزائري والدين الإسلامي، " ولما اتّصل – الأمير– بالسّلطان المولى عبد الرّحمن أخبره بما هو عليه من جهاد عدوّ الدّين وحماية بيضة المسلمين، فحسُنت منزلته عنده، فصار السّلطان يمدّه بالخيل والسّلاح، ولما رأى الأمير عبد القادر عواصمه التليّة والهضابية تسقط في يد العدوّ الواحدة بعد الأخرى وكذا فقده للزّمالة، اتّجه مع ما تبقّى من الزّمالة نحو الغرب ودخل المغرب في نوفمبر 1843م[3]، تجلّت، إذن، محاسن الحوار بينهما في هذه المرحلة بالتّشاور حول التّخطيطات الحربية

[1] – ميكيل دو إيبالزا وآخرون، مراسلات الأمير عبد القادر مع اسبانيا وحكامها العسكريين بميلة، مرجع نفسه، ص 70، 71.

[2]– غلام الله بو عبد الله وآخرون، أعمال ملتقى الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 46.

[3]– غلام الله بو عبد الله وآخرون، أعمال ملتقى الأمير عبد القادر، مرجع نفسه، ص 47، 50.

خاصّة وأنّ كلاّ منهما ذو حنكة سياسية، تقديم السلطان المغربي المساعدات المادية والعسكرية للبلد الشّقيق، السّماح للأمير عبد القادر بتسلّم الأسلحة الواردة من الدّول الأوروبية بالإضافة إلى مشاركة الشعب المغربي في المقاومات الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي، ولما استولى الاستعمار على معظم المناطق الجزائرية وتعرّضت بعض كتب مكتبته للضّياع، ورأى أنّ القوّة المادية والعسكريّة الاستعمارية تفوق بكثير الامكانيات المادية الجزائرية، قصد المغرب الأقصى ورحّب به السّلطان مولاي عبد الرحمن.

أما المرحلة الثانية فهي فترة تأزّم الوضع فيها بين الاثنين وتحوّلت العلاقة بينهم إلى علاقة نزاع وصراع، إذ تطوّرت المواجهات الجدالية لتتحول إلى صدامات، واستعمل السلطان المغربي وسائل عديدة من أجل زعزعة سلطة الأمير عبد القادر، "إذ رأيناه يمضي بالعداء إلى أن راح يستميل القبائل الجزائرية إليه ويُغريها بترك المقاومة، بحيث وجدنا قبائل بني عمران مثلا تغادر مضاربها، حيث سيتظاهر السّلطان بكرم الاستقبال، لكن سرعان ما انتهى تصافي تلك القبائل والسّلطان إلى حال المصادمة"[1].

تجاوز النّزاع بينهما من مستوى القول ليمتد إلى تحريض القبائل ضدّ الأمير عبد القادر، إلا أن القبائل المهاجِرة في الأخير اكتشفت حقيقة النّوايا السّلطان فعادت لوطنها، كما لم يبق النّزاع مكتوما بينهما بل أصبح منتشرا في كلّ العالم وهي فرصة من المؤكّد ستُسعد العدوّ ويستغلّها، وتعود أسباب نهاية الحوار بينهما إلى تسبّب الوُشاة في خلخلة هذه العلاقة الحوارية، إذ تسمّمت العلاقة بينهما لكثرة الإشاعات وخبث التحرّشات ورواج الأكاذيب التي مصدرها الجواسيس الفرنسيين... فأشعلوا حربا تعرف اليوم بالحرب السيكولوجية"[2]، بالتالي غاب الحوار والتشاور والاتّصال بينهما نتيجة مُناورات الفرنسيين، لكن إذا كان الأمير عبد القادر والسّلطان المغربي مسؤولين سياسيين مُتَمَكِّنَيْن دينيا ومعرفيا فهل يُمكن أن يصدّقا

[1]- عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق،ص 299.

[2] – غلام الله بو عبد الله وآخرون، أعمال ملتقى الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 63.

تحريضات العدوّ الفرنسي، أم أنّ هناك أسباب أخرى تتعلّق بالمصالح كانت هي العامل الأساسي في نهاية الحوار بينهما؟ وقد سارع الأمير عبد القادر يطلب فتوى من العلماء المسلمين في شأن السّلطان المغربي حتى يكون للخلاف بين الطرفين وجهة شرعية، أمام الرأي العالمي الإسلامي، فراسل الشّيخ ((عليش)) مفتي المالكيّة المصرية يستفتيه في مسألة نزاعه مع السّلطان المغربي، خاصّة وأنّ هذا الأخير وصفه بصفة "البداع" التي تعني الزندقة والخروج عن الإسلام، حيث كانت هذه الصّفة في ذلك الزّمن أبشع صفة يوصف بها الإنسان المسلم، فبرّئ الشيخُ الأميرَ عبد القادر من هذه الصّفة.[1]

رغم الآلام التي نتجت عن فشل علاقة الحوار مع السلطان إلا أنّه تقبل الوضع وسعى لخلق علاقات حوارية أخرى ولاسيما مع كبار الأئمة ليعرف موقفهم مما حدث بينه وبين السلطان من تأزّم الوضع.

ومن تداعيات الحوار عند الأمير عبد القادر نجد إحياء الأمير خالد لروح الحوار، إنّ الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر يُصَرِّح أنّ روح الحوار اكتسبه عن أجداده، والأمير عبد القادر هو أوّلهم، حيث يقول: "إنّ آباءنا قد كافحوا كأعداء ثمّ كأصدقاء في ساحة الوغى وقد تعلّموا أن يتعارفوا ويتحابّوا، واليوم إنّنا نكافح تحت نفس الرّاية مشتركون بقوّة في مشاكل الحضارات حيث تقود فرنسا مصيرها"[2]، لقد تتلمذ وتعلّم الحفيد من جده إرثا وقدرة معرفية ولغوية وخطابية للتحاور.

شكل الأمير خالد الوجه الرّمزي للضمير الوطني الذي يختلط فيه الإخلاص للماضي، وأخذ الواقع الحالي في الاعتبار واستشراف سبل المستقبل، إذ اقترح منذ 1913م حوارا من الندّ إلى الندّ الذي سيكون

[1]– . عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي . قراءة في الرّمز والرّيادة .، مرجع سابق، ص 307.

[2]–الأمير خالد، رسالة إلى الرئيس ويلسون ونصوص أخرى، تر: محمد المعراجي، المؤسسة الوطنية للنّشر والاتصال والإشهار، رويبة، د(ط)، 2008، ص2.

مفيدا للطرفين، وقادرا على إنجاز رسالة العصرنة التي بدأها جدّه الشّهير، ومُغيّرا للعلاقة القديمة الحربية ثمّ العلاقة الخضوعية إلى علاقة شراكة[1]، وإنّ حُبّ علاقات الانفتاح على الآخر هو إرث وعادة اكتسبها الحفيد الأمير خالد عن جدّه وهو يحاول الحفاظ عليها وتطويرَها.

يعتبر الأمير عبد القادر من المفكّرين السَبَّاقِين في فتح باب الحوار مع المسلمين هذا من جهة ومع الآخر المختلف من جهة أخرى، ساعدته نزعته الصوفية على تقوية روحه الحوارية، حيث كان مؤمنا بفكرة حوار الديانات إذ رأى أنّ أيّ دين جديد منزّل ما هو إلاّ تكملة لسابقه، ونجح في مشروعه هذا لتمسكه بأخلاقيات الحوار المستلهمة من الدين الإسلامي، وقد بقيت هذه الروح خالدة في أبناء وطنه من أمثال حفيده الأمير خالد.

[1]– الأمير خالد، رسالة إلى الرئيس ويلسون ونصوص أخرى، مرجع نفسه، ص 4.

المبحث الثاني:
ثقافة
الأخوة والمصالحة
في فكر
الأمير
عبد القادر

لقد عَرَف الأمير عبد القادر أن الدين معاملة ولهذا عمل على تحسين علاقاته مع من يسوسهم، بالإضافة إلى تحسين علاقاته مع الآخر، كما يرى أنه لا فرق بينالرسالات السماوية، سواء تلك التي جاء بها آدم أو داوود أو موسى أو عيسى أو محمد صلى الله عليه وسلّم، وما يؤكد على موقفه هذا، هو مضمون الرسالة التي بعث بها إلى أسقف الجزائر قائلا له: "أرسل قسيسا إلى معسكري، فسوف لا يحتاج إلى شيء، وسوف أعمل على أن يكون محل احترام وتبجيل لأنه سيكون له وظيفة مزدوجة وهي أنه رجل دين وممثل لك، وسوف يصلي يوميا بالمساجين، ويواسيهم ويتراسل مع عائلاتهم وبذلك يكون واسطة في الحصول لهم على النقود والثياب والكتب، وبعبارة أخرى كل ما قد يحتاجونه أو يرغبون فيه مما يخفف عنهم شدة الأسر"[1].

عُرف الأمير عبد القادر بقدرته على التفاوض،وما يؤكد على ذلك هو مضمونالكتاب الذي أرسله الجنرال ديميشال إلى الأمير في أكتوبر 1883 بردّ الأسرى الفرنسيين، ليجيبه بالرسالة التالية: "أمّا أنا لم أتبعك قط بالمحاولات بشأن أسرانا لديكم، لأن حكمهم عندي حكم الأموات، وموتهم أعتبره حياة لهم، غير أنّي كإنسان أتألّم على مصيرهم شفقة ورحمة، تقولون بأنّ مبادئ الأرض يجب أن تبدو في كرمها وعظم روحها، وفي الختام تستخلصون بأنّه علي أن أردّ لكم الأسرى بدون فدية، إنّ مبدأكم واقعي بصفة عامة ولكن ديني يُعارض ذلك"[2]،إن كلمة ((كإنسان)) في هذه الرسالة تدلّ على الحس الإنساني الذي ميز شخصية الأمير عبد القادر، هذا الحس يرتبط أساسا بتنشئته الدينية، فقد اعتبر أن رد الأسرى بدون فدية هو أمر قد يتقبّله المنطق والعقل، لكن وباعتباره حاكما مسلما،فلا يمكن أن يقوم بفعلينهى عن الدين الإسلامي.

[1] – هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص261-262.

[2] – محفوظ قداش وآخرون، سلسلة الفن والثقافة، مرجع سابق، ص19.

لقد أظهر الأميرعبد القادر للعالم أنه كان يحارب عدوا غزا بلاده واضطهد ملته ولم يكن يحارب تعصبا منه أو كان معتديا على أحد، وتتجلى لنا معالم هذه الشخصية في معاملاته لأسرى العدو، وفي تواصله مع غيره من رجال الدين الفرنسيين، وفي تصريحاته أثناء زيارته لفرنسا، لا سيما أثناء زيارته لبعض الكنائس،"وإنه كان قد فهم الدين الإسلامي حق الفهم وأن دفاعه عن دينه ووطنه لا يعني كراهية الآخرين"[1].

إن أي فعل يكشف في مضمونه عن الصراع والرفض والقتال، إنما هو نتيجة لرفض الآخروالتفاوض أو الحوار معه، فقد كان الأمير عبد القادر يتواصل مع رجال الدين المسيحي، ولم يكن ليعلن عن الحرب مع الآخر إلاّ بعد فشل الطرق السلمية، فلم يُشهر سيفه إلاّ عندما لم تُلق البلاغة صداها المطلوب، كان يلجأ إلى أسلوب القوة بعد عدم الجدوى من أسلوب الحث والوعظ والإرشاد، فكان ملزما على معاقبة من يخون الوطن ويساعد فرنسا سواء ماديا أو معنويا.

راسل الأمير عبد القادر (باي تونس)، وتبادلا الهدايا والرسل، وكاتب خديوي مصر، وشريف مكة، وحكومة بريطانيا وبعد نقض معاهدة التافنة راسل البريطانيين، الأمريكيين وراسل العثمانيين، وتبادل مع الفرنسيين التمثيل الدبلوماسي منذ إبرام معاهدة دي ميشيل عام 1834م[2].

أنشأ الأمير عبد القادر علاقات دبلوماسية مع الكثير من الدول العربية والإسلامية كمصر والسعودية، كما أقام علاقات مع الكثير من البلدان الأوروبية كبريطانيا.

[1] – هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 20.

[2] – يحي بوعزيز، الأمير رائد الكفاح الجزائري، مرجع سابق، ص88.

كانت قبائل أولاد الأكرد والشريف وبني فسلم تتقاتل وتتصارع فيما بينها، فأحضر الأمير عبد القادر شيوخ هذه القبائل ثم طلب منهم الوقوف، وأمر كلا منهم بمصافحة الآخر ممن كان يقاتله، ثم أمر بكتابة عقد صلح بينهم هذا نصه: "لقد أمضينا بحول الله وقوته الصلح المبرم بين قبائل أولاد الأكرد وأولاد الشريف، وبين قبائل بني فسلم بعد أن محونا في قلوبهم كل أثر من بقايا حمية الجاهلية، والتزم كل فريق منهم برفع قضاياه من المظالم وغيرها إلى من سنوليه (...) ومن سعى في نقض هذا الصلح أو تعرض لإفساده فقد يعرض نفسه لسخط الله وغضبه والعقاب المناسب في محاكمة قضائية"[1].

ولا يمكن أن نهمل دور الأمير عبد القادر في صلح الستينات، حيث هدأ الوضع في لبنان، عندما أحرق الدروز الأماكن المقدسة للنصارى، ومع تكرر هذا الصراع،اضطر الأمير لاستخدام السلاح لإنقاذ النصارى، وعندما وجد أن السلاح غير كاف أخذ مفتاح القلعة من الوالي باشا، واستولى فرسانه على أسلحة فردية ساعدتهم على حراسة أبنية السفارات الأجنبية في دمشق ونقل البعثات والدبلوماسيين إلى دور الأمير، وأشرف بنفسه على عمليات الإنقاذ[2]، إن الفتنة التي قامت بسوريا وكاد يذهب ضحيتها عشرات الآلاف من المسيحيين قد أخمدت بما وهب الله الأمير عبد القادر من نبل، قد جاءت دليلا آخر على سموه، وكمال إنسانيته حتى أن فرنسا بالرغم من المتاعب التي سببها لها، قد أبدت له الشكر الجزيلعلى وساطته في تلك الفتنة، فزاد ذلك من مكانته.

لكن تكرر الصراع فيما بينهم ورغم توجيهات الأمير عبد القادر وإرشاداته إلا أنه تفاقمت الفتنة والقتال ولما لم ينجح الحوار مع النصارى اضطر الأمير لاستخدام السلاح لإنقاذ النصارى "وعندما وجد أن

[1] – الأميرة بديعة حسني الجزائري، وما بدلوا تبديلا تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ودولته وهجرته، مرجع سابق، ص 42.

[2] – بديعة حسني الجزائري، الجذور الخضراء، دار السلام، دمشق، د (ط)، 1992، ص149.

السلاح غير كاف أخذ مفتاح القلعة من الوالي باشا... واستولى فرسانه على أسلحة فردية ساعدتهم على حراسة أبنية السفارات الأجنبية في دمشق ونقل البعثات والدبلوماسيين إلى دور الأمير(...) وأشرف بنفسه على عمليات الإنقاذ وإخماد الحرائق التي بدأت تشتعل(...)وكان الفرسان الجزائريين يقتحمون النيران لإنقاذ السكان ونقل الأمهات والأطفال إلى الديرة في جبل لبنان وكان الأمير يتجول بين الأحياء غير مبال بالرصاص والطلقات الطائشة"[1].

ولما رأى أن الأمور زادت تأزما وأن الوسائل التي جهزها غير كافية توسط إلى الوالي أحمد باشا ليفتح له القلعة حتى يأوي اللاجئين وكلف بعض جنوده بنقل الممثلين الدبلوماسيين إلى دار الأمير عبد القادر مع حراستهم.

" فالفتنة التي قامت بسوريا وكاد يذهب ضحيتها عشرات الآلاف من المسيحيين قد أخمدت بما وهب الله الأمير عبد القادر من نبل قد جاءت دليلا آخر على سموه... وكمال إنسانيته حتى أن فرنسا بالرغم من المتاعب التي سببها لها... قد أبدت له الشكر الجزيل... على وساطته في تلك الفتنة الشعواء فزاد ذلك من مكانته وأصبحت جمهرة الناس يتباركون باسمه بعد أن علموا أنه اقتحم الأخطار"[2]. لقد أُشتُهر الأمير عبد القادر بالعمل الإنساني الذي قام به والمتمثل في سهره على إطفاء نار الفتنة التي اشتعلت بدمشق.

كما صالح الأمير عبد القادر بين ((بانكو)) وَ((الشيخ يوسف المغربي)) المتخاصمين حول المدرسة الأشرفية، المعروفة بدار الحديث النبوية، حيث أنّ رجلا من الأروام يُدعى بانكو استولى على دار تابعة للمدرسة الأشرفية، ثمّ امتدت يده إلى الزاوية الغربية من المسجد واقتطفها منه وأعدّها لوضع دنان الخمر،

[1] – بديعة حسني الجزائري، الجذور الخضراء، مرجع نفسه، ص149.

[2] – مسعود مجاهد، كفاح الجزائر البطولي في عهد الأمير وبعد وفاته، مرجع سابق، ص 143.

فقام عليه الشيخ يوسف المغربي وتوجه إلى الأستانة وفيها اجتمع الشيخ يوسف بالأمير عبد القادر وشرح له قضية المدرسة الأشرفية فلما رجع إلى دمشق وشاهد الأمر كما ذكر له أحضر الرومي واشترى منه ما استولى عليه، ثم أوقف الدار على الشيخ يوسف وذريته في 1282هـ وأمر بترميم المسجد والمدرسة على نفقته، وقرأ فيها يوم افتتاحها صحيح البخاري[1].

كما تدخل الأمير عبد القادر يوم أن أراد الفرنسيين احتلال دمشق وهذا ما يتضح من خلال طلب الأمير عبد القادر من الجنرال أن يخبر حكومته بأن دخول قواتها دمشق، أو قيامها بأي تحركات عدائية يلغي كل تعهد من قبله للإمبراطور لويس فيليب بعدم العودة إلى الجزائر، وأن الأمير عبد القادر سيكون أول المقاومين لأي حملة عسكرية تهاجم البلاد وكان على الجنرال أن يخبر حكومته التي أعادت حساباتها بعد هذا الإنذار، لأن إلغاء التعهد يعني احتمال عودته إلى الجزائر وعودة الحرب الضروس إليها[2].

فبعدما صُدم الأمير عبد القادر بخبر توجه الفرنسيين لدمشق من أجل احتلالها وأهلها في مأزق فتنة 1860م، فكر مليا ثمّ سارع متجها نحو قائد الحملة الفرنسية الجنيرال بوفور وأعلمه أنّ احتلال فرنسا لدمشق سيجعله يعود إلى الجزائر ويعلن الحرب ضد الفرنسيين، ولما أدرك الفرنسيون عواقب إعلان الأمير عبد القادر الحرب عليهم تراجعوا عن موقفهم، فلا تذكر الشهامة إلا ويذكر موقف الأمير عبد القادر في دمشق، يوم أثارت دول الغرب النعرات الدينية في لبنان وسورية لغايات سياسية، فوقف الأمير برجاله يخالف النوايا السياسية يحمي المساجين والمستضعفين[3].

[1]– نزار أباظة، الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد، مرجع سابق، ص27.

[2] – بديعة حسني الجزائري، الجذور الخضراء، مرجع السابق، ص 151

[3]– الأمير محمد سعيد، مذكراتي عن القضايا العربية والعالم الإسلامي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ط1، 1951، ص 18.

لا تستغرب أن يكون الأمير عبد القادر رجل حرب تحتمي به جيوشه، ودبلوماسيا استند إلى ذكائه وابتغى مصلحة إمارته في هذا المجال، فأجرى مفاوضات طويلة ودقيقة مع ضابطينفرنسيين وفي مناسبتين مختلفتين، ووقع معها معاهدتيديميشالوالتافنا، وخلال تلك المفاوضات كان صاحب مطالب، يعدل أو يضيف عليها عند الضرورة، ولا يقدم تنازلات إلا إذا شعر بأنها الطريق الأفضل[1].

لقد شكلت معاهدة دي ميشال عائقا أمام سياسة الاحتلال بمعناها التوسعي، لاسيما بعد أن عزم وشرع بالفعل في مد نفوده خارج إقليم وهران نحو إقليمي الجزائر والمدية، تمهيدا لتوسعه في اتجاه شرق البلاد، طبقا لنص معاهدة السلم المذكورة، ونفس الأمر بالنسبة لمعاهدة التافنة 1837م فإنه أراد من هذه الاتفاقية وبذكائه الدبلوماسي الخارق أن يبسط سيادته على ثلثي مساحة الجزائر وأن تمثل حكومته في هذه الأقاليم[2]، تتجلى أهمية عقد الصلح مع الفرنسيين في محاولة الأمير عبد القادر في توسيع المساحة التابعة له، وأن يجعل سكانها تحت نظامه.

أدرك الأمير عبد القادر أن عليه، لكي يقاوم عدوا مثل الفرنسيين، أن يقيم سلطته في الداخل على أساس متين ويزيد من قوته فبادر بإبرام معاهدة مع الفرنسيين، فقد أتاح له دهاؤه أن يكسب مودة حاكم وهران، وهو الجنرال ديميشيل، "بحيث راح يفعل كل ما في وسعه ليرفع من شأن الأمير عبد القادر، فلم يبع له البارود والرصاص والبنادق وغير ذلك، وإنما قدم له هدايا مكنته من إخضاع معظم القبائل العربية التي تقيم فيما بين المدية ووجدة المدينة المغربية"[3].

[1]- أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر 1807-1847، ج 1، مرجع سابق، ص379.

[2]- ودان بوغفالة وآخرون، الأمير عبد القادر عبقرية في الزّمان والمكان، مرجع سابق، ص131.

[3]- يوهان كارل بيرنت، الأمير عبد القادر، تر: أبو العيد دودو، دار هومة، الجزائر ، د (ط)، 2009، ص 75.

استغل الأمير عبد القادر الهدنة مع الفرنسيين لتقوية سلطانه، ونشر نفوذه، وبناء دولته على أسس متينة استنادا إلى معرفته بطبيعة أمته، وكيف أنه كان ميالا إلى الاستفادة من الأوروبيين ومزاياهم، حتى أنّه أرسل على نفقته ثلاثين طالبا إلى فرنسا لدراسة عدد من المهن والفنون المختلفة، وحرص على تدريب جيشه القتال تحت إشراف بعض المدربين الأوروبيين الذين كانوا في خدمته[1].

إن جلّ رسائل الأمير عبد القادر تهدف إلى وقف القتال والمصالحة، كما أنه لم يُفَوّت فرصة مراسلة غيره من كبار الملوك، وعظماء الرجال سواء منهم العرب وغيرهم، وتمتاز رسائله السياسية التي تبادلها مع رؤساء حكومات فرنسا، وقوادها الحربيين بالخبرة السياسية، وبعد النظر في الشؤون الحربية وكانت رسائله التي تبادلها مع ((بيجو)) تتسم على الأخص بالدقة والصراحة والواقعية، مع الرغبة في فصل كل الشؤون على أساس العدل والإنصاف، وفي كنف التعايش السلمي[2].

كان الأمير عبد القادر مدركا لمفهوم الإنسانية،ويتجلى ذلك في الرسالة التي وجهها لـ ((بيجو)) قائلا: "تطلب منّي أن أوقف حربا يستنكرها الدين والقوانين الإنسانية... أسألك أوّلا من هو الذي ينتهك القوانين الإنسانية، أهم أولئك الذين غزت جيوشهم بلاد العرب، وأولئك الذين يحملون في طياتهم الخراب والدّمار، أم الذي يقاتل دفعا لهذا الغزو الظالم (...) وإذا ما أردتم وضع حدّ لآلام الحرب، فأعرضوا عليّ اقتراحات مقبولة، فأنا مستعدّ للاستماع إليها"[3].

عُرف عنالأمير القادر رغبته في الصلح، ومن بين معاهدات الصلح التي عقدها مع الفرنسيين نذكر معاهدة ((ديميشال)) حيث اعتبرت أول انتصار دبلوماسي له، وقد تضمنت اعتراف حكومة باريس

[1]– أ. ف. دينيزن، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية، في الجزائر، مرجع سابق، ص 6.

[2] – يحي بوعزيز، الأمير رائد الكفاح الجزائري، مرجع سابق، ص91.

[3]– محفوظ قداش وآخرون، سلسلة الفن والثقافة، مرجع سابق، ص87.

بسلطته على إمارته، وتمتع ممثليه وقناصله بذات الصلاحيات التي تعطى للمندوبين الفرنسيين في مدن مقاطعة وهران، أما فيما يتعلق بمعاهدة ((التافنا))، فقد كانت هي أيضا انتصارا دبلوماسيا ثانيا له، إذ أعطته فرصة لبناء نواة جيش بغية تدعيم مركزه السياسي داخليا، وجعلته السلطة الوحيدة التي ستواجه فرنسا في إمارته وعلى الساحة الدولية[1]، ومن بين الإنجازات التي حققها الأمير عبد القادر من خلال عقده معاهدة ((ديميشال)) هو اعتراف فرنسا بأن الأمير عبد القادر هو أمير الدولة الجزائرية، أما عقده لمعاهدة ((التافنة))فهي استثمار لفترة الصلح،لتكوين جيش حديث منظم، تمكن من خلاله من تحقيق الانتصار في الكثير من المعارك.

كان الفرنسيون يراقبون بقلق كبير ازدياد نفوذ الأمير عبد القادر، خاصة بعد ازدياد عدد القبائل الموالية له، وكذلك الحصار الذي فرضه على مدينة وهران، ولميتمكن ((دي ميشال)) وقواته من فكه، فراح يبحث عن سبل مشرفة للتفاوض مع الأمير، وتوصلا إلى إبرام معاهدة دي ميشال بتاريخ 28 فيفري 1834م، استغل الأمير عبد القادر فترة السلم ليركز جهوده على عمليات التجنيد، كما عمل على توحيد القطر الجزائري تحت سيادته، وتوسيع نفوذه[2].

حصل الأمير عبد القادر بموجب معاهدة الصلح على أراض شاسعة غطت ثلاثة أرباع الجزائر لبسط سلطته عليها، فنظم شؤون سكانها وقبائلها، ولهذه الغاية شكل وزارة ترأسها شخصيا، وكان من أهم أعضائها ((ميلود بن عراش))، الذي تسلم مهام وزارة الخارجية أضف إلى ذلك مراكز إدارية مهمة لتسيير الإمارة الخاصة ومقاطعتها الثمانية[3].

[1] – أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير، ج2، مرجع سابق، ص 594.

[2] – سليمة كبير، من أعلام الجزائر في العصر الحديث الأمير عبد القادر، المكتبة الخضراء، الجزائر، د (ط، س)، ص12.

[3] – أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير، ج2، مرجع سابق، ص 594.

وفي معاهدات صلحه مع فرنسا، تم الاعتراف بدولة الجزائر، فعين الأمير عبد القادر سفراء للجزائر بفرنسا، إذ حرص هؤلاء على خدمة مصالح الشعب، خاصة حينما جاءت مشكلة نزوح الأعراب إلى المدن التي يحكمها الفرنسيون، وتقضي المعاهدة بمنعهم، ويريد الفرنسيون السماح لهم مُؤَوِّلين كما يحلوا لهم نصوص المعاهدة، فوقف السفراء موقف الحزم، ومنعوا كل من يريد ذلك، وعندما أمضى ((بيجو)) معاهدة التافنة عام 1937م، واصل السفراء مهمتهم الدبلوماسية على مقتضى روح تلك المعاهدة.[1]

ربط الأمير عبد القادر،إذن، علاقات الصلح مع الفرنسيين ساعدته في تعيين جواسيس بفرنسا أفادوه بالكثير من الأخبار، إن السفراء الذين أرسلهم إلى فرنسا من أجل التمثيل الدبلوماسي للجزائر قد حققوا نتائج إيجابية خاصة فيما يتعلق بمسألة نزوح سكان الريف إلى مدن يحكمها الفرنسيون، فتدخلوا لدى السلطات الفرنسية وطلبوا منهم طردهم لأن إيواؤهم يخالف نصوص معاهدة ديميشال، وبعد نقض الفرنسيين معاهدة ((دي ميشال)) حاربهم الأمير عبد القادر وأوقع بهم، فكانوا من المغْلُوبين،وأمام التفوق العسكري له وجه له الجنرال ((بيجو)) رساله جاء فيها: "أستطيع أن أعرض عليك السلام بصراحة نبيلة، إن كنت تنصت إلى صوت الحكمة الإنسانية فابعث لي برجال تثق بهم ليحملوا إلي مقترحاتك وعلى إثر هذه الرسالة وقعت معاهدة تافنةفي 30ماي 1837م التي اعترفت بدولة الأمير عبد القادر، ونصت على تبادل الممثلين بين الطرفين، اغتنم الأمير عبد القادر هذه الفرصة لتنظيم دولته ومواصلة الإصلاحات، ولم يدم السلم سوى سنتين"[2].

لقد أعاد ((بيجو)) عرض الصلح على الأمير عبد القادر مرة أخرى في معاهدة تافنة بعد خداع سابق، فقبل بذلك؛ ومن أكبر أهداف الأمير التي حققها اعتراف المستعمر قولا بدولة الأمير عبد القادر، لكن هل

[1] – يحي بوعزيز، الأمير رائد الكفاح الجزائري، مرجع سابق، ص89.

[2] – سليمة كبير، من أعلام الجزائر في العصر الحديث الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص13.

تجديده لثقته بالمستعمر هو ناجم عن سوء تفكير، أم اعتبر ذلك فرصة أخرى مواتية لإتمام المشروع السابق المتمثل في تنظيم الجيش والدولة؟

إن معاهدة ((التافنة)) تضمنت هي الأخرى في أحد بنودها على أنه بإمكان الأمير عبد القادر أن يشتري الأسلحة من فرنسا والبارود والكبريت والسلاح الذي يحتاج إليه، وبالإضافة إلى فرنسا كان الأمير عبد القادر يشتري أسلحته من المغرب الأقصى وانجلترا[1].

رحبت الحكومة الفرنسية بمعاهدة ((التافنة)) التي اعتبرتها ضربة معلم في ميدان السياسة، أما الشعب الفرنسي فقد اعتبرها إهانة، فالحكومة كانت تفتخر بأن الأمير عبد القادر قد تحول نتيجة المعاهدة من عدو إلى حليف، بينما رأى الشعب تلك المعاهدة على أنها تسليم إجرامي لإقليم فرنسي إلى سلطة منافسة. أما بالنسبة للأمير عبد القادر فقد كانت هذه المعاهدة حجر الزاوية في الصرح[2].

بعد نقض المعاهدة من طرف الفرنسيين، اجتمع مجلس الأمير عبد القادر، وقرر بالإجماع الرد على الاعتداء وأصدر بيانا "أن الفرنسيين المعتدين على البلاد الإسلامية عاهدناهم وسالمناهم، نكثوا وجالوا في بلادنا وعاثوا، ومن المعلوم أن التهاون في مثل هذا الأمر يزيدهم طغيانا واعتداء علينا (...) فلذلك اجتمعنا في مجلس عام، واتفقت كلمتنا على إعلان الجهاد والقيام بواجبه على أكمل استعداد"[3]، كرر المستعمر خداعه للمرة الثانية، إذ نقضوا وعودهم المتمثلة في معاهدة ((دي ميشال)) ثمّ معاهدة ((التافنة))، كما وسعوا نفوذهم، ولذلك صمم الأمير عبد القادر وأعضاء مجلسه على حمل السلاح ومحاربة الاستعمار فبعد فشل السلم أصبح الجهاد أمرا حتميا.

[1] – عبد القادر دحدوح ، استحكامات الامير عبد القادر العسكرية ، مرجع سابق،ص 39.

[2] – هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 167.

[3] – سليمة كبير، من أعلام الجزائر في العصر الحديث الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص16.

لم يقرر الأمير عبد القادر إعلان الحرب ضد الفرنسيين وأخد في الاستعداد للمقاومة، وفي المكان الأول سعى للحصول على تأييد سلطان المغرب، وعلى الصعيد الداخلي بعث الدعاة إلى مختلف مناطق البلد، بما في ذلك المناطق الشرقية في المغرب الأقصى، ليشرحوا للناس تطورات الموقف ويحثوهم على الاستعداد لاستئناف المقاومة"[1] .

عُرف عن الأمير عبد القادر مشاورته لمحكوميه في إعلانه الحرب على الفرنسيين،حيث لما قرر ذلك بعد نقض الفرنسيين معاهدة الصلح اجتمع برؤسائهم وخاطبهم قائلا: "إن هؤلاء المحتلين لا عهد لهم ولا ذمة عاهدناهم فنكثوا، وإن تركناهم وشأنهم فلا نلبث أن نراهم وقد فتكوا بنا (...)وهاهم قد خدعوا قبائل الدوائر والزمالة من ضعيفي الإيمان والنفوس، وفاقدي الشعور بالكرامة، أيها المسلمون قد قررنا العودة إلى المقاومة المسلحة... من قُتل منا قضى شهيدا، ومن بقي حياً نال العز وثواب الجهاد (...) وتقدموا للتدريب شيوخا وشباباً تمهيداً للانضمام للجيش النظامي".[2] إذ دعا الأمير الشعب الجزائري للاستعداد الرسمي لمواجهة المستدمر بالسلاح.

ربطت الأمير عبد القادر علاقات أخوة مع الكثير من الحكام حيث تواصل مع الكثير من الحكام في البلاد الإسلامية، منها مراسلاته مع العثمانيين، حيث كان له العديد من المراسلات مع الخليفة العثماني، رغم الوضعية الصعبة التي كانت تعاني منهاالخلافة آنذاك، بل يقول في إحدى الرسائل الموجّهة إلى الوزير الأعظم في دولة الانجليز: "وأما السلطان العثماني، فنحن منه وإليه، ونحبكم أن تكونوا واسطة بيننا وبينه، وتجعلوه يكون معنا ويعيننا على الفرنصيص، لأنّ الأرض له، وله الكلام فيها، إذن يمكن إرجاع

[1]- إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 187.

[2]- الأميرة بديعة حسني الجزائري، وما بدلوا تبديلا تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ودولته وهجرته، مرجع سابق، ص 80.

هذا الموقف لدواعي جيوستراتيجية على أساس أنّ دولته جزء من الكلّ الإسلامي"[1]، لقد سعى لإصلاح العلاقات بينه وبين السلطة العثمانية،فهي من الناحيةالجغرافية قريبة من الجزائر، بالإضافة إلى أنّ العثمانيين يعرفون جيدا أرض الجزائر، ويمكن لأي تقارب بين السلطة الفرنسية والسلطة العثمانية أن يخدم مصالح المستعمر.

يقول الأمير عبد القادر في إحدى رسائله الموجهة للعثمانيين ما نصه: "ليس للمسلمين حصن غير حصنكم يلجؤون إليه وأنتم المكلفون بالإسلام، ومن الصيغ المستعملة في رسائل أخرى عبارات من نوع : خادم حضرتكم سلطان سلاطين الإسلام، سيدنا وابن سيدنا الجد عثمان"[2].

إن تطلّعات الأمير عبد القادر التجنيدية لم تكن لتقصر على نطاق المغرب والمشرق العربيين، ولكنّها تجاوزت إلى بلاد مسلمة أخرى بما فيها الهند وبلاد آسيا الإسلامية، ولسنا نتصوّر مثلا تعرّف الشيشانيين على شخص الأمير عبد القادر إلاّ من خلال التضامن المعنوي والتواصل الروحي التي ساهمت في عقدها حركة اتصالاته بالأشقّاء المسلمين في البلاد الإسلامية سواء أثناء الكفاح الجهادي أو بعده[3]. إذن لقد تواصل الأمير عبد القادر مع أشخاص كُثُر من أوطان متعددة وذو ثقافات مختلفة.

فالأمير عبد القادر عندما يُحارب شخصا ما يحاربه في مكان وزمان حمله للسلاح، أما بعد انتهاء المعركة فينتقل من المقاتلة إلى حسن المعاملة، كما أنه كان يتواصل مع رجال دين هم مُختلفون عنه في الديانة، كما لم تقتصر زيارته على المساجد وإنما زار حتى الكنائس، وكل ما فعله من هذه التصرفات لا يعني مخالفته لدينه فزيارته للكنيسة لا تعني اعتناقه للدين المسيحي بل هي حجة أكبر لتقوية إيمانه بالدين

[1]- عوني أحمد وآخرون، الأمير عبد القادر مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، مطبعة دحلب، الجزائر، د(ط)، 1996، ص70.

[2]- جورج الراسي، الدين والدولة في الجزائر من الأمير عبد القادر .....إلى عبد القادر، مرجع سابق، ص 46.

[3]- عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق، ص 275.

الإسلامي، فمثلا عند قراءتنا لكتاب الإنجيل فمن خلال أسلوبه يظهر أنّ صبيا يتحدث لكن بقراءتنا للقرآن الكريم نجد أنه معجز من حيث الألفاظ والمعاني.

وما ينبغي الإشارة إليه أنّه كان الأمير عبد القادر يرغب دائما في السلم لكن ذلك لا يعني جبنه وخوفه والتنازل عن كرامته ودينه حيث كان صلحه بشروط تُوفي بالمصلحة العامة فمثلا هو يقبل عقد معاهدة الصلح مع الجنيرال بيجو لكن يراسله فيخاطبه قائلا: " كلايا سيدي، فأنا مستعد لعقد الصلح معكم بشرط أن... تُبدي فرنسا استعدادها لأن تسلّم إليّ قسنطينة والأراضي التابعة لها، وحينئذ سألتزم بدفع المبلغ الذي نتفق عليه في الوقت الذي تحدّده مُباحثاتنا، سيدي، إنّني عقدت العزم على الدفاع عن ديني وعن حُقوقي العادلة حتى القطرة الأخيرة من دمي، ولكنني أرغب في السلم بشروط مشرّفة وأكيدة، وعليك أنت يا سيدي أن تقرّر مواصلة حرب ضروس، أو استعادة العلاقات الودية بيننا "[1] عُرف الأمير عبد القادر بقدرته على التفاوض، حيث كان يسعى دائما لعقد معاهدات الصلح لكن من جهة أخرى يسعى لفرض شروطه ومصالحه على مُفاوضه، ولا يقبل عقد المعاهدة وقبول آراء الفرنسيين إن أدرك أنّها تضر به وبمجتمعه أكثر من نفعها.

اختار الأمير عبد القادر أن يكون منهج حياته هو التواصل مع الإنسان هذا الذي يعتبر في رأيه مظهرا لله أو تجلي من تجليات المطلق، حيث عُرف أنه كان عدوا كريم الأخلاق وهذا ما يظهر من خلال حسن تعامله سواء مع الأقوياء – نقصد بذلك الحكام والملوك — أو مع الضعفاء – الأسرى، الشيوخ، الأطفال الفرنسيين – وهذا ما دل إلا ويدل على نزعته الإنسانية وتقديسه للإنسان هذا الكائن العاقل الذي يعتبر خليفة لله في الأرض، كما كان ذو روح عالمية يحب تبادل الثقافات والحضارات والعلوم.

[1] – الكلونيل أسكوت، مذكرات الكلونيل أسكوت عند إقامته في زمالة الأمير عبد القادر 1841، تر: إسماعيل العربي، مركب الطباعة، الرغاية، د(ط)، 1981، ص 208.

المبحث الثالث:

البعد الإنساني
عند الأمير عبد القادر

تحلى الأمير عبد القادر بصفة الإنسانية منذ صباه حتى شبابه فمماته، وهذه الصفة أوتيها منذ عهد صباه، وزمان شبابه حتى إنه عندما بويع بالإمارة كان أول عمل قام به هو دخوله على زوجه ليقول لها: إن أردت أن تبقى معي من غير التفات إلى طلب حق فلك ذلك... وما حادثة دمشق المهولة إلا دليلا آخر على "إنسانية" الأمير عبد القادر العظيمة[1].

فلما قبل أن يكون أميرا توجه نحو زوجته مبينا لها إن تستطيع الصبر على فراقه وغيابه عنها فلها ذلك، وإن لا تستطيع فلا يُكلفها فوق طاقتها ولها أن تُدبر حياتها مع طرف آخر، فإنسانيته جعلته يُفكر في ما تحب زوجته حتى وإن كان أمر الفراق يُؤلمه.

إن المواقف الإنسانية التي جسدها الأمير عبد القادر في سيرته الشخصية أوّلا، من حيث التزامه بواجباته الاجتماعية، ثمّ في صلاته العامّة وعلاقاته مع الآخرين، وحرصه على أن ينظر إليهم عبادا لله بكلّ ما تنطق به عبارة عباد الله من دلالة التكريم والتبجيل والقربى، لهي ثمار شعورية يانعة نمت بذورها في تلك التربية الصالحة المسقية بنقاء البادية وسماحة القرآن العظيم[2].

"ففي إحدى الأيام طلب قائد مغربي أن يرى السجناء الفرنسيين، وعندما لاحظ من بينهم نافخ بوق سأله أن ينفخ نفخة، ففعل، فسأل القائد المغربي عن معنى ذلك، فأجابه النافخ بأن يخبر السلطان... بأنه عندما يسمع ذلك الصوت... أن يطلق العنان لفرسه ويهرب، وشعر القائد بأنه قد أُهين فطلب معاقبة السجين، ولكن الأمير قال: لا يجب أن نكون كرماء مع أسرانا... إنه بإنسانيته أصبحت حياة

[1]- الأمير عبد القادر، رائد الكفاح الجزائري، مرجع سابق، ص75.

[2]- عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق، ص110.

الجنود تنقذ في الميدان ويؤسرون بدل أن يقتلوا، ذلك أن كلمة أسير... لم تكن معروفة لدى قبائل العرب المتوحشة"[1]

كما أنّ حربه كانت جهادا أي حربا شريفة لا تحتقر الإنسان حتى ولو كان عدوا، فهو هنا يكون قد التزم بحق من حقوق الإنسان وهذا من خلال التزامه بالقيم الإسلامية[2]، كمعاملته للأسرى مثلا، فمن بين القيم الإنسانية التي نادى بها الأمير عبد القادر والتزم بها، قيمة حسن معاملة الأسرى.

وعندما أخذه بعض الضباط إلى زيارة أحد المستشفيات حيث كان يوجد بعض الجنود الفرنسيين الذين جرحوا بالجزائر، وجد نفسه أمام وضعية حرجة وغير منتظرة فكانت له هذه الكلمات المعبرة: "أني لأشعر بحزن عميق عندما أفكر في أن البعض من هؤلاء الشجعان قد أصابتهم بنادقي إلا إنني كنت أدافع عن بلادي وإني لمتأكد بأنّ الفرنسيين طيبون وشجعان، ولذلك فأنهم لن يحقدوا علي إذا ما تذكروا أنني كنت خصما شريفا"[3]، تبعا لذلك، نستنتج أن الأمير عبد القادر حمل السلاح مُرغما من أجل الدفاع عن وطنه، فهو ضد الحرب والعنف ومن أنصار صناعة الإنسان لا قتله.

ونفس الظاهرة الإنسانية اعتبرت سببا حمل الأمير عبد القادر على التنازل عن الإمارة لسلطان مراكش في مقابل أن يساعده على تخليص الوطن الجزائري، وافتكاكه من أيدي العدو، وهي التي منعته من

[1] – هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 262، 263.

[2]– بوعرفة عبد القادر، الأمير عبد القادر وإشكالية الدولة الوطنية، مجلة الدردارة : أيام ملتقى 26 27 نوفمبر لمبايعة الأمير عبد القادر، عدد 5، ،ص14.

[3]– عبد القادر بوطالب، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية – من الأمير عبد القادر إلى حزب التحرير، مرجع سابق، ص 114، 115.

قبول بيعة أهالي الريف بالمغرب الأقصى رغم توفر الأسباب لذلك وخروج سلطان مراكش عن مبادئ الدين، وشرف الوطن، وما حادثة دمشق المهولة إلا دليلا آخر على إنسانية الأمير عبد القادر العظيمة[1].

وما ينبغي الإشارة إليه هو أنّه موقف استسلام الأمير عبد القادر هو موقف إنساني حيث أوقف الأمير عبد القادر الحرب لمنع الاقتتال بين المسلمين، فوضع الأمير عبد القادر للسلاح هو أمر فرضته عليه الظروف، فعندما رأى أن عليه أن يحارب إخوته المسلمين المغاربة ويُقاتلهم ويُقاتلونه اختار الهجرة، فالأمير عبد القادر لم يُهاجر عندما دخل في مواجهة مع المستعمر الأجنبي.

أراد الأمير أن يُهاجر برفقة كل عائلة لا ترضى أن تعيش تحت هيمنة المستعمر، فرغم أنّ دائرته لم تعد تتكون سوى من عائلته وبعض من أتباعه المخلصين والتي كانت مؤونتها مرهونة بالحظ وحده حتى بخصوص وسائل العيش، لكن عند اعترافه بأن النهاية قد اقتربت، حضرت أمام خياله فكرة عظيمة، هي أن يجمع كل قبائل الجزائر التي لا تستطيع أن تحتمل العيش تحت نير الكفار وأن يقودها في قافلة كبيرة إلى مكة، وسيصادف خلال هده الرحلة كل الذين يرحبون بهم كأصدقاء أثناء مرورهم بأراضيهم[2].

تميز الأمير عبد القادر بعواطفه النبيلة التي وصلت إلى مستوى عال ولاسيما منها عاطفة الحب، فمثلا لم نجده يصرح بعاطفة الكره حتى نحو المستعمر الفرنسي، وهذه الصفات اكتسبها من البيئة التي ينتمي إليها، إن ما تلقاه الأمير عبد القادر في كنف أسرته الشريفة، وما أتاحه له الجو الثقافي والعلمي الذي كان يسود الجهة، بالإضافة إلى جولته الطويلة في بلاد المشرق، إذ كان تكوينه المتعدد الجوانب

[1] – يحي بوعزيز، الأمير رائد الكفاح الجزائري، مرجع سابق، ص75.

[2] – شارلز هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص291.

واطلاعه على مجريات العالم الإسلامي يؤهلانه لأن يكون معلما فكريا وفاعلية ثقافية وشخصية مرجعية رائدة سنظل نحيل عليها في الكثير مما ننجز ونشيد[1].

من بين المبادئ الإنسانية التي تجلت في شخصية الأمير عبد القادر هو حبه وشوقه وحنينه للمجاهدين في سبيل الله، حيث كتب قصيدة يصف فيها مشاعره ومن بين ما قاله فيها نذكر:

" يا أيها الريح الجنوب تحمّلي منّي تحيّة مغرم وتحمّـلِي

واقر السلام أُهَيل ودّي وانثري من طيب ما حمّلت ريح قرنفلِ

حاولتُ نفسي الصبر عنهم قيل لي مه ذا محالٌ ويك عنه تحوّلِ

يكفيهم شرفا وفخراً باقيـا حمل اللواء الهاشمي الأطــولِ

الصادقون الصابرون لــدى الوغى الحاملون لكلّ ما لـم يحملِ"[2]

اشتاق الأمير عبد القادر إلى المدافعين عن الوطن، وهو في دار الغُربة فلم يجد إلا قلمه ليشكو آلام الشوق في رسالة بعثها إليهم حيث نادى الرياح طالبا منها أن تبلغ سلامها الحار لهؤلاء، وتخبرهم أنّه هو في أشد الحنين إليهم ولم يجد حلا إلا الصبر، وهو يحييهم في الدفاع عن دينهم كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم، ولقد كتب الأمير عبد القادر إلى إخوته بعدما سافروا من فرنسا وبقي هو هناك في الأسر يشكو إليه حبه وشوقه إليهم ومما قال:

[1] عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق، ص317.

[2] – الأميرة بديعة حسني الجزائري، وما بدلوا تبديلا، تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ودولته وهجرته، مرجع سابق، ص 141.

" ألاَ !إنَّ قلبِي يومَ بنتمْ وسرتـــُم غدا حائماً خلفَ الظَّعُونِ يطيرُ...

رحلتمْ وسرتم لو رحمتمْ ! فبينُكمْ لِحَظِّي يومٌ للبلاء عسيـــرُ

وكنتُ ليوم البينِ أعددتُ عـــدةً وفي الظنِّ ما أعددتُه لكبيـــرُ!

فخانَ الذي أعددتهُ لفراقكـــــمْ وولَّتْ جيوشُ الصبر وهْي غرورُ

فلو أنَّكمْ يوم الفراق أعرتـــمُ قلوبَكمُ لي إنَّني لصبـــــورُ"[1]

أما عن علاقته بوطنه الكبير الوطن العربي، فله من الأشعار عن الحجاز ما يدل على عاطفته وحبه لهذا الوطن، ففي سجن أمبواز (Amboise) ثارت شجونه ودفعت به وحشته وحنينه ليذكر الحجاز بأماكنها كأنها الصلة بالموضوع والمكان والتربة الموطن الثاني . حيث يقول:

"زفرات قلبي جمرة نار أججت منه دموع العين فاضت ذرفا

ما إن تألق برق سلع والحمى* حتى تفيض النفس منه تأسفا "[2]

تجاوزت إنسانية الأمير عبد القادر حدود وطنه الجزائر إلى الوطن العربي وبصفة خاصة الحجاز، حيث كان يعتبر نفسه أنه ابن الحجاز وكان محبا له، والدليل على ذلك أنه لما كان في سجن أمبواز أحس بالحنين لأرض الحجاز، فمن خلال هذه الأبيات نستنتج شوق الأمير عبد القادر وهو في سجن أمبواز إلى موطنه الثاني أي الحجاز ويتجلى شوقه في بكائه عن أرض الحجاز واحتراق قلبه على النزول بها.

[1] – بوعمران الشيخ وآخرون، نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر، مؤسسة الأمير عبد القادر، الجزائر، ط2، 2001، ص 94.

[2] – بلحاج صالح حمزة وآخرون، الحياة الروحية للأمير ملتقى الجزائر 1998، مؤسسة الأمير عبد القادر، الجزائر، د (ط، س)، ص 156.

أحبّ الأمير عبد القادر العلم، وتعليمه للغير مُعتبرا إيّاه الحرية بعينها، أي أداة تحرير وتحرر الإنسان والإنسانية، وكل ترحاله إلى الحجاز ودمشق وبغداد طلبا للعلم يعبر عن مكانته عند الأمير عبد القادر، مضافا إلى ذلك انفتاحه على مختلف الفنون والعلوم، حيث لم تكن ثقافته ثقافة شيخ طريقة بسيطة يحفظ أورادا ويقيم على نفسه ناموسا[1]، إن طلب الأمير عبد القادر للعلم ما هو إلا دليل على إنسانيته، حيث سعى لذلك لتوسيع مجالاته المعرفية سواء كان مبدعها فرنسي أو ألماني أو اسباني، وهذا ما يؤكد على عدم تعصبه الفكري.

كما أراد الأمير عبد القادر أن يكون العلم مشتركا بين الجميع وقد حزن لما عرف أنّ أعضاء الجمعيات العلمية الذين قابلهم في إقامته بفرنسا لا يشاطرونه نفس الأفكار حول العلم كعامل أساسي في التطور البشري وحول العلاقات التي يجب أن توجد بين مختلف الشعوب على أساس المساواة ومن أجل مصلحتهم، وإذا كان معجبا بالحضارة الفرنسية فبتحفظات، فهو لم يَفُتْهُ أن يُعَرّف الفرنسيين الذين لم يكونوا على علم بمساهمة العرب في الحضارة وأنهم كانوا روادها، إذ يدعي الاستعمار بأنه قد جاء بها إلى بلادهم[2] .

لقد بين الأمير عبد القادر للغرب أن العرب هم السباقين في الكثير من الأفكار التي ينسبونها إليهم، فلا يمكن أن ننسى الحضارة البابلية والمصرية، ولا ننسى أن ابن سينا كان طبيبا وفيلسوفا وعالما، كما رأى أن الحضارة الغربية ينقصها الأخلاق، والحضارة الغربية حتى وإن أبدعها الغرب فهي ليست حكرا عليه، فالمبدع هو إنسان، وما يجمع في مجال الإبداع العلمي والفكري إنما هو ارتباطه بالبعد الإنساني لا غير.

[1] – بلحاج صالح حمزة وآخرون، الحياة الروحية للأمير، مرجع نفسه، ص 162.

[2] – عبد القادر بوطالب، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية – من الأمير عبد القادر إلى حزب التحرير، مرجع سابق، ص 275.

وتظهر لنا القيم الإنسانية للأمير عبد القادر من خلال حبه لعلاقات التواصل والمراسلة ولا سيما مع شيخه ((محمد الفاسي)) ونأخذ مقتطفا من قصيدة أرسلها له قال فيها:

" الحمد للّه تعظيما وإجـلالا ما أقبل اليسر بعد العسر إقبالا

وما أتت نفحاتُ المسك ناسخة من المكاره أنـواعاً وأشكالا

وأشكر اللّه إذ لم ينصرم أجلي حتى وصلتُ بأهل الدين إيصالا

وامتدّ عمري إلى أن نلت من سندي خليفة اللّه أفيـاء وأظلالا

قد طال ما طمحت نفسي وما ظفر لكنّ للوصل أوقاتا وآجالا"[1].

حاول الأمير عبد القادر أن يبين لشيخه في هذه القصيدة أنّه ارتقى إلى مرتبة المتصوفة، لكن لم يحقق ذلك إلا بعد مجاهدة طويلة وصبر مديد.

كما تواصل الأمير عبد القادر مع ((الطرابلسي)) بقصيدة، ومن بين ما قال له فيها:

" أتاني كتابٌ لا يملّ سماعه كتاب كَوَشْيِ الروض تزهو بقاعه

يدبّ دبيب الخمر في جسم سامع فيطربنا إسماعه وسماعه

كتابُ أتاني حافظ الود وافيا وإن الوفا أضحت يباباً ربـاعه

ولا زال حام الذمار بعزّةٍ ولو جمعوا ما يستطاع دفـاعه

[1] – بوعمران الشيخ وآخرون، نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 95.

ولا زال سيّــاراً إلى اللّه داعيا بعلم وحلم ما يضمّ شراعه"[1].

رغم الأضرار والفساد السياسي الذي ألحقه العثمانيين بالجزائريين والجزائر ككل، إلا أنّ الأمير عبد القادر لم يرفض الوجود العثماني على الأراضي الإسلامية، بل اعتبر أنّ الخلافة العثمانية هي امتداد للخلافة العربية الإسلامية، وكان ينظر إليها بقدسية واضحة والدليل في ذلك رسالة بعثها إلى السلطان العثماني، حيث خاطب الخليفة بهذه اللهجة من الاحترام، يستهل رسالته بقوله: "هذا الكتاب من خادم حضرتكم وخادم المجاهدين بوطن الجزائر، عبد القادر بن محي الدين، إلى مولاي الخليفة عبد المجيد سيدنا وابن سيدنا الجد عثمان"[2]، فرغم الفساد الذي تميزت به السياسة العثمانية وخدمة مصالحها الخاصة إلا أن الأمير عبد القادر لم ينتقم منهم، بل قدر جهودهم التي بذلوها في حكم البلاد عندما لم يجد الجزائريين من يسير بلادهم، ففي مراسلاته للحاكم العثماني استخدم الأمير عبد القادر الألفاظ التي تؤكد على ولاءه.

لم يتغير موقف الأمير عبد القادر من الدولة العثمانية فيما بعد على الرغم من عدم مساعدتها له، ودرء الأخطار عنه أثناء مقاومته للغزاة، ففي عام 1845م أعاد تجديد معهد علمي في مدينة مازونة، وعند افتتاحه لهذا المعهد، ألقى كلمة لم يتجاهل فيها مؤسس ذلك المعهد وإنما ذكره بكل احترام وتقدير وهو الداي (محمد بكداش)[3]، وكان يصف الدايات بالمتقدمين على الرغم من أخطاء بعضهم.

كان الأمير عبد القادر صديقا للفرنسيين ولاسيما علاقته بنابليون الثالث، ولذلك أثنى عليه، ودعا له بقوله: "وتمم الله عليهم (الفرنسويين) النعمة بسلطنة الملك الشهير العادل، أعلى الملوك الإفرنجية همة

[1] – بوعمران الشيخ وآخرون، نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر، مرجع نفسه، ص 141.

[2] – الأميرة بديعة حسني الجزائري، فكر الأمير عبد القادر الجزائري حقائق ووثائق، مرجع سابق، ص 36.

[3] – الأميرة بديعة حسني الجزائري، فكر الأمير عبد القادر الجزائري حقائق ووثائق، مرجع نفسه، ص 37.

وأبعدهم صيتا، وأنداهم يدا وأطولهم سيفا نابليون الثالث"[1]، العلاقة التي ربطت بين الأمير عبد القادر ونابليون هي علاقة صداقة، وقد أُعجب الأمير عبد القادر بخصال نابليون الثالث في المجال السياسي وخاصة حسن المعاملة، التواضع، الوفاء بالعهود، ولهذا أحبه ودعا أن يدوم ملكه لمدة أطول.

كما اعتبر الأمير عبد القادر نفسه جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي، إذ أنه على الرغم من المسؤوليات الجسام التي أُنيطت بالأمير عبد القادر منذ 1832م في الجزائر، إلا أنّه كان يتابع باهتمام الأحداث التي كان يمر بها العالم الإسلامي، وعندما استقر في دمشق عاش تلك الهموم، فأخذ يتقصى أسبابها الدفينة، وأدرك أن العالم الغربي بعد نهضته الصناعية كان يحتاج أسواقا لمنتوجاته فأخذ يخطط لاستعمار هذه البلاد مستعينا بخلق الفتن الطائفية العديدة غير مكترث بالضحايا البريئة[2].

اهتم الأمير عبد القادر بالقضية الجزائرية، لكن ذلك لم يمنعه بالاهتمام بما يحدث في العالم الإسلامي، وعندما حطّ بدمشق اهتم بصفة خاصة بفتنة الستينات وأسبابها، فتوصل إلى أنّ الغرب بعد نجاحه الصناعي يحتاج إلى أسواق لتوزيع منتوجاته فوجد الدول الضعيفة مركزا لتحقيق طموحه، فهمّ إلى استعمارها وقتل أبنائها، فأيّ أخلاق تدفع الاستعمار الغربي لقتل إنسان من أجل الوصول إلى أهداف مادية.

تمكن الغرب من خلق فتنة في دمشق حيث تحركت أحقاد المسلمين فيها على النصارى جيرانهم وتذكروا ما نالهم من ((حنا بك البحري)) وطائفته من الاعتداء أيام المصريين، وفي تلك الأيام أخذ صبيان

[1] – عمار طالبي، الأمير عبد القادر ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، دار القصبة، الجزائر، ط 2، 2005، ص7.

[2]– بديعة حسني الجزائري، الجذور الخضرا، مرجع سابق، ص 146.

المسلمين يصورون الصليب في الطرقات، ويرسمونه على الأوراق، ولما بلغ هذا الأمر مسمع الأمير عبد القادر علم أن العاقبة وخيمة وإن ما سيقع في دمشق سيكون نظير ما وقع في لبنان[1].

سعى الأمير عبد القادر باذلا مجهودات كبيرة لأن لا تحدث حرب طائفية في دمشق، ولكن لما لاحظ أن الأمر قد خرج من أيدي الأعيان والوجهاء، أعد للأمر عدته وتأهب لكل احتمال معاد، فجمع كل قادر على حمل السلاح من المهاجرين الجزائريين، وطلب تدريبهم على إخماد الحرائق، وعلى عمليات الإنقاذ بالدرجة الأولى، واشترى لهم السلاح، وعندما تناهى إلى مسامعه ذات صباح إن الجموع تتجه نحو حي القصاع استدعى فرسانه الأشداء، وخرج هو وأبناؤه كلهم، وقاد بنفسه حملة إخماد الفتنة الطائفية[2].

ساهم الأمير عبد القادر مُساهمة كُبرى في تهدئة الفتنة التي اشتعلت، ومن بين الجهود التي بذلها نجد شراء الأسلحة للمهاجرين الجزائريين حتى يُساعدوه في الدفاع عن المسيحيين أو على الأقل حمايتهم، ولما وصل الأمير عبد القادر خبر توجه مسلمي دمشق إلى الحي الذي يقطُن به عدد كبير من المسيحيين استنجد بفرسانه وعمل جاهدا على تسوية الأمور وفك النزاع، ذلك أن الفتنة التي قامت بسوريا وكاد يذهب ضحيتها عشرات الآلاف من المسيحيين قد أخمدت بما وهب الله الأمير عبد القادر من نبل.

فعلى الرغم من القرآن العظيم يتحدّث عن تكريم الإنسان عامّة، ويصف المخلوقات بلفظ الإنسان وعباد الله، ورغم تأكيد السنة النبوية مبدأ تساوي الأبيض والأسود، فقد رأينا الدرس الأنثروبولوجي القديم

[1] – محمد بن عبد القادر جزائري، تحفة الزائر تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 632.

[2] – بديعة حسني الجزائري، الجذور الخضراء، مرجع سابق، ص149.

المتأثّر بالفكر الإغريقي يصدر عن روح ترى تفاوتا في فطرة البشر واختلافا في مستوى حظوظهم من الكفاءة والعقل والمنزلة[1].

سعى الأمير عبد القادر لغرس القيم والأخلاق الإنسانية في شعبه حيث ثقافة الجهاد كانت تمضي على طريق خلق الإنسان الجديد، الإنسان الجزائري المسلم المتأهّب لأخذ زمام مصيره بيده، إذ أنّ شريعة الجهاد قد شرعت تهذّب في نفسيته كثيرا من رعونة عهد السيبة والتوحش ورفض النظام، لتنمّي فيه بدل ذلك قيم التسامي والترابط والانسجام من خلال شحذ روح التكافل والتضامن التي بعثها جوّ الكفاح المسلّح وعززتها الانكسارات التي قرّبت بين القلوب وكشفت للأهالي عن العدوّ المشترك[2]، لقد وجدت القبائل الجزائرية نفسها مُرغمة على استبدال التصارع والصدام الذي كان قائما بينها إلى تبني مفهوم الاتحاد والتعاون لمحاربة المستعمر وطرده.

ففي غمار هذه التحولات الجارفة، كان حتما أن تتولّد قيم جديدة ومفاهيم طارئة وتنشأ معها علاقات إنسانية متجدّدة، فعوض نفسية النعرة والتعصّب وتوارث العقلية القبلية والجهوية كان لزاما أن تبرز نفسية الإخاء القومي، وأن ترتدّ كثيرا من المسلّمات البالية إلى الوراء، وأن تنزاح الكثير من المسلّمات عن النسب لتختفي وراء علاقة المواطنة التي كانت دولة الأمير عبد القادر تؤسس لها[3].

أعطى الأمير عبد القادر أهمية للترجمة، إذ كان حريصا بنزعته أو بحكم مذهبه الفكري في التواصل الإنساني العام وتبادل الآراء بسماحة ووعي وصدق للوصول إلى الكمال المنشود على وحدة الطريق فإن

[1]- عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، مرجع سابق، ص25.

[2]- عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق، ص 333، 334.

[3]- عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع نفسه، ص 336.

قضية الترجمة ستدع أثرا واضحا في فكر هذا الصوفي الثائر الذي لا يرى للعلم نهاية ولا معاني، وإنما للخلق وللألفاظ في الحياة الدنيا[1] .

رأى الأمير عبد القادر على النخبة أن تشكل كيانها أولا وأن تتداعى إلى صعيد الفعل الجهادي والسياسي الذي فتح المجال أمامها كي تلحم صفوفها وتتخطى حدود العزلة التقليدية التي ضربتها عليها عهود من التهميش والتجاهل والإحباط، وهو ما مكن المجموعات المثقفة والمتنورة من أن تتعارف وتستبين أقدار بعضها البعض من خلال المراس الميداني والتجربة الحية التي باتت الساحة مسرحا لها[2]، خاطب الأمير عبد القادر نخبة المجتمع أن يتقدموا صفوف الجهاد وأمور السياسة، وأوصاهم أن يتعارفوا فيما بينهم وأن يتبادلوا الأفكار ويتجاوزوا تلك الحدود القبلية التي كانت تفصلهم، وبذلك أراد غرس الروح الإنسانية في الفئة المثقفة.

رأى الأمير عبد القادر في كل فرد يقطن بالجزائر أنه مواطن جزائري، فقد كان يقدر كينونة ووجود كل إنسان باعتباره مخلوقا من الله وخليفة له في الأرض، "ولم يكن يفرق في ذلك بين أبناء الجزائر، فقد كانوا عنده جميعا عربا ومسلمين، سواء كانوا سكان مدن أو جبال..، وسواء كانـوا يتكلمون العربية أو لهجات محلية، ولذلك أحبه الجميع وندم الذين خالفوه أحيانا على فعلهم، وقد عرفوا قدره أكثر بعد أن غاب عنهم لأنّ الكثير من ظهر بعده كان يفتقر إلى عناصر وهي تحديد الهدف وخدمته بكل الوسائل: الحـرب والدبلوماسية والشجاعة والرأي والإخلاص[3].

[1]– محمد السيد علي الوزير، الأمير عبد القادر الجزائري، ثقافة و أثرها على أدبه، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص65.

[2]– عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق، ص 319.

[3]– إبراهيم مياسي، روح الأمير عبد القادر عبر المقاومة الجزائرية، دار هومة، الجزائر، د (ط)، 2012، ص 170.

فالعامل الذي جعله محبوبا من طرف غيره هو العدل بين المواطنين ومحاولـة تحقيق هدفهم جميعا المتمثل في الاستقلال والنهضة، ولقد لقي المعارضة من طرف بـعض القبائل وهؤلاء ندموا على ذلك التصرف وعرفوا مكانته بينهم واعترفوا بجهوده بعـــد استسلامه.

تحدث الأمير عبد القادر عن الإنسان الكامل، فكان يتجسّد مثلا في تلك الأحوال من العظمة التي عبّر عنها رفاقه من رجال الجهاد البواسل، أولئك الذين خاضوا معه الحرب، واستشهدوا أو اندحروا باندحار المقاومة، إذ كانوا بتضحياتهم الخارقة يمثّلون الإنسان الكامل في مضمار الفداء وبذل النفس نصرة للحق[1]، ومن هنا يمكن القول أن الإنسان الكامل هو الإنسان المطلق، وليوضح فكرته قدّم لنا أمثلة عن تجليات الإنسان الكامل في المجتمع الإسلامي منها، أولئك الذين شاركوه المعركة ضد الاحتلال، وهم المجاهدون في سبيل الله المضحين بأموالهم وأنفسهم لرفع راية بلاد الإسلام، وإعلاء دين الإسلام.

كما يحيل الإنسان الكامل أيضا إلى المرتبة التي يصل إليها الإنسان العاقل، من منطلق اعتبار العقل نعمة يتجسد من خلالها مستوى التكريم الإلهي بما يجعل الإنسان قمينا بتحمل المسؤولية، وهذا ما يمكن ملاحظته في حياة الأمير عبد القادر نفسه، إذ أن فترة الاعتقال على سبيل المثال لم تدفعه إلى الاستسلام لليأس والقنوط، بل جعل من سجنه فرصة للاستزادة والتأمل محولا المحنة إلى منحة[2].

كما يعرّف الإنسان الكامل بمفهوم آخر حيث يرى أنه هو خليفة الله في الأرض، والإنسان العاقل هو الوحيد الكفيل بتحقيق ذلك، وقد تجلت سمة الإنسان الكامل في شخص الأمير عبد القادر ذاته من

[1]– عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، مرجع سابق، ص12.

[2]– ودان بوغفالة وآخرون، الأمير عبد القادر عبقرية في الزّمان والمكان، مرجع سابق، ص147.

منطلق أنه استثمر مرحلة السجن والاعتقال في الإبداع الفكري والمعرفي، والكتاب الذي ألفه في السجن يشهد على ذلك.

من خلال التحليل السابق يمكن القول أن الأمير عبد القادر هو رجل إنساني والدليل على ذلك أنّه كان ذو روح حوارية حيث قبل أن يتحاور حتى مع الفرنسيين الذين جاؤوا من أجل استدمار الجزائر وعقد معهم معاهدات للصلح، وأقام علاقات دبلوماسية مع شخصيات مختلفة، كان ديمقراطيا مع شعبه وأحبه حتى الأسرى الذين انبهروا في إكرامه لهم وتواضعه معهم.

الفصل الرابع: قراءة تقييمية لمشروع الأمير عبد القادر المتصوف والسياسي.

المبحث الأول: مفهوم الدولة عند الأمير عبد القادر.

المبحث الثاني: الأمير عبد القادر المتصوف والسياسي.

المبحث الثالث: المشروع الفكري للأمير عبد القادر بين مؤيدين ومعارضين.

المبحث الأول: مفهوم الدولة عند الأمير عبد القادر

يذهب بعض الباحثين إلى الاعتقاد في أن حكم الأمير عبد القادر كان عن طريق تفويض إلهي، وهذا ما تنقله رؤية والده محي الدين،ففي فترةأدائه لفريضة الحج، حلم محي الدين بأن ملاكا وضع مفتاحا في يده، وأخبره أن يسرع بالعودة إلى وهران، وعندما سأله عما بهذا المفتاح أجابه الملاك: أن الله سيوجهك، وفسر محيي الدين هذا الحلم بأنه كرامة من كرامات الصالح عبد القادر الجيلاني اختصه بها لتولي وهران، وتكررت مثل هذه الشواهد الغامضة التي تشير إلى أن عبد القادر سيصبح ذا شأن في قومه[1]،فمحي الدين رأى رؤى عديدة فسرت أن ابنه عبد القادر سيصبح سلطانا على البلاد.

وتحدّتنا سيرة الأمير عبد القادر،أنّه فتح عينيه على لوحة القرآن يحفظ متنها أناء الليل وأطراف النّهار، وشب ملازما لتلاوة المصحف، وحين نهض الأمير عبد القادر بمسؤولية الجهاد وترأس الأمّة، كان القرآن عقيدته التي يشهرها للأمّة دوما، ومرجعه الذي يحكمهم به إماما، لقد كان يستفتح حركة حلّه وارتحاله بالقرآن، إذ كان يقبل على الاجتماع بحفظة القرآن، كان يخوض المعارك ولسانه وقلبه يلهجان به، وفي نكبة الأسر لم يجد له أنيس مثله [2]، كان القرآن يلازم الأمير الأمير عبد القادرفي أغلب تصرفاته وأقواله، وربما كان هنا متأثرا بالفكرة الدينية القائلة: لا خير في مجلس لم يذكر فيه اسم الله.

ويستعمل الأمير عبد القادر بصفة غالبا عبارة إن شاء الله، وهو بدون شك متأثر بالآية الكريمة التي تقول: ((وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ، وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا)) سورة الكهف: الآية 23-24، وهذا ما يوضح أنه كانت الآيات القرآنية ظاهرة في تصرفاته.

[1] – بسام العسلي ، الأمير عبد القادر الجزائري، مرجع سابق، ص 33.

[2]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، مرجع سابق، ص 78، 79.

كان حريصا على أن لا يصدر منه أي تصرف سياسي أو اجتماعي، إلا ويكون مطابقا لقوانين الدين في القرآن أو السنة أو اجتهاد الفقهاء[1]،إذ كان قدوة لشعبه في امتثاله للأوامر الإلهية.

لقد كانت واقعة الزمالة من أفجع ما عايش الأمير عبد القادر، ولو لم يكن إيمان الأمير عبد القادر قويا وثقته بالله راسخة، لكانت واقعتها هي الخاتمة المفجعة لمقاومته،إذ خرج من حال التفرّد والصمت التي لاذ بها، ليلقى بعض الكلمات على المجاهدين، قائلا "إنّه قضاء الله ولا رادّ لقضائه، إنّ الحمد للّه واجب علينا لما ابتلانا به، إذ جعلنا بهذا البلاء أكثر قدرة وأشدّ تصميما على مواصلة الجهاد، بعد أن لم يعد لنا ما نخشى على فقدانه"[2]، لولا الإيمان القوي للأمير عبد القادر،لما تمكن من مجاوزة محنة سقوط الزمالة في يد الاستعمار.

كما تميز بحُسن اختيار عُماله، فالخصائص التي كان الأمير عبد القادر يحرص على توفرها في العامل، هي أن يكون مشهورا بمعرفة أحكام الشريعة، وأن يكون ممن سجل مواقفا في النضال المسلح، ذلك بالإضافة إلى توفر فيه صفات الحزم، والفضل وحسن السيرة وقوة التأثير في القبائل التي ينتمي إليها[3]، كان الأمير عبد القادر، إذن،يختار عمال حكومته على أساس مبادئ دينية إسلامية، نذكر منها: أن يكون عارفا بأمور الدين ولاسيما قضايا الشريعة،وأن يكون شارك في المعارك ضد الاحتلال وعُرف بشجاعته، كما أن يكون ذو مكانة في القبيلة التي ينتمي إليها حتى يمكنه التأثير فيهم وتكون كلمته مسموعة لا تُرد، وهذا لن يتحقق إلا إذا كانت صورته في المجتمع نبيلة.

---

[1]– أوصديق فوزي، النظام الدستوري الجزائري – دولة الأمير عبد القادر دراسة تحليلية مقارنة –، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د(ط)، 1995، ص 16.

[2]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق، ص 223، 224.

[3]. إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت الأمير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر، ط2، د (س).، ص 221.

كانت مراسيم التعيين تشمل أداء المترشح اليمين على صحيح البخاري، بأن لا يعدل عن طريق الحق، والصّدق في أداء مهمته،" ذلك يصدر مرسوم التعيين الذي يحرره ديوان الأمير عبد القادر، ويختم في أعلاه بخاتم الإمارة منقوش في دائرته، ومن يكن برسول الله نصرته،وفي جوانب الختم عبارات الله، محمد، أبوبكر، عمر، عثمان، علي"[1]. إنّ الأمير عبد القادر كان يُحلّف مساعديه السياسيين على صحيح البخاري، كما أن خاتمه كان يحتوي على عبارة دينية.

من أجهزة الحكم التي اعتمدها الأمير عبد القادر لبناء الدولة نجد الوزارة، ومن الأدلة الشرعية التي تمّ الاستناد إليها "وأجازوا بهذا المنصب ماحكاه الله تعالى عن نبيه موسى عليه الصلاة والسلام: واجعلي وزيرا من أهلي هارون أخي أشدد به أزري أشركه في أمري. وإذا جاز ذلك في النبوّة، كان في الإمامة أجوز وقد ذهب لذلك الماوردي، هذا هو وجه الدليل الشرعي الذي ذهب إليه الفقهاء"[2]،إذن أسس الأمير عبد القادر الوزارة مقتديا في ذلك بالقرآن الكريم.

يحكي يوهان كارل بيرنت عن أسره فيقول: "وقوعي في الأسر(المدية) عندما تركت معسكر بوفاريك مع ألمانيين آخرين، لأقوم بجولة خارج المعسكر المذكور، وإذا بنا نرى سبعة من البدو مقبلين نحونا، ثم أدخلونا أحد الأكواخ وأمرونا بالجلوس وحملوا إلينا الخبز والحليب، وعندما رأوا أننا متعبون أشاروا إلينا أن ننام دون خوف، وأنهم يريدون أن يقودونا عبر الجبال الى مدينة المدية، وعند وصولنا الناس كانوا في كل مكان يسرعون من الأكواخ لرؤيتنا، إنهم لم يسيئوا معاملتنا على أي نحو كان"[3].

---

[1]. عوني أحمد وآخرون، الأمير عبد القادر مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، مطبعة دحلب، الجزائر، د(ط)، 1996ص68.

[2]. عوني أحمد وآخرون، الأمير عبد القادر مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، مرجع نفسه، ص73.

[3]. يوهان كارل بيرنت ، الأمير عبد القادر، مرجع سابق،تر: أبو العيد دودو، دار هومة، الجزائر ، د (ط)، 2009. ص 28، 29.

وقع يوهان كارل بيرنت أسيرا، وقد خاف كثيرا عندما قُبض عليه، لأنه لم يكن يعلم أن أسر المسلمين يختلف عن أسر المسيحيين، ففي أسره تمّ الترحيب به وقدم لهما هو بحاجة إليه من مأكل وملبس، وقد شهد بذلك وبحسن معاملة المسلمين له.

ويواصل كلامه فيقول: "استقبلونا بفرحة وإعجاب واضحين وأبعدوا عنا من تزاحموا حولنا، بلغونا أننا بين أيد أمنية،(...) ودخل الخليفة نفسه وجلس فوق الزرابي، وبعد أن تحدث مع قادتنا، وجه إلينا بعض الأسئلة عن طريق الأوربيين وطلب منهم أن يخبرونا أيضا بأنه لا خوف علينا، وأذكر بالمناسبة أن الجميع كانوا لطفاء معنا"[1].

تبينهذه الشهادة حكمة الأمير عبد القادر،وميله إلى التسامح، هذه الروح النابعة من الدين الإسلامي والأخلاق العربية، فمن خلال الاتصال بالآخر، سواء أكان هذا الآخر صديقا أم عدوا،نكتشف البعد الإنساني في شخصيته.

جسد الأمير عبد القادر موقف الدين في سلوكه الجهادي آخذا قدوة له الصحابي علي بن أبي طالب، حيث كان إذا ضرب عدوه في الجهاد لا يعاود له ثانية حتى ينظر ربما إنه مات من الأولى، "ودفع الضرر هو مقصود الشرع في الأمر بالقتال، فليس المقصود من القتال إتلاف العباد ولا تخريب البلاد ولا الرغبة في الأموال، وإنما المقصود به دفع ضرر الأمم المخالفة ورفع كلمة الإسلام بالقتال أو بغيره، ولو توهم حصول ذلك من غير قتال ولا دفع ما وجب القتال،كما إذا طاع العدو بدفع الجزية فإنه يحرم قتاله"[2].

[1]. يوهان كارل بيرنت ، الأمير عبد القادر، مرجع نفسه، ص 30، 32.

[2]. الأمير عبد القادر، المقراض الحاد، مرجع سابق، ص 200.

رفض الأمير عبد القادر أي قتال لم يكن غرضه درء المفسدة، وقد يتبين لنا من خلال هذه الممارسات النزعة الإنسانية التي شكلت في الدين الإسلامي، فالمسلم لا يتلذذ حتى في قتل الأعداء فلا يبدأ به إلا بعد عدم جدارة الجدال بالتي هي أحسن وحتى يعلن عليهم غيرهم القتال، لأن العدو يبقى إنسانا وخلقا لله، فالغرض من الجهاد هو قتل المفسدة، لكن إذا رجعنا إلى واقعنا اليوم نجد أن المسلمين يقتلون في بعضهم البعض ومثال ذلك العشرية السوداء، الثورات العربية في كل من مصر وليبيا... بل الأكثر من ذلك أصبح الابن يقتل أباه، كم نحن اليوم بحاجة إلى إحياء هذه الفكرة في مجتمعاتنا الإسلامية.

لقد حققت سياسة الأمير عبد القادر نتائج ناجحة "فالنظام العقابي الذي سارت عليه الجزائر في عهده... لم يخرج عن إطار الشريعة الإسلامية السمحة... يكفي القول أن حالات الفوضى واللاأمن التي سادت الجزائر... قد زالت إلى حد كبير... وامتلكت الجزائر في هذه الفترة جيشا منظما، ومؤسسات لها مصداقيتها في منظور الجزائريين، بفضل سيادة العدالة و القانون الذي يسري على الجميع"[1].

لقد شرّع الأمير عبد القادر قانون العقوبات الذي كان غائبا عند العديد من الدول في ذلك الوقت، والذي استمد نصوصه من الدين الإسلامي، وهذا الإبداع منه ساعده على الحد من الفوضى التي كانت منتشرة في المجتمع، فعمّ السلام والأمن، لأن كل فرد من أفراد المجتمع أدرك أنه من اعتدى على غيره أو أخذ حقا ليس حقه سيلقى جزاءه، وما ينبغي الإشارة إليه هو أن الأمير عبد القادر كان فطنا في تطبيق القوانين وكان يدرس مواقف مرتكبي الأخطاء والجرائم، حيث كانت متسامحا في بعض الحالات إذا التزم الأمر ذلك، فمثلا كان لا يطبق القصاص على العلماء وطلاب المعرفة فلربما نتيجة كثرة الأمية في المجتمع،

[1]. ودان بوغفالةوآخرون، الأمير عبد القادر عبقرية في الزّمان والمكان، مكتبة الرشاد، الجزائر، د (ط، س)، ص218.

كما أنه كان هو أحوج لهؤلاء فمثلا كان يُقحم في نشاطه السياسي أفرادا غير متعلمين لكثرة الأمية وليس هناك أشخاص كفؤ لهذا المنصب.

تتجلى نجاعة سياسته أيضا في نشره المحبة والتعاون والتآزر وتلك ما هي إلا أخلاقيات يأمرنا بها الدين الإسلامي، إذ يرى الأمير عبد القادر أنّه "إذا ظهرت على مدّعي محبته تعالى والسلوك إليه علامة الصدق وهي بذل ماله ونفسه تحقق صدقه في دعواه محبته تعالى، ومن ادّعى ذلك بلسانه ولم تظهر عليه العلامة، فهو إمّا كذّاب وإمّا دنيء الهمة... لأنّ الإنسان في الغالب قد يجود بجهاد نفسه بالصيام والقيام بأنواع الرياضات والمجاهدات ولا يقدر أن يجود بماله لما جبل عليه الإنسان من الشّح"[1].

كما يرى أن الإنفاق في سبيل الله ولا سيما لفقراء ومساكين الدولة هو جهاد أكبر ومحاربة للنفس الأمّارة بالسوء، وقد استقرت الأمور الجديدة، وبدأت تعمل جاهدة على إرساء قواعد الحكم النزيه على أسس متينة قوامها الدين الإسلامي وقواعده وأسسه الفاضلة، وكان أول عمل قامت به الحكومة هو الإعلان عن إلغاء المظالم،وأزال ما كان يعرف (بقبائل المخزن) فحقق المساواة بين كل المواطنين أمام القانون، وضبط نظاما بسيطا للحكم، وأنقص ما يمكن من الوسطاء بهدف الوصول إلى الأكبر، وأمّن السرعة في التنفيذ[2].

أول ما سعى الأمير عبد القادر إلى تحقيقه في حكومته الجديدة هو إرساء العدل، والمساواة، وإلغاء الضرائب التي كانت تُرهق بعض المواطنين دون البعض الآخر، كان عبد القادر، يجلس للقضاء بنفسه في صدر خيمته، وفي وضع شعائري، السبحة في يده والقرآن الكريم مفتوح أمامه على مقرأ، "وهو يصلي

[1]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، مرجع سابق، ص 219.

[2] – بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري، مرجع سابق، ص 37.

ويسير المحاكمة بالقياس، تدور في رأسه بكلّ رؤية، ماذا فعل النبي في حال مماثل؟ وفجأة يعطي إشارة حاسمة من يده، يعرف سَواسِيه تفسيرها، وينفذ الحكم في الحال، كما كانت قراراته في الأحكام الإجرامية لا رجعة فيها: الجلد، السجن، الإعدام، أما القضايا المدنية فتُحال إلى الفقهاء والقضاة والعُدول وفق القانون المحلي أو المذهب المالكي"[1].

كان الأمير عبد القادر يتولى الأحكام الجنائية لا المدنية التي يصعب الفصل فيها والتي يمكن أن يصل الجزاء فيها إلى الإعدام، ويمكن في الأمور المدنية إذا استعصى على الحاكم فيها الأمر أن يستشير الأميرعبد القادر، إنّه لمن نافلة القول التأكيد على أنّ الحرب التي خاضها الأمير ضد الفرنسيين كانت حربا ضدّ الكفّار، وأنّ المرجعية الثابتة في ضمير المجاهدين أثناء ذلك إنّما كانت سيرة السلف الصالح بدء بالرسول صلى الله عليه وسلّموأخبار المسلمين ووقائعهم في منازلتهم مع الأعداء، لاسيما في عهود الضّعف والانكسار، ولذلك كان أمامهم الأخذ بسنّة الهجرة واستنقاذ النفس والدّين[2].

ومن بين التجارب التي اعتمدها الأمير عبد القادر في مواجهة المستعمر، تجربة الرسول صلى الله عليه وسلم في مواجهة الكفار، فجهاده لم يكن ليخرج عن حدود القرآن والسنة، كما أدرك الأمير عبد القادر أن الحرب الفرنسية هي حرب دينية، لقد كانت مناهج التربية في الجزائر تُعطي الأهمية لتعليم وتحفيظ القرآن الكريم، لكن لما دخل الاستعمار لم يقبل بهذا المنهج التربوي، إذ كان التمادي في الإغراق على قراءة القرآن ومُحفظيه للأحداث مضرب الأمثال، كما كان الولدان أنفسهم يتنافسون في حفظه، حتى سرت عوامل الضعف وتتابعت الأحداث، ووفد الاستعمار على بلاد المسلمين مختفياً وراء ما يزعم من أصول

[1]. برونو إيتين، عبد القادر الجزائري، مرجع سابق،ص165.

[2]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق، ص 219.

التربية الحديثة، "وكأن هذه التربية شيء غريب عن الإسلام والمسلمين، وكأنه لم يكن في هذه الأمة مفكرون في أصول التربية، ولذلك فإن هذه التربية الحديثة لا تستقل على هؤلاء الصبيان شيئاً إلا أخدهم بحفظ كتاب الله"[1].

وهذا إن دل على شيءإنما يدل على رغبة الاستعمار في محو كل معالم الدين الإسلامي من عقول الشعب الجزائري،وذلك بالتركيز على جيل جديد،يتشكل خاصة من الأطفال، لتنشئتهم تنشئة مختلفة.

إن للفكرة الدينية دور في تأسيس الحضارة عند الأميرعبد القادر، حيث استفتى الأئمة في مسألة المعاملة مع الأوروبيين،"فقد وجدنا بعض الحواضر الجزائرية –منهم أهالي وهران وتلمسان– يستفتون الشيخ أحمد التيجاني في ذلك الشأن، ووجدناه يفتيهم بجواز التعامل معهم فيما يفيد المسلمين"[2]، فلا غرابة أن يمضي الأمير عبد القادر على هذا السبيل، على أنّ التجديد الذي تحقق له في هذا الإطار الفقهي التأصيلي هو طرحه لأوّل مرّة تقريبا مسألة المثاقفة مع العدوّ والتعايش معه والانفتاح على عالمه،ومن بين المسائل الجديدة التي واجهت الأمير عبد القادر،ويكون قد واجه فيها صعوبات كثيرة تتمثل خاصة في الكشف عن موقف الشرع فيها، مسألة الحوار مع الآخر، وبالأخص مع العالم الغربي المسيحي، يقول تشرشل في هذا المجال: "لم يتردد الأمير عبد القادرفي أن يطلب أن يكون كل مسلم مقيم في منطقة فرنسية يجب أن يكون تحت سلطته الشرعية هو فقط، وهو في هذا الطلب كان يسعى أن يطبق وينفذ مبدأ إسلامي، وهو أنه لا يجوز لأي مسلم مهما كانت الظروف، إذا أمكن أن يعترف عن طواعية أو يستسلم إلى حكم مسيحي"[3]، كان الأمير عبد القادر، تبعا لذلك، يرفض تبعية المسلمين للحكم الفرنسي، لأنه

[1]. بسام العسلي، الأمير خالد الهاشمي الجزائري، مرجع سابق، ص 192، 193.

[2]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق، ص 304.

[3]. إبراهيم مياسي، روح الأمير عبد القادر عبر المقاومة الجزائرية، مرجع سابق، ص 172، 173.

كان مؤمنا بفكرة إسلامية مفادها حرمة قبول المسلم بأن يكون تحت تصرف السياسة المسيحية حتى وإن كان يقطن بمنطقة تحت السيطرة الفرنسية.

اعتمد الأمير على رأي المفتيين في الكثير من الأمور، فقد أصدر مجلس الأمير عبد القادر فتوى تؤكد بوجوب الهجرة، وعدم مساكنة العدوّ، لذا وجدنا الأمير عبد القادر يبادر إلى ترحيل سكّان أرزيو ووهران ومستغانم وحتى تلمسان وغيرها لما كان يرى للمساكنة من إضرار بالجهاد[1]، لم يقبل الأمير عبد القادر بتبعية الجزائريين للفرنسيين ولذلك قام بتهجير الجزائريين من المناطق التابعة للفرنسيين، معتمدا في ذلك على فتوى ترحيل الأهالي، يقول الأمير عبد القادر في هذا المجال: "لقد تركتم بلادكم وأتيتم لتأخذوا الأرض التي وضع فيها محمد صلى الله عليه وسلّم شعبه، ولكن سلطانكم ليس فارسا ولا مرابطا ، وستتعثر خيولكم وتسقط عن جبالنا لأنها ليست ثابتة الأقدام كخيولنا وسيموت جندكم مرضا، وحتى أولئك الذين سينجون من المرض سيسقطون برصاصنا"[2].

أكد الأمير عبد القادر للجيوش الفرنسية أنه سيأتي اليوم لكي يعودوا فيه من حيث أتوا، فحاكمهم لا يعرف لا الجهاد الحق – الكفاح حتى الموت في سبيل نصرة الدين ودفع الظلم– ولا الدين الحق – دين محمد صلى الله عليه وسلم–لعبت مبادئ الدين الإسلامي دورا هاما في مكافحة وقتل مفاسد الأخلاق – قولا أو فعلا – التي كان يعاني منها الجزائريين عندما جاء الأمير عبد القادر ليحكمهم، فقد باتت النظم الاجتماعية نفسها تعرف تحوّلا، من خلال تصدّي المجتمع بتوجيه من الدّولة، لمحاربة الأمراض الاجتماعية من زنى وسكر وتدخين ما إلى ذلك، فالدولة توسّلت إلى إثبات حضورها الحيوي، عن طريق تطبيق

[1]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق، ص 188.

[2] – بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري، مرجع سابق، ص 51.

برنامجها التي أعلنته أوّل مرّة وهو تحكيم الشّرع، وتركت للأهالي مجال المشاركة والتفاعل البنّاء، اعتبارا من أنّ ذلك كان مطلبا جماعيا وقاسما مشتركا بين الأهالي جميعا[1]، أحسن الأمير عبد القادر في النهج الذي اختاره لتغيير الفساد الاجتماعي، إذ بيّن لأفراد المجتمع أنّ التغيير هذا يفرضه عليهم دينهم و لا يفرضه عليهم الأمير عبد القادر وبذلك لم يحسّوا بأي ديكتاتورية من أميرهم اتجاههم.

كما بين لشعبه أنّه لم تكن الرسالة محمد دعوة تهويس وإسعاف، ولكنها دعوة اتساع أفق وشمول نظر، فاستطاعت بذلك تلبية حاجة البشر كافة، وذلك لأنها الرسالة الوحيدة بين الرسائل التي لا مسخ فيها ولا إسفاف، ولا غش ولا إجحاف، وهي فوق هذا وذلك بدأت باسم الله الرحمن الرحيم وختمت بأنه رب العالمين، وجاءت رسالة الإسلام في وقت كان العالم كله في تأخر من جميع الوجوه، دينياً وعلمياً ومدنياً وسياسياً[2] ،من بين الأسئلة التي وُجهت للأمير عبد القادر والتي تسيء النظرة إلى الدين الإسلامي،نجد تلك الأسئلة التي وجهت إليه من طرف قسيسين فرنسيين، والتي فحواها أن الإسلام رسالة غير واضحة ومفهومة، إلاّ أن المسلمين يقدسونها ويدّعون أن لا تناقض بين الشريعة الإسلامية والحكمة، فردّ عليهم الأمير عبد القادر بكل تواضع وهدوء وبروح حوارية، أن ما جاء به الإسلام ليس غامضا وإنما هو دين عالمي لجميع الناس في كل زمان ومكان، وتميز عن الديانات الأخرى أنه محفوظ من التحريف، وبه تمكن المسلمون من تحقيق الحضارة الإسلامية في وقت كان الآخرون متأخرون رغم أن لهم ديانات، والأكثر من ذلك أنهم لم يُحققوا حضارتهم إلا عندما تم عقلنة تلك الديانات.

[1]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق، ص 42.

[2]. بسام العسلي، الأمير خالد الهاشمي الجزائري، مرجع سابق، ص 189.

لقد ظل هذا الاعتقاد سائدا يسلم به كل فرنسي بأن القرآن كتاب خطير، فهويتضمن مبادئ خطيرة، وذلك إثر اليقظات الإسلامية التي أصبحت تطل من الشرق والغرب، ولقد خاف هؤلاء أن تكون هذه اليقظات الإسلامية والحركات الاستقلالية هي أشعة من تباشير الصباح لمستقبل العالم الإسلامي الباسم، وحملة شعلة المعرفة والنور وتطبيق شريعة الله،ذلك هو مشعل النور الذي استمر الأمير عبد القادر في حمله وهو في غياهب سجنه[1].

إن الحرب التي قادها الفرنسيون ضد الجزائريين كان من بين أسبابها القضاء على الروح الدينية الإسلامية في نفوس المسلمون خاصة، وأنهم يدركون الكنز المعرفي الذي يحمله القرآن في ميادين متعددة، ولهذا خشِي الفرنسيون أن تُخطف الحضارة من أيديهم وتنتقل إلى العرب بصفة عامة والجزائريين بصفة خاصة، ونظرا لفهم الأمير عبد القادر كل تخطيطات الفرنسيين حاول الدفاع عن الدين الإسلامي حتى وهو مسجونا بفرنسا.

كانت دولة الأميرعبد القادر دولة عربية سلفية شريفة، لو انتصرت لكانت ستشكل خطرا عظيما على مخططات الصهيونية والماسونية في الشرق، وكانت أوّل دولة توحد العرب على كلمة الجهاد، بينما نهضة محمد علي في مصر كانت علمانية، ولذلك فدولة الأمير عبد القادر لم تضرب بالجيوش فقط، بل ضربت بالكنيسة، والماسونية وبالغزو الفكري والثقافي المصاحبين للغزو العسكري، لأنّ ما قامت به فرنسا من فتح المدارس الفرنسية وتشجيع الكنيسة الكاثوليكية يكفي دليلا على ذلك[2].

[1] . بسام العسلي، الأمير خالد الهاشمي الجزائري، مرجع نفسه، ص 197.

[2]. محمد الطاهر عزوي وآخرون، الزمالة العاصمة المتنقلة للأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 57.

إن الاستعمار الفرنسي استهدف الإطاحة بدولة الأمير عبد القادر. حتى وإن كان مشروعه نبيلا وهو النهوض بالشعب الجزائري، وهو مؤمن بأنه لا مانع من الاستفادة من العلوم والصناعة والثقافة الفرنسية والتعامل مع الفرنسيين شرط أن لا يمس العقيدة الإسلامية. لأنه في سياسته لا يفصل بين الدين والدولة، فهذه الأخيرة تسير وفق ما يمليه الدين الإسلامي، ونصوص دستورها منبعها الأول القرآن والسنة، وهذا ما يمثل خطر على الديانة المسيحية التي كان يحاول أنصارها أن تعم العالم، بالمقابل نجد محمد علي في مصر قد ساعده الانجليز في تحديث مصر لأن في سياسته التحديثية فصل بين الدين والدولة، إذن الحرب الفرنسية على الجزائر هي حرب دينية بامتياز، فالأمير عبد القادر في استفتاءاته لعلماء المغرب لم يكن ليصدر إلاّ عن تقليد شرعي وطّدته الحضارة الإسلامية يوم كانت مدينة واحدة يمارس علماؤها الاجتهاد لصالح الأمّة جميعا، وإنّه لأمر لافت أن لا نعني اليوم بالتجديد المعرفي الذي كان الأمير عبد القادر يومئذ يؤصّله من خلال استحداثه – تحت وطأة الضرورة طبعا – ما يمكن أن نسمّيه الفقه السياسي[1].

لقد اعتمد الأمير عبد القادر على الفقه السياسي في تسييره لقضايا أمته، والمقصود بالفقه السياسي هو معرفة موقف الشرع من القضايا السياسية، وسنرى أنّ قراراته وأحكامه الحربية نفسها ستتميز في عُمومها بحدّ جليّ من الاتّزان الذي كثيرا ما جنّبها الوقوع في الجنوح والاعتساف والشّطط، إذ ظلّت تقضي بمسطرة لا تخرج عن نصاب الحقّ والموضوعية، وكان ذلك يرجع إلى التزامه الصّارم بضوابط الشّرع، وهو أمر لا يتأتّى إلاّ لمن كان على حظّ عظيم من الرجاحة الروحية والنفسية، لا سيما في ظروف التفجّر ومجابهة الأعداء والخيانات[2]، ونظرا لمعرفة بيجو لأهمية الدين في توجيه نفوس المسلمين، فإنه زيادة على سياسته الحربية – سياسة الأرض المحروقة – اعتمد في بعض مواقفه السياسية على مرجعيات دينية،كإصدار فتوى

[1]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق، ص 302.

[2]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع نفسه، ص 111.

تبرر عدم جدوى الجهاد في حالة اليقين بقوة الخصم واستحالة الانتصار عليه، حين يصبح الأمر إلقاء بالنفس إلى التهلكة، فكان بيجو يرفق تهديداته للسكان بنسخه من هذه الفتوى تُقرأ عليهم، كما اتخذ خاتما بالعربية مسجل عليه:إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده"[1].

لقد أدرك بيجو دور الكبير الذي تؤديه الفكرة الدينية في تسيير ما هو سياسي،وجمع وتوحيد القبائل، أي أنه كان على دراية بأهمية الدين ومدى تأثيره في توجيه السلوك،ونظرا لمعرفته بأثر الدين تحصل على فتوىمفادهاأن أي أمةإذا ما استعمرت من طرف الأقوياء ويستحيل بالتالي تحقيق الانتصار عليهم، فينبغي، إذن، ترك الملك لهم.

عارض الأمير عبد القادر النظام الرأسمالي، إذ يقول: إن الذهب والفضة ليس لهما قيمة في حد ذاتهما، فما هما إلا وسائل تستعمل للحصول على كل ماهو نافع، وإنّ كل إنسان يعمل على اكتسابهما لحد ذاتهما وتكديسهما فإنه مخطئ ويمكن عقابه، إنّ تكديس المال بغير حدود يصبح نوعا من الربا، وقد استلهم الأمير عبد القادر نظرته هذه من القرآن الكريم الذي تنهانا آياته عن عبادة المال.

ما يؤكد انتشار الدين الإسلامي في دولته هو نجاحه السياسي إذ يقول: "فرغم وجودي بين شعب يعيش تحت الخيام، فقد استطعت أن أصل إلى عهد أصبحت فيه سرقة الخيول بالليل غير معروفة، وأصبحت المرأة تستطيع الخروج وحدها دون أن تخاف المهانة، وعندما يعلق الناس على هذه النتيجة الكبيرة

[1]. محمد الطاهر عزوي وآخرون، الزمالة العاصمة المتنقلة للأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 78، 79.

ويطلبون السبب كان العرب يجيبون: (إن مصائد السلطان منصوبة وليس هناك حاجة لنصب مصائدنا الخاصة)، ولو شاء الله لانتهيت بإعادة العرب إلى طريق القرآن الذي ابتعدوا عنه كثيرا"[1].

ومن بين نتائج سياسة الأمير عبد القادر هو أنه شاع السلم، وأصبحت المرأة قادرة على أن تخرج بمفردها، وأصبح الجزائريون لا يحتاجون لحماية أنفسهم فسلطانهم قد حماهم بقوانينه التي هي نصوص من الدين الإسلامي،كما حدد الأمير عبد القادر تصوره للدولة وفلسفتها في مختلف مجالاتها على أن لا تخرج عن إطار الشرع الإسلامي[2].إذن لقد حقق الأمير عبد القادر الأمن والراحة لشعبه التي طالما افتقدها في الحكم العثماني.

[1]– بسام العسلي ، الأمير عبد القادر الجزائري ، دار النفائس، لبنان، د (ط)، 2010، ص59.

[2]. عوني أحمد وآخرون، الأمير عبد القادر مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، مرجع سابق، ص 78.

المبحث الثاني:

الأمير

عبد

القادر المتصوف والسياسي

إذا كانت السياسة تتعلق بالمصالح الدنيوية والعالم الدنيوي، والتصوف يتطلب الزهد عن الدنيا بكل ما فيها وهو يتعلق بالعالم الأخروي، فإلى أيّ مدى تمكن الأمير عبد القادر من الجمع بينهما في شخصيته وحياته؟

إن الإسلام كما فهمه الأمير عبد القادر ليس هو إيمان جواني ذاتي يتجلى في الخلوة والتعبد والزهد فقط، بل هو إيمان فياض له دور في تحقيق النهوض بالمجتمع وحل مشاكله، وحقق الأمير عبد القادر هذا الفهم للإسلام في حياته، حيث كان رجلا سياسيا ومتصوفا، فعمله السياسي هو لوجه الله، فالإسلام كما استوعبه الأمير عبد القادر ليس مجرد إيمان تنتج عنه حياة روحية مجردة، بل على العكس فالحالة الروحية الناتجة عن الإيمان هي قوة روحية واجتماعية وحضارية، فمن هذا المنظور ربط بين الدين والسياسة ويتجلى ذلك في حربه الطويلة ضد الاحتلال وفي محاولته تجاوز القبيلة وتأسيس الدولة على القيم الإسلامية المتمثلة في زوال ذاتية الفردالحاكم ونزواته وتأسيس السلطة على الإرادة الشعبية[1].

من بين أفكار الأميرعبد القادر السياسية،نؤكدعلى فكرة نزع الروح القبلية، وتوحيد أفراد المجتمع،وجعلهمكالجسد الواحد، لقد ترفع الأمير عبد القادر عن شهوات الدنيا ونزواتها، فلم يكن يقبل بإقامة علاقات الحب مع الفتيات، لأنه كان زاهدا من جهة ومن جهة أخرى شغلته أمور السياسة كثيرا، وقد روي أنه أحب حين كان شابا يعيش في خيمة أبيه فتاة عربية جميلة وعندما أصبح سلطانا تنكرت في لباس زنجي واقتربت منه في قصره وكأنها تريد مبايعته، ثم سألته وهي تقبل يده عما إذا كان لايزال يعرفها

[1]- بوعرفة عبد القادر، الأمير عبد القادر وإشكالية الدولة الوطنية، مرجع سابق، ص14، 15.

ويحبها؟ فأخبرها أنه يعرفها ويحبها،ولكن الأوضاع الراهنة وواجباته بصفته سلطانا تمنعه من ذلك، فمن حق كل إنسان أن يحب ماعدا السلطان الذي يجب عليه أن يتحرر من جميع النزوات[1].

لقد كان عبد القادر معارضا لكل المصاريف التي تصرف فيما لا فائدة فيه، حتى أن المبلغ الذي اعتاد المسلمون أن يخصصوه للاحتفالات والمهرجانات في أهم الأعياد الدينية وجهه هو إلى أغراض خيرية، "ففي مناسبة ختان أحد أبنائه استغرب أهل بروسة أنه بدلا من المسيرة الغالية المعتادة، كان هناكجمع من الفقراء مجتمعين أمام منزله يتلقون من يديه هدايا الخبز والملابس والنقود"[2]،فقد فضل أن يصرف أموال حفل ختان ولده في سبيل الفقراء والمساكين الذين دعاهم في ذلك اليوم.

وكان الناس يلجؤون إليه في حل مشاكلهم وخصوماتهم فيصلح بينهم، وكان يعطي من ماله إذا ما تبين له عجز الذي يحكم عليه عن الأداء[3]. فالأمير عبد القادر لم يكن يطمع في المحْكوم عليه أن يعطيه أموال الرشوة ليبرأه من الحكم.

يقر كل كتاب سيرته بما فيهم الفرنسيون أنه كان نزيها، وأنه كان يملك أقصى درجات الشعور بمكانة وقيمة الأموال العامة، وكل ميزاته كانت في القانون العام لكي يتخذ منه مثالايُحتذى، فيذكر خصوصا أنه لم يسحب أبدا من الأموال للإنفاق على شؤونه الخاصة، وأنه كان دائما يرجع إلى الخزينة العامة كل الهدايا التي كانت تقدم له لأنه كان خادما وفيا للدولة وليس لمصالحه الخاصة[4].

---

[1]. يوهان كارل بيرنت ،الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 74.

[2]. شارلز هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 348.

[3]– الأمير عبد القادر، بغية الطالب على ترتيب التجلي بكليات المراتب، منشورات محمد علي بيضون، لبنان، ط1، 2004، ص 22.

[4]. عبد القادر بوطالب، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، مرجع سابق، ص 89.

كان تديّن الأمير عبد القادر قائما على أسس التصوف، كما أن أشعاره كانت زاخرة بإشارات واصطلاحات المتصوفة ولم يخل كتاب المواقف من نفحات الوحدة والحلول، إنّ التصوف عند الأمير عبد القادر هو ذلك الجهاز التنظيري التجريدي، الفلسفي والسلوكي العلمي، والذي تمكن من الربط البنيوي والهيكلي بين مضامين التصوف وحركية الجهاد.

عُرف الأمير برغبته في الترحال والتجوال، لا للتعرف على أرض الله فقط وإنما أيضا لاكتساب المعرفة، فرحلاته كانت ثقافية علمية ولاسيما في علم التصوف، إن التصوف عند الأمير عبد القادر يتجلى في جانبين: الجانب النظري والجانب العملي، فالأول يتجلى في تجربته الروحية وما وصل إليه من إشراقات وأفكار فلسفية، والثاني يتجلى في تطبيق تلك التجربة والأفكار على أرض الواقع، أو معالجة مشاكل الواقع ولاسيما ما يتعلق بأمر الجهاد عن طريق توكيل أمره لله والانتظار الإلهام الإلهي.

رحلات الأمير عبد القادر جعلته يكتسب خبرة سياسية وروحية واسعـــة، ولنذكر في هذا الصدد سياحاته صُحبة أفراد من أسرته إلى البقاع المقدّسة،لنعرف الوازع الروحي القوي الذي كان حاديه إلى سلوك ذلك الطريق الذي لم يكن كلّه زهدا صرفا بقدر ما كان مزيجا متوازنا من العبادة الخالصة والسّماحة المدنية الرّشيدة، وهو ما أورث سجايا نفسية وروحية ومدنية لخلقته،سنجد شخصية الأمير عبد القادر تتحلّى بها وتقيم عليها عمود تماسكها وصلابتها رغم تقلبات الدّهر، فجائعه ومسرّاته على السّواء[1]، فرغم تغير حاله من الفرحة إلى الانكسار، ومن الانتصار إلى الانهزام، والانتقال من مرحلة القوة إلى مرحلة الضعف فإنه لم يزحزح شيئا من إيمانه بالله.

[1]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق ،ص 94.

بعد سقوط الزمالة، تلك العاصمة المتنقلة التي أسسها، والتي توحي بالمجهودات الجبارة التي بذلها في مختلف الميادين السياسية، والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وبالتالي ضياعها يعني فقدان مركز الدولة ومنبعها مما يعني فشل الأبعاد التي كان يطمح إليها،فرغم أن الصدمة النفسية التي تركها سقوط الزمالة كانت شديدة عليه، فقد واجه الموقف بصبر وثبات، إذ عزى رفاقه بالكلمات التالية: كل شيء كنا نحبهوتعلقت أفكارنا به كان يعوق حركتنا، والآن صرنا أحرارا لجهاد الكفار، مافقدناه من رجال فنحن نعلم أنهم شهداء، وأما الأموال فسيخلفها علينا الكريم الوهاب"[1]، وأخذ في إرسال جيوشه بهجومات سريعة تعيد الاعتبار لمركزه، وتثبت للعدو أنه لا يزال بإمكانه التصدي له.

فلولا تلك الروح الصوفية التي ميزت شخصية الأمير عبد القادر، لما استطاع النهوض من نكسته إثر سقوط الزمالة، وذلك بالرضا بقضاء الله وقدره، وكلّ هذا ساعده ليُواسي المتضررين معه ناظرا إلى الأمر هذا لا من ناحيته السلبية وإنما من الناحية الإيجابية حيث أكد لرفقائه أنّ ما حلّ بهم فيه الخير فمن اليوم فصاعدا يمكنهم مواجهة الاستعمار دون الانشغال بالعاصمة المتنقلة وما هو موجود فيها، فقد أصبحوا أكثر تحررا.

راسل الأمير عبد القادر محمد الحسناوي يحثه على الثبات في الجهاد:

"أيه الفارس المجاهد الصابر المكابد اسمع أسمعك الله خيرا ووقاك بلطفه خيرا إن الجهاد شعار الأنبياء وحرفة المؤمنين الاتقاء فأحمد الله الذي أرشدك إليه وسَله أن يثبتك ويعينك عليه ألم تعلم أن الله يقول لصفوته وخيرته فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به بعد أن قال أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم

[1]. محمد الطاهر عزوي وآخرون، الزمالة العاصمة المتنقلة للأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 74.

بأن لهم الجنة، ولقد مدح الله الجهاد والمجاهدين في غير ما آية، وذكر ما لأهله من الفضل والعناية"[1]، فلم يكن الأمير عبد القادر يُواسي نفسه فقط لتحمل متاعب الجهاد بل كان أيضا يُواسي المجاهدين، مؤكدالهم أنّ المجاهد في سبيل له الأجر الكبير، فرسائل الأمير عبد القادر ذات الموضوع السياسي كانت تدل على أنه متشبع بالروح الصوفية.

كان على الأمير عبد القادر أن يستلهم النهج الحياتي والمدني الأكثر مناسبة للأمّة كي يخرجها من تردّيها، لذلك رأيناه يرجح وجهة الجهاد الأكبر التي رآها السبيل الأقوملأمّة كي تستعيد أهليتها للحياة، وكان يسترشد في تقرير ذلك الاختبار. ليس فقط ما لحقه من انكسار نفسي وروحي استوجب منه أن يتداوى معنويا ويسعى لجبر كسور النفس بكلّ سبيل- ولكنّه كان يسترشد تعاليم القرآن العظيم نفسها وتقريرات السنة النبوية الشريفة[2]، أي أنه اتخذ الجهاد الأكبر ونواهي وأوامر القرآن والسنة كمنهج لتحقيق الانتقال من ضغط الصدمة إلى تقبلها ومواصلة الجهاد وتحقيق الحضارة.

كان الأمير عبد القادر رجلا زاهدا رغم توليه أعلى المناصب السياسية، فهو محارب مقدام لا تجده إلا متقدما أمام الجميع، وهو في نظر البعض مجاهد يطلبالموتلتوهبله الحياة، ولذلك لم يكن بحاجة إلى حراس ولا بوابين، كان بسيط اللباس والأكل والمظهر، وآن التواضع والزهد والذكاء والحزم من سماته، "وكان في إمكانهأكل (الكسكسي) تحت أية خيمة (وهي أكلة جزائرية مشهورة)، وآن يشرب من أي نهر ومن أي كوب يشاء دون أن يخاف سما، وأن يضع رجله حيث يشاء دون أن يخش كمينا"[3].

[1]. يحيى بوعزيز، مجلة الأصالة، العدد 1، جامعة وهران، 1976، ص37.

[2]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، مرجع سابق،ص 217.

[3]. إبراهيم مياسي، روح الأمير عبد القادر عبر المقاومة الجزائرية، مرجع سابق، ص 171.

إن قبول الأمير عبد القادر المنصب السياسي المتمثل في إمارة وطنه، والأخذ على عاتقه مهمة الجهاد ضد المستعمر هو تلبية لواجبه الديني وطاعة لله ورسوله، وتم اختياره ليكون عضوا في المجلس البلدي لمدينة دمشق، لكن الأمر المستجد هو فكرة قديمة طالما كانت تراود الإمبراطور نابليون الثالث، ألا وهي فكرة إقامة مملكة عربية في سورية لجعلها خارج دائرة السيطرة العثمانية، لكنه رفض تماما هذه الفكرة وكان جوابه: حاربت فرنسا خمسة عشر عاما لأنني اعتبرت أنّ تلك إرادة الله،وأتممت واجبي تجاه بلادي وشعبي وآنا عازم اليوم على تكريس ما بقيلي من وقت للعبادة[1]، ولما طُلب منه وأُلحّ عليه من طرف الدمشقيين ونابليون الثالث أن يكون عضوا سياسيا رفض ذلك، وهذا ما يدل على عدم قبوله المناصب السياسية مهما كان مستواها ودرجتها، يقول الأمير عبد القادر: "لم أتقدم لتولي مسؤولية الحكومة بمحض الطموح أو الرغبة في السلطة والجاه أو حبا في ثروات الدنيا، ولكن (والله وحده يعلم أسرار القلوب) لأحارب في سبيل الله ولأحقن الدماء بين المسلمين، ولأحمي أملاكهم،ولأمهد البلاد كما تقتضي ذلك الغيرة على الدين والوطنية ومنذ تحملنا المسؤولية ونحن متنقلين مرة نقود المعارك وأخرى ننظم شؤون الدولة "[2].

أكد الأمير عبد القادر مرات عديدة في خطاباته أن توليه الإمارة ليس طمعا في مال ولا جاه، وإنما تلبية لواجب ديني متمثلا في توحيد صفوف المسلمين وكذا المحافظة على أرضهم ودينهم.

كان الأمير عبد القادر مهتمّا منذ صغره بالأمور الدّينية، لكن وجد نفسه في شبابه أمام المسؤولية السياسية، حيث أنّ الأسرة كانت تُهيّئ الفتى لأن يكون شخصيّة مدنيّة ينحصر نشاطها ضمن دائرة الزّاوية وبثّ التعاليم القرآنية بين فِئات ذلك المحيط الأهلي الذي كان يرتبطبالزّاوية روحيّا وثقافيا وأخلاقيا، لقد

[1]. جورج الراسي، الدين والدولة في الجزائر من الأمير عبد القادر... إلى عبد القادر، مرجع سابق، ص 62، 63.

[2]. محمد الطاهر عزوي وآخرون، الزمالة العاصمة المتنقلة للأمير عبد القادر، مؤسسة الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 95.

اختار له القدر أن يَضْحَى رجل حرب وقائد دولة ووجها إنسانيا كونيا ذائع الصّيت، بما عانى من ابتلاءات في سبيل الوطن لتخليصه من نير الاحتلال[1]، لفقد كانت أمنية الطفل عبد القادر هو أن يكون متصوفا عابدا زاهدا، لكن شاءت الأقدار أن يكون أميرا رجل سياسة، وبعد مبايعته خاطب جمهوره قائلا: "إنني قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه، مؤملا أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين، ورفع النزاع والخصام بينهم، وتأمين السبل ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة وحماية البلاد من العدو، وإجراء الحق والعدل نحو القوي والضعيف فلذلك ندعوكم لتتحدوا وتتفقوا جميعا، واعلموا أن غايتي القصوى: اتحاد الملة المحمدية والقيام بالشعائر الأحمدية، وعلى الله الاتكال في ذلك كله"[2].

أكد الأمير عبد القادر لشعبه أثناء بيعته أنه لم تكن لديه أيّ رغبة في أن يكون أميرا للبلاد، وإنما رضي بالأمر إلا من أجل توحيد المسلمين وساستهم وفقا لأوامر الدين الإسلامي، ولو كان الأمير عبد القادر مجرد مغتصب عادي للسلطة، لما كلفه الأمر أكثر من مد يده والاستيلاء على صولجان المغرب، "ولكن دافعه الحقيقي كان الوطنية وليس الطموح، لقد رفع السلاح من أجل حرية واستقلال الجزائر وكانت كل أفكاره وعهوده وصلواتهموجهة ومكرسة لخدمة وطنه الأصلي، وليس هناك دعوة للعظمة تستطيع أن تجعله يحيد عن مجال عمله الشرعي، لقد كان يكره أن يضع على رأسه تاجا مستعارا"[3].

لم يكن الأمير عبد القادر يهدف إلى أن يكون يوما ما حاكما، والدليل على ذلك لما عُرض عليه لأن يتعدى على جزء أرض من المغرب ويجعله تابعا له رفض ذلك، وأكد أنّ حكمه لوطنه الجزائر هو غيرة

[1]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق، ص165.

[2]. ودان بوغفالة وآخرون، الأمير عبد القادر عبقرية في الزّمان والمكان، مرجع سابق، ص155، 156.

[3]. شارلز هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر،مرجع سابق، ص 290.

عليه أن يكون في أيدي الاستعمار وهذا يُؤكد رجولته فلم يكن خنوعا يقبل رؤية وطنه يُستولى عليه وهو مكتوف اليدين، ولذلك صرف مدة حكمه في اتباع ما يُمليه عليه الشرع الإسلامي.

لقد أعاد الأمير عبد القادر قراءة النصوص القرآنية بروح يغلب عليها الطابع الصوفي، وصلت به إلى معارف جديدة تختلف عن التفاسير السابقة، التي كان يقرأها ويعمل بها قبل وصوله إلى درجة العرفان، فقد انصرف إلى الروحانيات،واسترواح آفاق المعرفة انطلاقا من تفعيل الآيات القرآنية على نحو أبلغ في العمق، وتلك وظيفة لجوئية لم تعطّل قابليته في العطاء، ولم تجعل لسلطان الاستغراق التعبّدي وحده والإخلاد إلى الخلوة والانقطاع عن الحياة، بل لقد استجابت كوامنه للأوضاع من حوله وتكيفت معها في ضوء يقظة نفسية وروحية متفتحة على الشاغل الكوني والعالمي، يقظة لها قابلية المشاركة والتحاور[1]، إن القراءة الصوفية للآيات القرآنية من طرف الأمير عبد القادر لم تمنعه من التواصل مع الواقع المعاش ولاسيما ممارسة العمل السياسي، والتحاور مع مخلوق الله الإنسان.

رأى الأمير عبد القادر في القراءة الصوفية للقرآن الكريم الأمل للوصولإلى المعرفة الجديدة المساهمة في تحقيق التحضّر،وتلك المحاولة تطورت مع رواد الإصلاح والنّهضة، إنّ التجربة المعرفية كما لابسها الأمير عبد القادر كانت مسعى يستهدف للخروج من الركود الحضاري البائس، وقد جعلت منهج تثوير الإشارة القرآنية فهما وتجديدا مناط نجاحها في بُلوغ تلك الغاية السامية، على الرغم أنّه لم يكتب لتلك الدعوة أن تتكرّس على صعيد الواقع في صورة أفعال وتغييرات إلاّ على تلك الصورة المتدرّجة التي عرفتها حركة الإصلاح الحضاري في الأقطار الإسلامية، فما ينبغي الإشارة إليه هو أنّ الفضل يعود للأمير عبد القادر في

[1]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكر،مرجع سابق،ص 11.

بعث روح التحضّر، واعتماده على فهم القرآن كسبيل لتحقيق ذلك، وبهذا يكون قد سبق الغرب في تحقيق الحداثة التي وصلوا إليها عن طريق تحديد فهم النصوص بتأويلها اعتمادا على مناهج معاصرة.

ما مفهوم السياسة عند الأمير عبد القادر وهل يرى أنه يجب فصل السياسة عن التصوف؟

يجيب أنّ السياسة هي إحدى دعامات الحياة الاجتماعية على هذه الأرض، وهي قبل كل شيء روح ترابط، تهدف إلى تضامن أعضاء المجتمع،والواقع لا يوجد تناقض بين الدين والسياسة، وعلى الإنسان للوصول إلى كامل وسائله التحلي بسلوك اجتماعي ينزع إلى الكمال، والأخلاق حينئذ تقوم على فضائل أربع: الحكمة، العدل، الشجاعة، القناعة والإنسان يخطأ نتيجة النقص وعلى الحكماء أن يساعدوه لتجاوز هذا الخلل[1]،يرى الأمير عبد القادر أن السياسة ضرورة يفرضها الاجتماع البشري، فالإنسان الناقص يعتمد على الحاكم الذي هو الإنسان الكامل ليسوسه، وقد ربط الأمير عبد القادر بين الدين والسياسة حيث اعتمد على القرآن والسنة في ساسة مجتمعه، كما ربط بين السياسة والأخلاق فمن جهة شُهد له بمكارم الأخلاق منذ الصغر، ولهذا تم بيعته لتولي الحكم، ومن جهة أخرى كان هدفه القضاء على مفاسد الأخلاق كالخمر، السرقة.

إذا كان الأمير عبد القادر جمع بين السياسة والتصوف بالإضافة إلى اعتماده على شيوخ الزّوايا في هيئاته الحكومية يعني أنّ حكمه تيوقراطي وهو ترويج وبث للطريقة القادرية في شعبه؟

[1]. يحي بوعزيز، مجلة الأصالة، العدد 1، جامعة وهران، 1976، ص178.

من مبررات اختياره رجال الدين لمساعدته في حكم البلاد نذكر "نتيجة إخلاصهم وتربيتهم النبيلة وخدمتهم للمجتمع... بل استعان بجميع من يكتسب مؤهلات... والدولة الإسلامية دولة العلماء والمجتهدينفمن شعارها العلم والعمل والإيمان"[1].

من بين المبادئ التي اعتمدها الأمير عبد القادر في اختيار موظفي حكومته هي: الدين والعلم.

إنّ مراحل حياة "عبد القادر الجزائري" تبرهن على اعتماده على الدين الإسلامي في كلّ شيء "لأنّه مدرك أنّه هو وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى ما هو خير بالذّات"[2]، وهذا ما دلّ إلاّ ويدلّ على إيمانه القويّ بالدين الإسلامي وبمبادئه ولهذا استخدمه في تنظيم كلّ أموره منها الحربية والسياسية.

يرى المارشال فالي إن سيرة عبد القادر مطابقة للطبع الذي أبداه دائما، طموح،فهو ينتهز بكلّ تعجل جميع الفرص لتوسيع سلطانه وبلوغ الهدف الذي تنزع كلّ جهوده لتحقيقه والمتمثل في طرد الفرنسيين من تراب الجزائر وإقامة دولته من حدود المغرب الأقصى إلى حدود تونس[3].

فالحرب بين الجزائر وفرنسا لها مرجعيتها الدينية، حيث أن من بين أهداف الفرنسيين في الجزائر هو تمسيح الجزائريين، ولابد أن يرفض الأمير كسياسي مسلم هذا الأمر بل هو الآخر يسعى لتبيين المزايا الفاضلة لهذا الدين، وهذا ما أظهره من خلال معاملته للأسرى، كما كان يسعى جاهدا لاسترجاع أرض الجزائر، وإقامة الدولة الجزائرية المستقلة المتحضرة.

---

[1]. عوني أحمد وآخرون، الأمير عبد القادر مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، مرجع سابق، ص86.

[2]. الأمير عبد القادر، المقراض الحاد، مرجع سابق، ص 218.

[3]. محمد الشريف السحلي، تع: حبيب شنيني، الأمير عبد القادر أباطيل فرنسية وحقائق جزائرية، دار القصبة للنشر، الجزائر، د(ط)، 2003، ص 117.

كما عُرف الأمير عبد القادر بصبره، فإن التخلي المفاجئ – لبعض قبائله – الذي تعرض له الأمير عبد القادر– كان يمكن أن ينهك طاقات إرادة ضعيفة ويشل عزيمة أقل من عزيمته صلابة، ولكن هذه الحساسيات لم تعد تؤثر فيه منذ زمن طويل، فهو يعلم متى ابتسم الحظ يستطيع بتلويحة واحدة من سيفه أن يعيد المترددين والثائرين عنه راكعين أمام قدميه[1]، فقد كان يرضى بقضاء الله وقدره حتى وإن تعرض للانكسارات المتتابعة، ومثال ذلك الخسارة في الحرب ومن بعدها ترك بعض القبائل الجزائرية له، ففي هذه الحالة هل سيفكر في نسيان الهزيمة، أم في كيفية مجابهة الاستعمار بخطط جديدة، أم التفكير في كيفية التعامل مع هذه القبائل حتى تتخلى عن موقفها؟ فرغم كل هذه الظروف البائسة المحيطة به إلّا أنه كان مؤمنا بأنه لابد أن يأتي اليسر بعد العسر.

كان هدف الأمير عبد القادر من تولّيه أمر الإمارة هو تأسيس الدّولة الإسلاميّة الحديثة الحرّة، إذ لم يكن يتحرّك كزعيم سياسي أو قومي من أجل استزراع نظام اجتماعي مُستورد يريد أن يُكيّف الأهالي على الأخذ به وتنميط أحوالهم الحياتيّة والرّوحية عليه، ولكنّه صدع فيهم من أوّل لحظة بأنّ مرجعيّته ستكون الكتاب والسنّة وأنّ شريعته هي شريعة القرآن، وبذلك حَسم في اختيار العقيدة التي سيسير المجتمع على وفقها، وأزال تقريبا من الطّريق الموانع التي يمكنها أن تعترض على المشروع الوطني[2].

وقد اِختار الأمير عبد القادر الدّين الإسلامي كمنهج لتسيير أفراد المجتمع في مُختلف الأمور لأنّه هو دين هذه الأمّة ومرجعيّتها، ولم يلجأ إلى مبادئ سياسية أجنبيّة غريبة عن تكوينة هذا المجتمع.

[1]. شارلز هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص147.

[2]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق، ص41.

كما وعى أنّ الوسيلة الوحيدة للتحرر هي المعرفة والدين الإسلامي حيث يؤكد على ضرورة العلم وبالدرجة الأولى العلوم والقيم الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فتَزَوُّد الإنسان بالمعرفة الدينية الإسلامية تجعله مصيبا في تصرّفاته، متميّزا بحسن معاملته وتصرّفه مع غيره، قادرا على تسيير أموره وكذا مجتمعه.من خلال تحالف ودّي مع الشّعب العربي حيث يكون محور هذا التّحالف الأمير عبد القادر باعتباره رمزا نافذا لا جدال فيه [1].

نظرا للمكانة السياسية للأمير عبد القادر لا في الجزائر فقط بل حتّى في الشّرق العربي، فإنّه لما أراد الإنجليز توسيع سياستهم في العالم فلم يتّصلوا بأي حاكم عربي غير الأمير عبد القادر لأنّهم يرون أنّه هو ملك المملكة العربية.

لم يكن الأمير عبد القادر في أموره السياسية مُتَوَاكِلا بل كان يصاحب تَوَكُّلَه على الله أعماله الشجاعة، على الرغم من أنّ "الاعتقاد الجاري والسائد الذي يرى في الزاهد كائنا خاملا يروّض الخوف الفيزيائي بفضل الإرادة، وقد كانت الشجاعة لدى الأمير عبد القادر تكتسي جميع مظاهر الجرأة، ولكنّها ليست بغريزة عمياء تتجاهل الخطر إنّها سَجِيّة جريئة رديفة إرادة مُتَّزِنَة وعقلانية[2]، لم يكن الأمير عبد القادر قائدا وأميرا يكتفي بالتخطيط للحرب، بل كان متصوّفا ومحاربا متقدّما الجيش الجزائري في مواجهته للاستعمار الفرنسي وهذا ما يعكس تصوّفه العملي.

دراسة الأمير عبد القادر للتصوّف وارتياضه على أحواله وسوانحه، جعلته يقيم فلسفة على أسس تمازج فيها العقلاني والرّوحاني وكذلكالوجداني وهو ما أعرب عنه وجسّده في كتابه المواقف، إذ "هي فلسفة

[2] - Charles-HenryChurchill , la vie d abd el-kaderanep, editionsRouiba, Alger, 2008 , p1

[2] . محمّد الشريف سحلي، الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص75.

أقامت مادّتها من اطّلاع ثقافي فكري واسع استوعب فيه أرضيّة التراثبشتّى مناحيه الأدبيّة والدّينية والصوفية، ثمّ جعل من ذلك الاستيعاب رؤية أصلها تنظيرا وإبداعا، وأودعها عقيدته الكشفيّة المعقلنة"[1].

إذن من ميزات تصوّف الأمير عبد القادر أنّه عقلاني روحاني وجداني، وذلك هو حصيلة اطّلاعاته الفكريّة وكذا المعارف التي فتح الله عليه بها.

وهو غير متطرف في تصوفه، فقد مارس الجهاد الأكبر منذ عودته من الحج، ونادى بمجابهة النفس، والصراع ضدها، والجهاد الشخصي، كان يدرس ليتعرّف على ذاته، ويصارع الأهواء، غير أنه كان زوجا حنونا ودودا، وأبا يقظا لم يكن متزمتا في الدين، يمارس التقشف والتأويل، ويصوم غالبا، ويدرس دائما ويستشير، ويشرح، لكن لم يكن له مظهر النساك المنقطعين عن الدنيا، بل إنه منفتح على الحياة مقبل عليها بحيوية ويقظة[2]، فالأميرعبد القادر كان رجلا زاهدا متعبدا حريصا على تمتين علاقته بربه، لكن من جهة أخرى كان ملتزما بعلاقاته الدنيوية ولاسيما تلك التي تربطه مع أفراد عائلته.

يمكن القول أنّ الأمير عبد القادر،تبعا لما سبق،نجح في التوفيق بين الحياة الصّوفية والسّياسية، أي أمور الدين والدنيا، فقد كان مؤمنا بأنّه من المبادئ الدّينية هو الخلافة الأمينة للبلاد ولذلك كان لا يصدر أيّ أمر سياسي إلاّ ويكون مشروعا في الديانة الإسلاميّة أو أَلْهَمَهُ الله بجوازه وضرورته، لأنّه تعلّم من دينه الإسلامي أنّ الحاكم السياسي عليه أن يحكم نفسه ويربّيها قبل تولّيه مسؤوليّة حُكم أنفس غيره، في حين

[1]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر الشّاعر. مدخل إلى تحليل الخطاب الشّعري في محطّة المابعد . ، دار الغرب، وهران، ط2، 2004 ، ص 50، 51.

[2]. برونو إيتين، عبد القادر الجزائري، مرجع سابق، ص132.

أنّ الكثير من السياسيين اليوم يظنّون أنّ السياسي الفَذّ هو من يتولّى الحكم لأطول مدّة ممكنة يُحَقِّق فيها مصالحه ويفرض فيها سيطرته على غيره.

إنّ النّزعة الصّوفية للأمير عبد القادر وزهده وحُبَّه لوطنه وغناه الروحي جعله لا يستخدم منصبه السياسي كوسيلة لتحقيق أهدافه الدّنيوية اللاّمشروعةإسلاميّا، بالأحرى قد أفنى شبابه سعيا لنصرة وطنه، وكلّ ذلك كان نتيجة تديّنه وتمسّكه بخالقه.

لا يمكن أن ننكر جهود المتصوّف " الأمير عبد القادر الجزائري" في مواجهته أزمة الاستعمار والتخلّف التي كان يعيشها مجتمعه، ونجاحه في مشروعه هذا هو مرتبط بتصوّفه العلمي وحُسْنَ توفيقه بين أمور دينه ودنياه، حيث لم يكن متطرّفا في زهده نابذا واقعه هاربا منه ولا دنيويا منهمكا في شهوات الدّنيا مهملا لجانبه الدّيني الرّوحاني وتراثه.

نحن اليوم في واقعنا المتأزّم بأمسّ الحاجة إلى رجال متصوّفة كالأمير عبد القادر أو على الأقلّ فئة باحثة مهتمّة بتطوير فكره، لعلّ ذلك يساعد الشعوب العربيّة الإسلاميّة لتحقيق النّهضة والتحضّر والتخلّص من التبعية للغرب، مثلما عمل هو جاهدا للنّهوض بمجتمعه من واقع استعماري يَغْمُرُه التخلّف والجهل والتّراجع الدّيني الأخلاقي.

المبحث الثالث:

المشروع الفكري للأمير عبد القادر بين مؤيدين ومعارضين

من بين المكاسب التي حققها الأمير عبد القادر من خلال مشروعه نذكر:

من نتائج سياسة الأمير عبد القادر أنّ القبائل التي كانت مشتتة أصبحت موحدة تحت ظل لواء واحد وسلطة قوية ومركزية، تضمن أمن الأشخاص والممتلكات... بفضل قضاء فعال، ومنصف بالنسبة للجميع، وفي وجود جيش عصري يضمن حماية التراب، ومستعد لمواجهة كافة الاحتمالات، وقد تُوجت كل الجهود الرامية إلى عصرنه البلاد، صحيح أن العمل لم يكن قد اكتمل، لكن قوامه وأساسه كان قد أُنجز[1].

لقد انتقل الأمير عبد القادر من مشرعه التحضيري إلى العبادة والتصوف، وما ينبغي الإشارة إليه أنّه لم يؤسس حضارة بالمعنى التي تحمله الكلمة اليوم، لكن قام بعصرنة البلاد في العديد من الميادين مع العلم أن مشروعه لم يكتمل، كما يعود الفضل للأمير عبد القادر بما أنه بدأ في الكثير من المنجزات طورها غيره من بعده والجدارة والامتنان للمكتشف الأول.

كما كانت دولة الأميرعبد القادر تملك شرطة فعالة كانت تعمل على أن يعم الأمن والنظام المطلوبان للجميع، كانت الطرقات آمنة، كانت تتم التجارة وتنقل البضائع في كل أمان بين كل المناطق، وحتى مع المغرب والصحراء والبلدان المجاورة، وكان الإقليم الخاضع للأمير أكثر أمنا كما كان النظام به أكثر ظهورا مما عليه في مناطق النفوذ الفرنسية، وفي المغرب بفضل هذه الشرطة الفعالة كانت الأخلاق والسلوكات سليمة[2].

لقد كانت سياسة الأمير عبد القادر ناجعة حيث بعدما كانت القبائل متناحرة فيما بينها يأكل بعضهم بعضا وتُسرق بضائع التجار من طرف الخونة، فقد حقق الأمير عبد القادر الأمن والسلام حيث يمكن

[1]. عبد القادر بوطالب، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، مرجع سابق، ص 111.

[2]. عبد القادر بوطالب، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية – من الأمير عبد القادر إلى حزب التحرير، مرجع نفسه، ص 103.

مثلا لشخص من الحشم أن يتجول في تلمسان أو أن يتاجر بها، كما قضى على الكثير من الفسق ومفاسد الأخلاق، وهذا التميّز له لم يحققه الفرنسيون في المناطق التابعة لهم.

لم تكن حكومة الأمير عبد القادر سهلة المنال من طرف الفرنصيص وهذا ما يبينه قول الجنرال بيجو في رسالة بعث بها في 24 نوفمبر 1849م إلى وزير الحربية الفرنسية: "هل نستطيع الجري في كلّ مكان؟ هل نستطيع تجنيد مليون رجل لمحاربته؟ من الواضح لا نستطيع تحقيق ذلك، لكن نقدر أن نصل إلى السكان الذين يمدونه بالمعونات، نستطيع أن نفكك جبهته الداخلية، ولابد لنا من عمل متواصل خارج الحدود وداخلها لحصار عبد القادر والقضاء على العرب"[1] فقد كان الأمير عبد القادر كثير الترحال في القفر مما جعل العدو يعجز عن الإطاحة به إلا من خلال طرق غير مباشرة كالضغط على من يقدمون له المساعدات المادية، مع بذل الجهود المكثفة لمحاصرته، كان الغرب يخشى من شخصية الأمير عبد القادر لأنه أحد رواد ثورة الإصلاح الديني، لقد حارب الأمير الصوفي بعض شيوخ الطرق الصوفية المنحرفين في الجزائر وقاومهم وحارب الشعوذة والتدجيل وعبادة الشيوخ، وكل هذا مدون في كتب تاريخ الجزائر ومسجل بالوثائق[2] .

لقد أدرك الغرب الدور الذي لعبه الأمير عبد القادر في محو البدع والخرافات التي حاول الكثير إضافتها للدين الإسلامي.

ومن بين الخصال الخيرة التي يشهد له بهاأن جهاده كان الردّ النضالي النوعي الذي دشّنت به الجزائر تاريخها المعاصر، والانتفاضات التي تعاقبت على الساحة الوطنية ظلت جميعا موصولة بالنبع الأوّل، أي بما قام به هو وجيوشه المجاهدة من بذل واستماتة، فتلاحق الأجيال في الجهاد لم ينقطع طيلة القرن التاسع عشر

[1]. الأميرة بديعة حسني الجزائري، فكر الأمير عبد القادر حقائق ووثائق، مرجع سابق،ص 31.

[2]. إبراهيم مياسي، روح الأمير عبد القادر عبر المقاومة الجزائرية، مرجع سابق، ص 166.

ومطلع القرن العشرين، ذلك لأنّ دافعية الجهاد كانت واحدة والباعث عليها مشتركا وهو مقاومة المحتل وإجلاؤه عن البلاد"[1]. فيعد الأمير عبد القادر من بين الأفراد الأوائل الذين يرجع إليهم الفضل في المساهمة الأولى لقيادة الثورة الجزائرية بطريقة منظمة، وقد واصل بعده رجال الجزائر الغيورين على وطنهم البذرة التي زرعها، ألا وهي المقاومة المستمرة المخطط لها للإطاحة بالاستعمار وإخراجه من تراب الجزائر.

إنّ من بين ما يؤكد أنّ الأمير عبد القادر هو من بين القائدين الرئيسيين للمقاومة الجزائرية آنذاك هو أنّه بعد استسلامه فقد المجاهدون الوحدة التي كانوا عليهافعَقِب مقاومتهتشتت المجاهدون عبر البلاد المختلفة إذن لقد ساهم الأمير عبد القادر في لمّ شتات الجزائريين وتوحيد المجاهدين وجمع صفوفهم لمقاومة المحتلّ، وما يؤكد ذلك هو أنّه بعد نفيه إلى سجن أمبواز أغلب المجاهدين كلاً وأخد سبيلا ما فتشتت صفوفهم.

ولكن بعد سنوات من نهاية المقاومة مع الأمير عبد القادر أعاد ذريته إحياءها ولاسيما منهم الأمير خالد، إذا كانتالثورات الشعبية الجزائرية ضدّ الاحتلال الفرنسي قد سقطت، فإنّه ومنذ سنة 1916م انطلقت الطلائع الوطنية الجزائرية في تغذية الروح الوطنية الشعبية بالتوعية والتوجيه الوطني السليم عن طريق العقل والعلم والثقافة والتمسك بالشخصية العربية الإسلامية والتصدي للسياسة الاستعمارية الجديدة في التجنيس،"وكان من أول البارزين للحركة الجزائرية في النضال السياسي هو الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر"[2]، إذن من بين الخلف الصالح في أسرة الأمير عبد القادر هو حفيده الأمير خالد الذي عمل على حث الجماهير الجزائرية من خلال حملاته التحسيسية إلى عدم الانزلاق والحذر من تغيير الجنسية للانتماء إلى الفرنسيين ودينهم لأن هذا أخطر استعمار ألا وهو الاستعمار الثقافي.

[1]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق، ص7.

[2]. عوني أحمد وآخرون، الأمير عبد القادر مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، مرجع سابق، ص128، 129.

تواصلت المقاومات بعد الأمير عبد القادر مع أولئك الذين بعث فيهم روح المقاومة من قريب- أي أولئك الذين شاركوا معه في المعارك- أو من بعيد - أي الذين سمعوا بمعاركه ضدّ المحتل- "ولن تستطيع تفسير صلة المقرانيين بالأمير عبد القادر إلاّ عن هذا السبيل، فقد رأينا الأمير عبد القادر يخرج عن إمساكه في المغترب بالشام ويكاتب في شأنهم باي تونس من أجل رعايتهم ورد بعض ما كان أُخذ منهم من أملاك... فقد كانوا جميعا إمّا ممن ساهموا في المعركة معه أو كانوا ممن صاغت أخبار جهاده مَوَاجدهم فشبوا ثوارا، و واصلوا العمر كلّه في القتال"[1]، من بين الذين واصلوا المقاومة بعده هم أولئك الذين كانوا ينتمون إلى جيوشه، أو سمعوا عن جهاداته وتخطيطاته فلم يأبوا إلا أن يواصلوا نجاحاته ولقد تحقق حقا مشروع الجد وأبنائه في 1962/07/05 بعد جهود وتضحيات.

عندما أراد الدمشقيون الاستقلال عن الدولة العثمانية بعد الضربات التي وجهها الروسيون للعثمانيين اختاروا الأمير عبد القادر رئيسا لهم "لأنهم وجدوا فيه القاسم المشترك الوحيد الذي يجمع بين تأييد العرب مسلمين ومسيحيين له، ورضي الأتراك عنه بفضل نضاله السابق لرفع راية الإسلام، وثقة الفرنسيين به، أضف إلى ذلك أنه صاحب خبرة واسعة في كيفية بناء الدولة بفضل تجربته الفذة في الجزائر، ومتمرس في لعبة العلاقات والمصالح الدولية، وهو فوق هذا كله وقبله ذو نسب شريف وعالم كبير بأمور الدين والدنيا"[2].

لقد حبّذ أمر ساسة الأمير عبد القادر لدمشق كلا من سكان دمشق سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين، وكذلك الأتراك لأنه شهدوا فيه المجاهد في سبيل الله الذي دافع عن الإسلام وحمى الشعب الجزائري

[1]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق، ص13.

[2]. جورج الراسي، الدين والدولة في الجزائر من الأمير عبد القادر ... إلى عبد القادر، مرجع سابق، ص63.

من تنصير الفرنسيين، كما قبل الأمر حتى الفرنسيين لأنهم وجدوا فيه الرجل الإنساني الذي يدعوا إلى تعايش الديانات خاصة منها الإسلام والمسيحية.

كما كتب يوسف بك كرم للأمير عبد القادر ليطلب منه قبول إمارة الدمشقيين يقول:"إن فخامتكم أحق وأولى من غيرها بالإمارة، وذلك نظرا للأصل الشريف، والمقام الرفيع، ونظرا لمقتضيات الظروف وأحكام العناية الإلهية ولم يبق للجنس العربي سبيل للنجاة من غوائل أرباب المطامع إلا بإعطاء القوس راميها والإمارة مستحقها، ورجاه أن لا يدع الفرصة الحاضرة تذهب بدون جدوى مضيفا في مكان آخر: لا نجاة ولا نجاح للأقطار العربية جمعاء إلاّ بالاتحاد تحت رايتكم الشريفة"[1]، إذن لولا النجاح السياسي للأمير عبد القادر في الجزائر رغم استسلامه بعد خمسة عشر عاما من الكفاح لأسباب وظروف لَمَا تم الإصرار عليه واختياره حاكما عليهم ولم يختاروا أنفسهم ذاتها.

كما تميز الأمير عبد القادر بالشجاعة والقوّة وإقدام الصفوف ضدّ المحتل، " كما قاوم في مسيرة جهاده العديد من الجنيرالات الفرنسيين ولم تكن براعته في الحنكة السياسية مع قادة محنكين بأقل من براعته في المقاومة الميدانية، فقد كان لديه من الذكاء والفطنة ما أجبر العدو في عرض الصلح عليه في بداية مشواره... علينا أن نذكر أن الأمير عبد القادر كان عمره حينذاك 26 سنة"[2]

إذن علينا أن ندرك أن الأمير عبد القادر كان هو من الأوائل في الصفوف لقيادة المعارك، وهو ليس من أولئك الرجال الذين يكفيهم أن يخططوا تصاميم المعركة دون المشاركة فيها وإن شاركوا كانوا في مؤخرة

[1]. جورج الراسي، الدين والدولة في الجزائر من الأمير عبد القادر ... إلى عبد القادر، مرجع نفسه، ص 64.

[2]– سليم سعداني، الانزياح في الشعر الصوفي، قسم اللغة والأدب العربي، أطروحة ماجستير،جامعة ورقلة، سنة 2010، ص 18.

الصفوف فما تميز به الأمير الشابهو أن يكون في مقدمة جيوشه حتى وإن كانت معاركه ضد أبرز القادة الفرنسيين.

لقد كان الأمير عسكريا مُرعبا القوات الفرنسية، يحسبون له ألف حساب، وهذا ما اعترف به هم أنفسهم، حيث نجد مثلا الجنيرال بيجو الذي قال أمام مجلس النّواب في فرنسا " هل تعرفون أين تكمن قوّته؟ إنّها في عدم إمكان العثور عليه...كان بيجو يُدرك جيدا بأنّ عبد القادر يمثّل القومية الجزائرية، وأنّه الحاجز الذي لابدّ من تدميره"[1]

وبالتالي الانتصار على الجزائريين لن يكون إلاّ بالانتصار على الأمير عبد القادر، لأنّه هو سبب اتّحادهم وقوتهم وتخطيطهم العسكري النّاجح.

وقدرة هذا المجاهد يؤكّدها أيضا القائد الفرنسي لاموريسيار، إذن "لقد كان الأمير كالزئبق في مباغتاته لوحدات العدوّ، من ذلك أنّ القائد الفرنسي لاموريسيار كان يعتقد بأنّه أمامه، فإذا بالأمير عبد القادر يهاجم القوّات الفرنسية من خلف... ثمّ يخترق القوات الفرنسية بين شلف وحامية بيجو، وبعدها ينطلق إلى الجنوب ثمّ يبرز من حيث لم يتوقّعه أحد"[2]

في بروسة، تلقى الأمير عبد القادر من نابليون الثالث سيفا عباسيا مرصعا بالحجارة الكريمة، وكعربون صداقة ووفاء لوعد قديم، ردّ عبد القادر على هذه اللفتة بأن أرسل عام 1854م هدية إلى الإمبراطور هي عبارة عن ثلاثة جياد سورية الأصل استقدمها خصيصا من منطقة ديار بكر، وخصص له صديقه الإمبراطور

[1]– محفوظ قداش وآخرون، سلسلة الفن والثقافة، مرجع سابق، ص80.

[2]– محفوظ قداش وآخرون، سلسلة الفن والثقافة، مرجع نفسه، ص82.

الفرنسي منحة سنوية تكفي حاجاته وحاجات صحبه بلغت 100 ألف فرنك ذهبي سنويا"[1]، فالأمير عبد القادر صاحب الأعداء حيث عُرف بردّ المعاملة الحسنة بالأحسن منها، إذ لما أهداه نابليون الثالث سيف سلْم وصداقة كبديل عن سيف الحرب الذي قدمه الأمير عبد القادر للفرنسيين عند استسلامه، فلم ينس هذا الإكرام وأرسل إليه هو الآخر أفضل أنواع الجياد.

كان الأمير عبد القادر يتمتع بمكانة حسنة عند أغلب الناس سواء الذين عرفوه من قريب أومن بعيد، أي أولئك الذين راسلهم دون أن يلتقي بهم، مثل ملكة اسبانيا، أو أولئك الذين سمعوا عنه، بينما كان الأمير عبد القادر يعيش هنيئا في أهله انتشرت إشاعة عن وفاته،وسرعان ما تلقته الصحافة ونشرتها، فكان يتلقى ويقرأ بنفسه برقيات التعازي وقصائد الرثاء والتأبين التي كانت تفد إلى بيته من كل أنحاء العالم العربي والإسلامي، وقد قال حينها:إن الموت لابد منه حين ينتهي الأجل، والحمد لله الذي أراني وأسمعني ما يقال في جانبي من الخير بعدي، وهذا نادر الوقوع، وغريب الاتفاق"[2]، حيث لما انتشرت إشاعة نبأ وفاته سمع بحزن الكثير من الناس عليه.

يقول بول آزان في كتابه ((الأمير عبد القادر)): "أثناء وجود الأمير عبد القادر في السجن تسابق الصحفيون والكتاب والعلماء للتعرف على شخصيته الفريدة التي تمكنت من التصدي لأكبر دولة محاربة في ذلك الزمان، مما جعل فكرة إعدامه من المستحيلات مع أنّها كانت واردة، وعندما تولى نابليون الثالث الحكم،بعث رسالة إلى الأمير عبد القادر يخبره بموعد زيارته قائلا: أشعر أنّ الشرف يلزمني أن أضع حدا

[1]. جورج الراسي، الدين والدولة في الجزائر من الأمير عبد القادر ... إلى عبد القادر، مرجع سابق، ص 59.

[2]. سليمة كبير، من أعلام الجزائر في العصر الحديث، الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 23.

لسجنكم"[1]، كان الأمير عبد القادر شخصية عالمية إنسانية مشهورة، ولذلك أثناء سجنه بأمبواز جعل العديد من الفرنسيين ينتهز الفرصة لمجالسته، وهذا ما جعل المسؤولين الفرنسيين يتراجعون عن موقفهم المتمثل في إعدامه خوفا من أن يثور عليهم العالم العربي وبعض الغربيين المغْرَمين بشخصيته ولا سيما منهم الفرنسيين، كما راسله نابليون الثالث مبينا في رسالته إعجابه بقوة شخصيته، واعدا إياه بأن يطلق سراحه بعد مخالفة الحكام الفرنسيين بهذا الوعد.

كما تحتفل – مدينة القادر– في شمال ولاية إيووا* بيوم عبد القادر، والتظاهرة أصبحت سنوية منذ الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر،وعلاوة على الاستعراض والألعاب والمعرض المقام للصناعات التقليدية الجزائرية، فإن هذه التظاهرات قد كانت وعلى وجه الخصوص الفرصة المناسبة للتذكير بنشاط الأمير عبد القادر وعلمه"[2]

لقد تعرض الأمير عبد القادر للخيانة من طرف من وثق فيهم لتحمل المسؤوليات الجسيمة، إذ "كان التراجع عن المعاهدة من طرف فرنسا فرصة أتيحت للأمير عبد القادر لاختبار خلفائه،"وإذابأغلبهم يدخلون في اللعبة الفرنسية بمساعدتهم مشروع تعديل المعاهدة، مثلا ابن عراش بوضعه خاتمه على مشروع التعديل الفرنسي من غير الموافقة المسبقة للأمير عبد القادر قد خان واجبات مهمته وصار حليفا للفرنسيين"[3].

كلّف الأمير عبد القادر ابن عراش نائبا عليه في علاقاته الخارجية الفرنسية لكن خدعه فكان من الواجب أن لا نثق بأيّما شخص في مسؤوليات جسيمة كهته، إذن كيف ستكون حال الأمير عبد القادر بعد

---

[1]. الأميرة بديعة حسني الجزائري، فكر الأمير عبد القادر حقائق ووثائق، مرجع سابق، ص 32، 33.

*– ولاية أمريكية.

[2]. عبد القادر بوطالب، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، مرجع سابق، ص 340.

[3]– محمد الشريف السحلي، ، الأمير عبد القادر أباطيل فرنسية وحقائق جزائرية، مرجع سابق، ص190.

تكليف ابن عراش بتوقيف المعاهدة إذا لم يقبلها الفرنسيين فإذا به يوقع على التفاوض مع فرنسا وبالتعديلات التي أرادتها، يمكن القول أن اختيار الأمير عبد القادر لابن عراش وأحمد بوضربة في مشاركته الأمور السياسية يعتبر خطأفي رأي ((محمد شريف سحلي))كان من اللازم أن لا يقع فيه، لأن هتين الشخصيتين عُرفتا بلا أمانتهماوخداعهما وعدم إخلاصهما، فكيف للأمير عبد القادر أن يجعلهما إداريين له دون التنقيب الدقيق والعميق في مسيرتهما الشخصية وفي سوابقهما العدلية؟

"ومن حق الباحث أن يتساءل عن اعتماد الأمير عبد القادر اعتمادا كليا مولود بن عراش في إدارة الشؤون الخارجية بعد أن ثبت أن ابن عراش كان يعمل مستقلا وأحيانا بطريقة تتناقض ومصالحه، وهناك شخصيات أخرى غامضة كان يستمع إليها كاليهودي ابن دوران ليون روش، ومهما كان حسن نيته وفقره إلى ممثلين أكفاء فإن كثيرا من النقائض التي وردت في معاهداته مع الفرنسيين كان مرجعها ابن عراش وأمثاله"[1].

الغريب في الأمر أن الأمير عبد القادر صمم على ترك مولود بن عراش يتكلف بالشؤون الخارجية مع العلم أنه يخدعه ولا يلتزم بأوامره، ويتصرف في التغيير في بنود المعاهدات كما يحلو له الأمر، كان له انحياز للعلماء ورجال الدين، لكن لم يكن يثق في كفاءتهم في الحكم أو في قيادة المعركة المسلحة،"فثقلهم الاجتماعي ساعد أكثر من خصالهم الشخصية على تعيينهم، مثلا لم ينجح ابن سالم وهو ذو طبع ضعيف وموسوس، ومحب للحياة السهلة من اكتساب ثقة سكان الجبال وتدريبهم على المشاركة الفعالة في المقاومة الوطنية سلم نفسه للفرنسيين الذين استعملوه فيما بعد فبعثوه إلى دمشق لتعزيز نواة عملائهم"[2]، ومن بين الأخطاء أيضا التي ارتكبها أنه كان ينتقي مساعديه في الحكم لا على اعتبار تمكنهم في المجال السياسي أو أنهم مختصين في

[1] – هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 38.

[2] محمد الشريف السحلي، الأمير عبد القادر أباطيل فرنسية وحقائق جزائرية، مرجع سابق ، ص187، 191، 192.

هذا المجال، بل لأنهم من الطبقة ذات المكانة البارزة في المجتمع، إذ يمكن أن يكونوا علماء أو رجال دين، أو من العائلات ذات المكانة البارزة في المجتمع فما هي مبررات هذا الاختيار؟

ترأس أحمد باي الشرق الجزائري (القطاع القسطنطيني) والأمير عبد القدر الغرب لكن التاريخ لا يقدم لنا مثالا لمقاومة وطنية نجحت بانشقاق قواتها، كان على عبد القادر وأحمد باي أمرا حتميا أن يعقدا بينهما تحالفا بغية توحيد سياستهما وأعمالهما،"أدى الجهل بهذه الحقيقة إلى عقد اتفاق التافنة الذي يمثل رغم المظاهر الجانب السياسي السيء الذي كان له عواقب وخيمة على مجمل المقاومة الجزائرية، كان ذلك أول خطأ خطير ارتكبه الأمير الذي أخضع مخططاته إلى منطق رائع ولكن أسسها على عدم فهم حقائق"[1].

فكيف يمكن أن نحقق نجاعا في مصارعة العدو ونحن نعيش التشتت الداخلي، ولقد تفطن الأمير عبد القادر لهذا الأمر حيث أنه كان يدعو القبائل العربية الجزائرية أن تتحد لمقاومة العدو، لأنه لا يستطيع تحقيق النجاح على المستعمر وهم يعيشون تناحرا فيما بينهم وهذا ما جعله يسعى أولا للانتقال من الدفاع عن القبيلة إلى الدفاع عن الوطن، لكن لم يتفطن أنه ينبغي أولا توحيد الشرق والغرب الجزائري ثم الاتفاق مع الأجانب.

إن معاهدة التافنة هي خدعة من الفرنسيين لم يتفطن إليها الأمير عبد القادر، ولهذا سمح اتفاق التافنة للفرنسيين بتحييد الأمير عبد القادر وبتحويل الإمدادات العسكرية من الغرب إلى الشرق، تحضيرا لمعركة قسنطينة وكانت التباساته بمثابة قنابل موقوتة ستمكنهم من الانقلاب ضد الأمير عبد القادر سنة

[1]– محمد الشريف السحلي، الأمير عبد القادر أباطيل فرنسية وحقائق جزائرية، مرجع نفسه، ص176، 177.

1839م،"وهذا الاتفاق الذي هو خدعة وآلة حرب فعالة جسد حقيقة قاسية تضمنها مثل تشيكي الذي يقول: إذا لم تُرد أن يكون أخاك سيدك فإنك تستحق أن يكون عدوك سيدك"[1].

حيث أنه بعقده لمعاهدة التافنة مع الفرنسين والتي منحهم فيها حرية التنقل في الغرب الجزائري دون أن يعلم بأن ذلك سيسهل عليهم التنقل إلى الشرق الجزائري، ومن تم دخولهم في صراعات مع أخيه أحمد باي واستيلائهم على قسنطينة، فبدل عقة الصلح مع الفرنسيين كان عليه أن يسعى جاهدا ودون فشل أن يعقد الصلح مع أخيه ابن الجزائر أحمد باي.

ورغم أن ثورة الشرق كانت معاصرة لثورة الغرب ضد العدو ذاته، إلاأنهلم يتم التنسيق بين الجبهتين، فأحمد باي آخذ على الأمير عبد القادر توقيعه على معاهدتي وفاق مع الفرنسيين دون الأخذ بعين الاعتبار المقاومة العنيدة لمدينة قسنطينة، مما تركه وحيدا في مواجهة حشود القوات الفرنسية،"وأما الأمير عبد القادر فكان يربوجوب التحاق واليقسنطينةبركبه، ربمامن زاوية توحيد أداة المقاومة تحت راية واحدة"[2].

يرى أحمد باي أن الأمير عبد القادر تحالف مع العدوان الفرنسي وساعدهم على الاستيلاء على قسنطينة لأن وقع معهما الاتفاقيتين التي من إحدى بنودهما حرية التحرك، ولم يساعد الأمير عبد القادر أخاه باي أحمد لمواجهة عدوهما المشترك فرنسا، حسن ظنه بدولة فرنسا، ونوابها في أغلب الأحايين، وفي أيام الهدنة بالخصوص، وسلوكه معها سياسة اللين والملاطفة سبب له أتعابا جمة، وأخطار جسيمة، "وأتاح لفرنسا أن تبث عملائها وجواسيسها في البلاد لاستمالة قلوب الأهالي إليها بالقوة والإغراء معا وهو ما كان خاتمة المطاف

[1]– محمد الشريف السحلي، الأمير عبد القادر أباطيل فرنسية وحقائق جزائرية، مرجع نفسه ، ص190.

[2]. جورج الراسي، الدين والدولة في الجزائر من الأمير عبد القادر ... إلى عبد القادر، مرجع سابق، ص 57.

لكفاح الأمير عبد القادر خاصة أثناء وجود بيجو السفاح ولعل قصة ليون روش تكفي دليلا على حسن ظنه بالأعداء"[1].

كان يتعامل مع الفرنسيين في الكثير من المواقف بنية حسنة وكأنها الصديق الحنون في حين هو العدو اللدود، ولم يضبط نصوص معاهدة التافنة جيدا مما سمح للفرنسيين بإقامة علاقات مع الكثير من القبائل، ومن تم أصبحوا تابعين لها فانتهى به الأمر إلى استسلامه.

إن الأمير عبد القادر الجزائري لم يؤسس للدولة حتى من ناحية الجانبالنظري، إن مفهوم الدولة عالمي وبالتالي نلاحظ أن عقل الإنسانوضع شروط قيام دولة، والمقياس نستخدمه من زاوية الفكر الإسلامي، فالبيعة التي وقعت تحت شجرة الدردارة لم تكن بيعة حكم، بل كانت بيعة جهاد ومقاومة مثلما وقع مع الشيخ المقراني،أما شرط الرعية فإن مجموع من كان تحت إمرته يشكل لفيفا قتليا، أما رموز الدولة فإن توفرها لا يعني قيام دولة، فالراية والختم والشارة يمكن ضبطها في أصغر التجمعات البشرية[2].

هناك من يعتبر أن الأمير عبد القادر هو مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، وهو حكم ينبغي إعادة النظر فيه إذ حدد المفكرون المسلمون مقاييس وجود دولة ومن بينها:

البيعة السياسية: إن الأمير عبد القادر بُويع من أجل غاية كبرى وهي تولّي أمر الجهاد لكن هذا لا يمنعنا من إنكار بعض التنظيمات السياسية والاقتصادية لكنها تعبر وسائط من أجل إنجاح عملية الجهاد وطرد المستعمر.

[1]– يحي بوعزيز، الأمير رائد الكفاح الجزائري، مرجع سابق، ص104.

[2]. إسماعيل زروخي، مساهمة الأمير عبد القادر في النهضة العربية الحديثة، مجلة الدردارة ،أيام ملتقى 26 27 نوفمبر لمبايعة الأمير عبد القادر، عدد 5، ص22،23.

الرعية: حقيقة أن هناك مجموع من الأفراد اجتمعوا حول الأمير عبد القادر وذلك من أجل محاربة الاستدمار وليس من أجل بناء الدولة، فهذه الأخيرة كيف يمكن التفكير فيها والوطن والأرض مستعمرة؟

والأمير عبد القادر كما نعلم لم يؤسس حاضرة لأنه طيلة عشر سنة كان ينتهج سياسة الترحال والتنقل التي أملتها عليه ظروف الحرب[1]، خطاباته لا تحمل في دلالاتها معنى محددا عن مفهوم الدولة، إذ أن خطابه في جلّه اتجه نحو: خطاب السيف – دلالة جهادية– خطاب الحب – دلالة إنسانية – خطاب التجربة الوجودية – دلالة صوفية – خطاب الأنا – دلالة سيكولوجية– "وبالتالي لا نلمس خطابا يحمل مضامين نظرية سياسية، لكن هذا لا يمنع نفي حضور صورة الدولة كنموذج في مخياله،أيهاجس تأسيس الدولة غير أن الظرف الجهادي عرقل مشروعه"[2].

إن من بين الأبعاد الحضارية والإنسانية للأمير عبد القادر هو تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة لكن ظروف الحرب وقفت كعائق أمام مُبتغاه ومشروعه الفكري، فهو على الأقل لم يضبط لنا مفهوم الدولة، ولهذا نجد اهتمامه أكثر كانت حول مواجهة الاستعمار وكفاحه بالسيف والقلم، ومحاولة إقامة علاقات إنسانية فيما بين العرب المسلمين وكذا مع غيرهم، وكان للمجال الصوفي دور في تقوية إيمانه هو ومن هم حوله بالإضافة إلى الصبر أثناء الهزائم والانكسارات وتحمل مسؤولية ومصاعب أمر الجهاد.

لا يمكن التعمّق في الفكر الصوفي للأمير عبد القادر إلّا من خلال كتابه "المواقف" المكوّن من ثلاثة أجزاء، حيث ترى ((بديعة حسني)): "أنّه على الرغم من اعتبار كتاب المواقف أهمّ كتاب في فكر الأمير عبد القادر الصوفي إلّا أنّه هو في الحقيقة ليس بخطّه كما فيه تحريف وتزييف وزيادة ونقص، حتّى في بعض أسلوبه

[1]. إسماعيل زروخي، مساهمة الأمير عبد القادر في النهضة العربية الحديثة، مرجع نفسه، ص22.

[2]. بوعرفة عبد القادر، الأمير عبد القادر وإشكالية الدولة الوطنية،مرجع سابق، ص12،13.

لا يتميّز بالمتانة اللّغويّة التي عرف بها، وعلى الرغم من ذلك ترجم إلى العديد من اللغات وتمّ نسبته إليه جملة وتفصيلا"[1]، فإذا كانت حفيدة الأمير ((بديعة حسني)) تنفي نسبة هذا الكتاب إلي الأمير، فهذا يعني أنها ستنفي تبعا لذلك نزعته الصوفية.

هناك الكثير من اعتبر أن سلطان مراكش هو المسؤول عن المقاومة السياسية للأمير عبد القادر،"على أن مؤاخذتنا له لا تعني أن الأمير سالما منها، بل لا نحاشيه منها في أشياء ما كان في حقه أن يغفل عنهاوهي:عدم اهتمامه بالثغور البحرية التي كانت خير مساعد للعدو على احتلال البلاد، وإهماله للأسطول البحري،في حين كان العدو يصرف أثمن الأوقات والأموال في ترميم تلك الثغور،ولا أدل على هذا من كونه لا سبيل له إلى غزو البلاد إلا عن طريق الثغور، ولا شيء يحمل له المؤونة والعتاد غير الأسطول"[2].

إن تواجد الاحتلال في بادئ الأمر كان بالساحل، فهو لم يهتم بالسواحل وتركها للاستعمار كما أهمل الأسطول البحري رغم أنه يُعد ملكا كبيرا للجزائريين، فالكثير من يرجع سبب استسلام الأمير عبد القادر إلى سلطان المغرب،لكن اللوم كذلك يعلَّق على عاتق الأمير عبد القادركسرعته إلى إخلاء المدن والقلاع عندما تشتد الحالة، ويقوي نذير الخطر، بينما التكتيك الحربي يفرض عدم التخلي عنها مهما كان ثمن التضحية، خصوصا وأنه رأى كيف كان ذلك العدو يستميت في الدفاع عن المدن التي يستولي عليها،"التسامح الكبير الذي يبديه مع الخونة والعاصين الذين يأتون إليه تائبين مظهرين الطاعة مضمرين الشر والفساد، ووضعية البلاد وحالة الوطن كانت تقضي بقطع دابرهم"[3].

[1]. الأميرة بديعة حسني الجزائري، فكر الأمير عبد القادر الجزائري حقائق ووثائق، مرجع سابق، ص 166.

[2]– يحي بوعزيز، الأمير رائد الكفاح الجزائري، مرجع سابق، ص 103، 104.

[3]– يحي بوعزيز، الأمير رائد الكفاح الجزائري، مرجع سابق، ص 104.

وما يؤاخذ عليه أيضا هو أنه عند سيطرة الاستعمار على منطقة ما، لا يهاجمهم بل يُفرغ المكان من السكان ولوازم العيش ويترك الأرض للاستعمار، بالإضافة إلى عفوه عن الظالمين الذين ارتكبوا جرائم خاصة أولئك الذين باعوا وخانوا وطنهم، فبمجرد الاعتذار يعفوا عنهم، لكن كان يلزم الصرامة معهم حتى لا تتكرر تلك الجرائم.

لكن رغم ما يلاحظه البعض من أخطاء في سياسة الأمير عبد القادر إلاإنه استطاع أن يتحدى أكبر الجيوش في وقته، ووضع أسس الحركة الوطنية الجزائرية، وأعطى لغيره دروسا في المهارة والالتزام للدبلوماسيين، ثم هو من الزعماء الروحيين ورغم جهاده فقد أظهر روحا من التسامح والاحترام لكل الأديان،"لو طال به العهد، لازدهرت الدولة الجزائرية الجديدة وأَخصب الدين والفكر والعلم والفن في عصر كان العالم الإسلامي ينتظر مثل هذا الوليد"[1].

فالأمير عبد القادر عبرة لأبناء وطنه وغيرهم في مجالات متعددة يُقتدى به فيها ففي مجال الحرب فهو أول من اعتمد على حرب العصابات، ودشن الارهاصات الأولى للحركة الوطنية الجزائرية والذين حاول المنضمين إليها تحرير الجزائر وإعلان مقاومات وحروب بطريقة منظمة لا ثورات شعبية، كان يُوفي بوعده إذا وعد يرفض خائنين الوعد، حيث لما خانت فرنسا وعودها في معاهدة التافنة ولم تحترم وعودها المنصوص عليها في المعاهدة راسل وزير فرنسا يطلب منه الالتزام بوعوده وإلاّ الحرب، وكان شاعرا دون دراسة أدب وديوانه الشعري يؤكد ذلك، كما عُرف بنزعته الإنسانية، فمشروع الأمير عبد القادر لم يكتمل حقق بعض أهداف منه دون تحقيق الأبعاد الكبرى، كم نحن اليوم بحاجة إلى الأمير عبد القادر حتى تخرج الجزائر من الأزمة التي تعاني

[1]. محمد الطاهر عزوي وآخرون، الزمالة العاصمة المتنقلة للأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص 54.

منها كالتقشف ونقص ميزانية الدولة بكثير، حيث نحن نخشى اليوم أن تنتهي الخزينة ونحتاج إلى تسليف أموال من الدول القوية، ثم ينتهي البترول ولا نستطيع إرجاع الديون فبدون شك سنصبح تابعين لهذه الدولة.

الخاتمة

كان فكر الأمير عبد القادر الصوفي قريبا من تصوف أبو حامد الغزالي، حيث كان لديهما مفهوما واحدا للحقيقة من حيث هي جمع بين العلم والعمل، وقد نجد ما يقرب أيضا بين تصوف الأمير عبد القادر وتصوف ابن عربي حيث نراهما يعتمدان على القلب كطريق للوصول إلى اليقين وتميزا بنزعة الانفتاح والعالمية.

اعتمد الأمير عبد القادر أسلوب التأويل في محاولاته فهم دلالة النص القرآني، كما رفض في الوقت نفسه الحقيقة المبنية على الحواس لأنها خادعة، كما يرى أن أسرار المتصوفة لا ينبغي البَوح بها إلا لأهل التخصص، وإلاّ يُرمى صاحبها بالزندقة، وأكثر مرجع يؤكد تأويله الصوفي السني كتابه " المواقف" بأجزائه الثلاثة.

اعتمد على مبادئ الدين الإسلامي في تسيير دولته وبنائها لأنه كان متشبعا بأفكاره حافظا لآيات القرآن الكريم، متطلعا على السنة النبوية الشريفة، كما أراد أن تقوم دولته على الحب والعدل والمساواة، حيث كان يطبق القانون على الجميع حتى وإن كان الظالم من أقرب المقربين، وكانت مواد دستوره مصدرها الدين الإسلامي.

لكن ما ينبغي الإشارة إليه أنه لم يرفض أفكار المجتمعات الغربية سوى ما يخالف منها ما يأمرنا وينهانا عنه الدين الإسلامي.

ومنه يمكن القول أن الأمير عبد القادر جمع بين السياسة والتصوف وهذا قلما يتميز به الإنسان، وقد تمكن من تحقيق ذلك لأنه لم يكن له توجه سياسي، بل كان له توجه صوفي، وبالتالي لم يكن لديه طموح في المسؤولية السياسية، كما ربط بين ما هو سياسي وما روحاني أخلاقي لأنه اعتبر نفسه من معارضي المتصوفة الذين يعتزلون الناس ليلا ونهارا ويتركون عائلاتهم ومجتمعهم وهم بأمس الحاجة إليهم، مما يعني أنهم تخلوا عن واجباتهم وطاعتهم لربهم، كما أنه كان بإمكانه أن يلبس الملابس الجميلة، ويتناول المأكولات اللذيذة، ويضع

لنفسه حراسا، إلا أنه لم يكن يرغب في ذلك، بل كان لباسه عباءة يمكن أن يرتديها أبسط الناس في ذلك الوقت، وكان مأكله بسيطا.

سيرة الأمير عبد القادر تكشف لنا عن أنموذج الرجل الزاهد والمحارب في الوقت نفسه، يتقدم الجيوش ويشارك في المعارك، وكثيرا ما صرف أمواله الخاصة على الفقراء والمساكين ومصاريف الحرب، والأكثر من ذلك أنه لم يكن يأخذ من أموال الخزينة.

إن الأمير من أنصار السلم والتعايش وهو يرفض الحرب والنزاع والصراع، ولم يرفض حلول الاستعمار بالجزائر إلا أنه لم تضق به أرضه، فلو كان الأمر كذلك لمنحهم الجزء من أرض الجزائر وأوصى عليهم شعبه وتقاسم معهم حاجيات العيش، لكنهم قدموا أرض الجزائر من أجل النهب والظلم والاستيلاء، لهذا كان الأمير عبد القادر يقبل معاهدات الصلح التي من خلالها تبين أنه مُفاوض وديبلوماسي محنك، وفرض فيها شروطه على المستعمر ولم يتنازل عنها إلا إذا كان عدم التنازل يلحق به الضرر.

تجلى الإنسان الكامل في شخص الأمير نفسه، وقد سعى جاهدا لصناعة الإنسان الكامل في دولته، ويمكن أن تتمظهر صفات الإنسان الكامل في شخصية المتصوفين.

إن تصوف الأمير عبد القادر هو تمثيل لتجربة شخصية ذاتية عاشها الأمير عبد القادر، إلا أن هذه التجربة الذاتية قد مكنته من تحقيق أبعاد إنسانية وحضارية لممارسته السياسية، إذ أن تجربة تصوف الأمير عبد القادر لم تكن دافعا إلى العُزلة والابتعاد عن الناس والانطواء على الذات فقط، بل هي على العكس من ذلك تجربة روحية ساهمت ودفعت إلى العودة إلى الواقع ومعالجته بكل روح إيمانية معتمدة على مبادئ الدين الإسلامي، فالإسلام والتصوف والتدين والمجاهدة لا يعني التقوقع والتقهقر والتخلف.

اعتمد الأمير عبد القادر على القلب لفهم النص القرآني، فهما جديدا يتماشى مع روح العصر، وحاول تبعا لذلك، النهوض بالإنسان الجزائري لإعادة بناء فهم جديد لماهية الإنسان وماهية الدولة، فقد تمكن من توحيد القبائل وإنهاء الصراع بينها لأن الإسلام يدعو إلى التعايش والحوار والتعاون لا الصراع، وقد بين بأن الدين الإسلامي دين عالمي يدعو إلى الإنسانية والعالمية لا إلى الانعزال.

والأجدر الإشارة إلى أن تصوف الأمير ساعده كثيرا أثناء المحن والمصائب، لأنه أدرك أن الدنيا زائلة وينبغي على الإنسان أن يكون صبورا ومُتيقنا أن بعد العُسر يسرا، فمثلا عندما نُفي إلى سجن أمبواز تحصر على ذلك، وواصل هناك مسيرته في الجهاد بالقلم، فانتقل بذلك من الجهاد بالسيف إلى الجهاد بالقلم، استغل السجن والمنفى في الدراسة والعبادة.

إذن من خلال أطروحتنا هذه أردنا تسليط الضوء على المرامي الحضارية والإنسانية التي كان يهدف إليها الأمير عبد القادر ونذكر من ذلك:

- مقصدية العقل: حيث ميز الله الإنسان عن الحيوان بالعقل هذا الأخير الذي يستطيع به النظر والتمييز وابتكار العلوم والصناعات.

- البعد الإنساني: مراسلاته الإنسانية والحوارية خاصة منها مع الأسقف دوبوش، كما شهد عليه الأعداء بحسن معاملة الأسرى إذ كان عدوا كريم الأخلاق، وقال أنه لم يُولد ليكون محاربا وإنما الحرب فرضت عليه.

- مقصد العيش المشترك: وهذا ما يظهر من خلال توحيده للقبائل الجزائرية التي كانت مشتتة متناحرة فيما بينها وجعل قاسمها المشترك هو الدين الواحد، والاتحاد للجهاد حتى يتم طرد المستدمر، كما رفض الصراع بين الدروز والنصارى وأرادهم أن يعيشوا معا.

- مقصد الجدة: سعى لصناعة الفرد الجديد المنفتح الذي يقبل حوار الحضارات والأديان المتعلم يعيش في مجتمع الجديد يحكمه النظام الشوري متعدد الصناعات له وزارة وزصك عملة – الدولة الجنينية- كما جدد في مفهوم الجهاد الذي رأى أنه هو بذل الجهد، ولما تعرض للخيانة من الداخل والخارج وقلت امكانيات الجهاد استسلم والنتقل من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.

ففي أطروحتنا هته هناك جانب تابت يتجلى في الفلسفة الحضارية والإنسانية للأمير عبد القادر، وجانب متحول يتمثل في التجربة الصوفية العملية للأمير عبد القادر.

فهارس الأطروحة

فهرس المصادر والمراجع

فهرس المصادر:

1. الأمير عبد القادر الجزائري، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، تح: العربي دحو، دار شالة، الجزائر، ط3، 2007.

2. الأمير عبد القادر الحسيني الجزائري، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، تح: عبد الباقي مفتاح، ج1، ج2، ج3، دار الهدى، الجزائر، ط1، 2005.

3. الأمير عبد القادر، المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، د(ط، س).

4. الأمير عبد القادر، بغية الطالب على ترتيب التجلي بكليات المراتب، منشورات محمد علي بيضون، لبنان، ط1، 2004

فهرس المراجع:

أ. بالعربية:

5. أ.ف. دينيزن، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية، في الجزائر، تر: أبو العيد دودو، دار هومة، الجزائر، د (ط)، 2009.

6. ابن خلدونعبد الرحمن، شفاء السائل لتهذيب المسائل، المكتبة الكاثوليكية، بيروت، د (ط، س).

7. أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2003.

8. أبو حامد الغزالي، تهافت الفلاسفة، دار المشرق، بيروت، د(ط، س).

9. أبو حامد الغزالي، روضة الطالبين وعمدة السالكين، دار النهضة الحديثة، بيروت، د (ط، س).

10. أبو حامد الغزالي، مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب في علم التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت، د (ط، س).

11. حرب أديب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر جزائري، ج1، ج2، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط2، 2004.

12. إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت الأمير عبد القادر،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر، ط2، د (س).

13. الأمير خالد، رسالة إلى الرئيس ويلسون ونصوص أخرى، تر: محمد المعراجي، المؤسسة الوطنية للنّشر والاتصال والإشهار، رويبة، د(ط)، 2008.

14. الأمير عبد القادر، الأمير عبد القادر جوانب من شخصيته ومختارات من مؤلفاته، الشركة الوطنية، الجزائر، ط 2، 1970.

15. الأمير محمد سعيد، مذكراتي عن القضايا العربية والعالم الإسلامي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ط1، 1951.

16. الأميرة بديعة حسني الجزائري، فكر الأميرعبد القادر حقائق ووثائق،دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 2000.

17. الأميرة بديعة حسني الجزائري، وما بدلوا تبديلا تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ودولته وهجرته، دار الفكر، دمشق، ط1، 2002.

18. أوصديق فوزي، النظام الدستوري الجزائري – دولة الأمير عبد القادر دراسة تحليلية مقارنة –، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د(ط)، 1995.

19. بديعة حسني الجزائري، الجذور الخضراء، دار السلام، دمشق، د (ط)، 1992.

20. برونو إيتين، عبد القادر الجزائري، مؤسسة الاتصال والنشر والإشهار، الرويبة، ط2، 2001.

21. العسلي بسام، الأمير عبد القادر الجزائري، دار النفائس، بيروت،ط1، 1980.

22. بلحاج صالح حمزة وآخرون، الحياة الروحية للأميرملتقى الجزائر 1998، مؤسسة الأمير عبد القادر، الجزائر، د (ط)، 1998.

23. بلخوجة عمار، الأمير عبد القادر لا سلطان ولا إمام، تر: حبيب شنيني، منشورات ألفا، الجزائر، ط1، 2008.

24. بن التهاميالحاج مصطفى، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، دار البصائر، الجزائر، د(ط)، 2009.

25. بن رويلةقدور، وشائح الكتائب وزينة الجيش المحمدي المليانى، تح: محمد بن عبد الكريم، دخائر المغرب العربي، الجزائر، د (ط)، 1968.

26. بن سبع عبد الرزّاق، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، مؤسسة عبد العزيز سعود الباطنيين للإبداع الشّعري، الكويت، د(ط)، 2000.

27. بن عومر رزقي ، قضايا في التصوف الجزائري، دار لالة صفية، الجزائر، د (ط، س).

28. بن قينة عمر، الأمير عبد القادر الشاعر المصور، دار النشر شالة، الجزائر، د (ط، س).

29. بن نعيمة عبد المجيد وآخرون، موسوعة أعلام الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، د (ط)،2007.

30. بوطالب عبد القادر، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية – من الأمير عبد القادر إلى حزب التحرير، منشورات دحلب، الجزائر، د (ط)، 2009.

31. بوعمران الشيخ وآخرون، نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر، مؤسسة الأمير عبد القادر، الجزائر، ط2، 2001، ص 94.

32. بويجرة بشير ، مجمع الزاد في ما طفح به المقراض الحاد، دار القدس العربي، وهران، د (ط، س).

33. بيربروجير أدريان، مع الأمير عبد القادر – رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير عبد القادر في البويرة –، تر: أبو قاسم سعد الله، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، د(ط)، 2010.

34. الجزار أحمد كمال ، المفاخر في معارف الأمير الجزائري عبد القادر والسّادة والأولياء الأكابر، المطبعة العمرانية للأوفست، الجيزة، ط1، 1998.

35. الجزار أحمد كمال ، مختصر كتاب المواقف الروحية والفيوضات الروحية للأمير عبد القادر الجزائري، الهيئة المصرية، مصر، د (ط، س).

36. جواد مغنيةمحمد، معالم الفلسفة الإسلامية نظرات في التصوف والكرامات، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1986.

37. الراسي جورج، الدين والدولة في الجزائر من الأمير عبد القادر .....إلى عبد القادر، دار القصبة للنشر، الجزائـــر، د (ط)، 2008.

38. حسانيمختار، ثورة الأمير عبد القادر من خلال ثلاثة مخطوطات، دار الحكمة، الجزائر، ط1، د(س).

39. خالد محمد خالد، إنسانيات محمد، مكتبة وهبة، الجزائر،ط2، 1963.

40. دحدوح عبد القادر، استحكامات الأمير عبد القادر العسكرية، موفم للنشر، الجزائر،د (ط)، 2008.

41. راضيعلي عبد الجليل، حياة محمد الروحية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، د (س).

42. سعيدونيناصر الدين، عصر الأمير عبد القادر، مؤسسة عبد العزيز سعود الباطنيين للإبداع الشّعري، الكويت، د(ط)، 2000.

43. سلوم توفيق وآحزون، الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابي، لبنان، ط1، 2000.

44. سميح عباس، أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم، دار الجيل، بيروت، ط1، د(س).

45. الشريف السحليمحمد ، تع: حبيب شنيني، الأمير عبد القادر أباطيل فرنسية وحقائق جزائرية، دار القصبة للنشر، الجزائر، د(ط)، 2003.

46. صالحالسيدفؤاد،الأميرعبدالقادرالجزائريمتصوفاوشاعرا،المؤسسةالوطنيةللكتاب، الجزائر،د (ط)، 1985.

47. الصغير البنانيمحمد، مذكرات الأمير عبد القادر، دار الأمة، الجزائر، د(ط)، 2008.

48. الصغير عبد المجيد، في الفكر الصوفي المغربي، دار النجاح، دار البيضاء، ط1، 1999.

49. طالبيعمار، الأمير عبد القادر ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، دار القصبة، الجزائر، ط 2، 2005.

50. عبد الجليل عبد الكريم، التأمل عند الغزالي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2000.

51. عبد الحليم محمود، الإسراء والمعراج، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، د (ط،س).

52. عدة بن داهة، رحلة في رحاب دولة الأمير عبد القادر، دار الخلدونية، الجزائر، د (ط)، 2014.

53. عرفان عبد الحميد الفتاح، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، دار الجيل، بيروت، ط1، 1993.

54. عزوزي محمد طاهر وآخرون، الزمالة العاصمة المتنقلة للأمير عبد القادر، مؤسسة الأمير عبد القادر، تيارت، د (ط، س).

55. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي،دار الغرب، وهران، ط3، 2009.

56. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر الشّاعر. مدخل إلى تحليل الخطاب الشّعري في محطّة المابعد . ، دار الغرب، وهران، ط2، 2004.

57. عشراتي، سليمان، الأمير عبد القادر المفكر، دار الغرب، وهران، ط3، 2009.

58. عميراوي أحميدة وآخرون، الزمالة بين المفهوم والواقع، الملتقى الوطني الخامس الزمالة العاصمة المتنقلة للأمير عبد القادر، مرجع سابق، دار البعث، قسنطينة، د (ط، س).

59. عميراوي أحميدة، من تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى، الجزائر، ط2، 2009.

60. عوني أحمد وآخرون، الأمير عبد القادر مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، مطبعة دحلب، الجزائر، د(ط)، 1996.

61. غالب مصطفى، في سبيل موسوعة فلسفية، دار مكتبة الهلاك، لبنان، د (ط)، 1995.

62. غلام الله بو عبد الله وآخرون، أعمال ملتقى الأمير عبد القادر، دار الحكمة، الجزائر، د(ط)، 1998.

63. قداش محفوظ وآخرون، سلسلة الفن والثقافة، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، د(ط)، ماي1974.

64. قرقورة إدريس ، فارس الجزائر الأمير عبد القادر، دار الغرب، وهران، د (ط، س).

65. كبيرسليمة ، من أعلام الجزائر في العصر الحديث الأمير عبد القادر، المكتبة الخضراء، الجزائر، د (ط، س).

66. الكلونيل أسكوت، مذكرات الكلونيل أسكوت عند إقامته في زمالة الأمير عبد القادر 1841، تر: إسماعيل العربي، مركب الطباعة، الرغاية، د(ط)، 1981.

67. الكيلاني نجيب، حول الدين والدولة، دار النفائس، لبنان، د(ط، س).

68. مجاهدمسعود، كفاح الجزائر البطولي في عهد الأمير وبعد وفاته، مؤسسة الأمير عبد القادر، الجزائر، ط2، 1982.

69. محمد السيد علي الوزير، الأمير عبد القادر الجزائري، ثقافة و أثرها على أدبه، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

70. محمد عبده وآخرون، في الفرق الصوفية نشأتها وتطورها، دار الأرقم، الكويت، د (ط، س).

71. المرابط جواد، التصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري، دار اليقظة العربية، سوريا، د(ط)، 1966.

72. مرحبا محمد عبد الرحمن ، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، مكتبة الفكر الجامعي، بيروت، د (ط، س).

73. مصباحيقدور، شباب الأمير عبد القادر، ديوان المطبوعات، الجزائر، د(ط)، 2007.

74. معمر الدين عبد القادر وآخرون، الملتقى الوطني حول أمجاد الفكر الصوفي، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط4، د(س).

75. ملاح أحمد، الأمير عبد القادر المتصوف المصلح، منشورات دار الأديب، وهران، د (ط، س).

76. منصور بن عوف عبد الكريم، حوار مع الأمير عبد القادر، دار القدس، وهران، د (ط)، 2013.

77. مياسي إبراهيم ، روح الأمير عبد القادر عبر المقاومة الجزائرية، دار هومة، الجزائر، د (ط)، 2012.

78. نزار أباظة، الأمير عبد القادر العالم المجاهد، دار الفكر، سورية، ط1، 1994.

79. هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، د(ط)، 2009.

80. ودان بوغفالة وآخرون، الأمير عبد القادر عبقرية في الزّمان والمكان، مكتبة الرشاد، الجزائر، د (ط، س).

81. يوهان كارل بيرنت، الأمير عبد القادر، تر: أبو العيد دودو، دار هومة، الجزائر ، د (ط)، 2009.

ب- **بالأجنبية:**

82. Abd el Kader, Amir Abd el Kader, l'illustratrecapitif, d'Amboise, D'Ahle.

83. Charles-HenryChurchill , la vied abd el-kaderanep, editionsRouiba, Alger, 2008.

فهرس المعاجم والموسوعات:

أ- فهرس المعاجم بالعربية:

84. ابن منظور،لسان العرب، تح: عبد الله علي كثير وآخرون، المجلد 1،دار المعارف، القاهرة، د (ط ، س).

85. أسين بلا ثيوس، ابن عربي حياته ومذهبه، تر: عبد الرحمن بدوي، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، د (ط)، 1965.

86. أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تع: أحمد خليل، منشورات عويدات، باريس، ط2، 2001.

87. ساعد خميسي، نظرية المعروفة عند ابن عربي، دار الفجر، بيروت، ط1، د (س).

88. صليبياجميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، لبنان، د (ط)، 1982.

89. الكامل فؤاد وآخرون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار القلم، بيروت، د (ط، س).

90. لويس معلوف، المنجد، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، د (ط، س).

91. مذكور إبراهيم ، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، د (ط ، س).

92. وهبة مراد وآخرون، المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ط2، 1971.

93. يعقوبي محمود ، معجم الفلسفة، الميزان، الجزائر، ط2، د (س).

94. يعقوبي محمود ، معجم الفلسفة، الميزان، الجزائر، ط2، د (س).

ب- فهرس المعاجم بالأجنبية:

95. AndréJacob ,Encyclopédique, philosophique universel, Puf Paris, 1997.

فهرس المقالات والأطروحات:

أ- المقالات

96. بسايح بوعلام، الأمير عبد القادر وحقوق الإنسان ملتقى دولي بمجلس الأمة، مجلة تصدر عن مجلس الأمة، مارس 2008، العدد 35.

97. بوعرفة عبد القادر، الأمير عبد القادر وإشكالية الدولة الوطنية، مجلة الدردارة : أيام ملتقى 26 27 نوفمبر لمبايعة الأمير عبد القادر، عدد 5.

98. بوعزيز يحيى، مجلة الأصالة، جامعة وهران، 1976، العدد 1.

99. خالد التوزاني، الأمن الروحي في الرحلات الصوفية المغربية، مجلة تاريخ العلوم،2016، العدد 4.

100.عبد اللاويمحمد، الروحانية والسياسة عند الأمير عبد القادر، مجلة الدردارة، أيام ملتقى 26 27 نوفمبر الذكرى 169 لمبايعة الأمير عبد القادر، 2001، معسكر، عدد خاص.

101.عزويمحمّد الطاهر،تصوّف الأمير عبد القادر، مجلّة مسالك، ديسمبر 1998، العدد 3.

102.قويدري هاجر، الأمير عبد القادر في عباءة محي الدين بن عربي، جريدة الفجر، يوم 11- 09- 2011.

ب- فهرس الأطروحات:

103. بن ساعدعائشة، البعد الروحي لمقاومة الأمير عبد القادر، أطروحة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2003- 2004.

104. سعدانيسليم، الانزياح في الشعر الصوفي، أطروحة ماجستير، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة ورقلة، سنة 2010.

فهرس الموضوعات

مقدمة.....أ

الفصل الأول: بدايات تجربة الأمير عبد القادر الصوفية .....ص 9

المبحث الأوّل:عن التصوف .....ص 10

المبحث الثاني:.موقف الأمير عبد القادر من التأويل العقلي .....ص 28

المبحث الثالث: مصادر تصوف الأمير عبد القادر..... ص 45

الفصل الثاني: المصوّغات الحضارية للتجربة الصوفية عند الأمير عبد القادر .....ص 59

المبحث الأوّل:التصوف عند الأمير عبد القادر ص60

المبحث الثاني:نماذج تأويلات الأمير عبد القادر ص74

المبحث الثالث: الأمير عبد القادر رجل صوفي وحضاري .....ص 91

الفصل الثالث: مواقف الأمير عبد القادر الإنسانية .....ص 110

المبحث الأوّل: روح الحوار عند الأمير عبد القادر .....ص 111

المبحث الثاني: ثقافة الأخوة والمصالحة في فكر الأمير عبد القادر .....ص 126

المبحث الثالث: البعد الإنساني عند الأمير عبد القادر .....ص 141

الفصل الرابع: قراءة تقييمية لمشروع الأمير عبد القادر المتصـــــوف والسياسي ..... ص 154

المبحث الأول: مفهوم دولة عند الأمير عبد القادر .....ص 156

المبحث الثاني: الأمير عبد القادر المتصوف والسياسي .....ص 169

المبحث الثالث: المشروع الفكري للأمـــــير عبد القادر بـــين مؤيدين ومعارضين .....ص 183

. **خاتمة** .....ص 199

– قائمة المصادر والمراجع .....ص 203

– فهرس الأطروحة .....ص 215

الملخص بالعربية:

امتاز الأمير عبد القادر بنزعته الإنسانية مع المستعمر الفرنسي سواء في مرحلة السلم أو الحرب، لأنه كان يرى فيهم عباد الله وهو حاربهم لأنهم لم تنفع معهم المعاملة بالتي هي أحسن وجاءوا للجزائر من أجل الاستيلاء لا لاجئين طالبين العون، وتتجلى أخلاقه الإنسانية من خلال معاملته للأسرى والاعتناء بهم واعتبارهم ضيوفا لهم بل الأكثر من ذلك كان يأتي بقسيس مسيحي ليصلّي بالأسرى المسيحيين، كما كان يقبل الحوار مع المختلفين عنه في الدين ولاسيما الفرنسيين لأنه رأى أن الأديان المنزلة هي من إله واحد تتفق في الأصول وتختلف فقط في الفروع، ولم يكن حقودا على المسيحيين رغم ما تعرض إليه من أذى ونفي حيث دافع عنهم وتولى أمر حمايتهم مما تعرضوا إليه من معاناة من طرف مسلمي دمشق.

الملخص بالانجليزية:

Amir Abdel kader was particularized for hishumanity with the colonized people because hesaw them as worshipers of Allah. Nonetheless, he fought them since they resorted to Algeria for colonization.

His human morality was manifested through his way of treating the prisoners and taking care of them. As he was tolerant toward those who differed from him in religion, especially the French, he believed that the religions caome out done God with the same roots and differ only in the branches. Besides he was tolerant to Christians, he even took the order to protect them from the Muslims of Damascus .